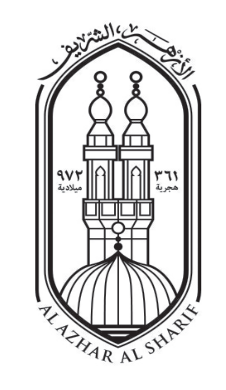
الأزهر الشريف
قطاع المعاهد الأزهرية



تاريخ الأدب العربي ونصوصه

للصف الثاني الثانوي

لجنة إعداد وتطوير المناهج بالأزهر الشريف

١٤٤٢ هـ

٢٠٢٠ - ٢٠٢١م

مقدمة

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسانَ ما لم يعلمْ، والصلاةُ والسلامُ على من بعثه ربُّه مُعَلِّمًا، فَعَلَّم الجاهلَ، وقوَّم المائلَ، وميَّزَ الحقَّ من الباطلِ.

أمَّا بعد:

فإنَّ دراسةَ الأدب الرصين الهادف ضرورةٌ علميَّةٌ وسلوكيَّةٌ ووجدانيَّةٌ، وقد نُقِل عن بعض الأئمة القول: «رَوُّوا أولادكم الشِّعْرَ؛ فإنَّه يَحُلُّ عُقْدَةَ اللسانِ، ويُشَجِّعُ قَلْبَ الجَبانِ، ويُطْلِقُ يَدَ البَخِيلِ، ويَحُضُّ على الخُلُقِ الجَمِيل».

فدراسة الأدب تنمِّي الثروة اللغويَّة التي يتمكَّن بها الطالب من التعبير عما في نفسه بصورة مُشرقة مُؤثِّرة، وتنمِّي أيضًا ملكة تذوُّق النصوص الأدبيَّة، وتعزِّزُ الحاسَّة النقديَّة، وكلُّ ذلك يُعِينُ على فهم أساليب القرآن الكريم وتدبُّر معانيه، وهو ما يشير إليه قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما «إِذَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ فَابْتَغُوهُ فِي الشِّعْرِ، فَإِنَّهُ دِيوَانُ الْعَرَبِ».

كما أنَّ دراسة الأدب الهادف تغرس كثيرًا من القيم والاتجاهات الإيجابيَّة من شجاعة ومروءة وكرم وعفَّة ونجْدة، وهو ما عناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله: «تَعَلَّمُوا الشِّعْرَ، فَإِنَّ فِيهِ مَحَاسِنَ تُبْتَغَى، وَمَسَاوِئَ تُتَّقَى، وَحِكْمَةً لِلْحُكَمَاءِ، وَيَدُلُّ عَلَى مَكَارِمِ الأَخْلاقِ».

ناهيك عن كون الإنسان الذي يتذوَّق الأدب يشعر بالراحة النفسيَّة عند معايشة ذلك الفنَّ الجميل، مما يمنحه طاقة هائلة من السعادة وإشراق النفس.

فلا جرم أن تهتمَّ الأمم كلُّها بدراسة آدابها، وتشجِّع أبناءها على الإبداع الأدبيِّ بكلِّ أجناسه، وتعدُّ نبوغ أديب فيها من أعظم مفاخرها.

وأدبنا العربي أعرق الآداب الحيَّة؛ فهو متصل العطاء منذ مائتي سنة - على الأقلّ - قبل الإسلام إلى يومنا هذا، وهو ما لا نظير له في الدنيا بأسْرها، فليس من العجيب أن تهتمَّ الأمَّة العربيَّة بهذا التراث الخالد، وأن تعمل على غرس حبِّه في نفوس الناشئة، وعلى وضع المناهج الدراسيَّة التي ترصد أهم معالمه، لتكون الأجيالُ الحاضرةُ والقادمةُ على اتصال بتراثها المجيد.

والأزهر الشريف الذي كان ولا يزال حصنًا للإسلام، ومنارةً لعلوم اللغة العربية يُفْرد الأدب العربيّ إبداعًا وتاريخًا ونقدًا بمادة مستقلَّة في المرحلة الثانويَّة، حيث يدرس الطالب الأزهريُّ الأدب القديم (الجاهليّ والإسلاميّ والأُمويّ) في السنة الأولى، والأدب الوسيط (العباسيّ والمملوكيّ والأندلسيّ) في السنة الثانية، والأدب الحديث في السنة الثالثة؛ مما يجعله على وعْيٍ كامل بحركة الأدب العربي عبْر عصوره المختلفة، ومذاهبه المتنوِّعة.

وهذا كتاب السنة الثانية نضعه بين يدي أبنائنا وبناتنا، مُصوِّرين فيه حالة الأدب العربي في ثلاثة عصور وبيئات مختلفة:

ففي العصر العباسي بلغت الأمة أعلى مراتب التقدُّم العلمي والأدبي، وزخر العصر بأبرز أعلام الشعر (أبو تمام، البحتري، المتنبي، أبو العلاء المعري)، كما برع بديع الزمان الهمذاني في «فنِّ المقامة»؛ ليكون قالبًا طريفًا للمعاني والأغراض كافةً، ومَعْلَمًا مهمًّا من معالم فن القصَّة في الأدب العربيّ.

وفي العصر المملوكي صمدت مصر والشام في وجه موجات الصليبيِّين والتتار، حتى تمكَّنت الدولةُ المملوكية المُجاهدةُ من تطهير مصر والشام من ذلك الاحتلال البغيض، كما تمكَّنت من حماية العلوم العربيَّة والإسلاميَّة من الضياع، ولا غَرْوَ فهو العصر الذي ظهر فيه علماء كبار مثل (ابن تيمية، ابن القيم، أبو حيان، ابن منظور، ابن حجر العسقلاني، السيوطي)، وأدباء بارزون مثل (البوصيري، ابن الوردي، ابن نُباته، شهاب الدين محمود).

وفي الأندلس ذلك الفردوس المفقود كتب المسلمون بحروف من نور روائع حضارتهم وآدابهم في تلك البقعة البعيدة عن العيون القريبة مِن القلوب، على مدار أكثر من ثمانية قرون من العطاء العلميّ والحضاريّ الذي كان مشعلاً استنارت بهَدْيه الحضارةُ الأوربيَّةُ في طريق نهضتها، وحسبنا أنَّ الأندلس هي التي نبغ فيها (ابن زيدون، ابن عبد البرّ، ابن حزم، ابن رشد، ابن طفيل، لسان الدين بن الخطيب).

وقد توخَّينا في هذا الكتاب تيسيرَ المعلومة، ووضوحَ العبارة، والبُعْدَ عن الاستطراد، وشرح المفردات الغامضة في جميع النصوص التي بين دفَّتيْه، وانتقاء النصوص الهادفة، وتحليل النصوص تحليلاً أدبيًّا مُناسبًا للمرحلة العُمْريَّة، وتعزيز الدروس بتمرينات متنوِّعة؛ وتذييل كل وحدة بمعلومات إثرائيَّة مُفيدة، والتنبيه على جملة من المصادر المهمَّة؛ لتكون نبراسًا لمن أراد التوسُّع، مما يساعد ـ في تقديرنا ـ على تحقيق المادة أهدافها المعرفيَّة والمهاريَّة والوجدانيَّة.

والله نسأل أن ينتفع طلابنا بهذا الكتاب، وأن يعلو بهم شأن الأزهر؛ ليتصل حاضره المجيد بماضيه التليد. إنَّه نعم المولى ونعم النصير.

الأهداف العامة للكتاب

١ـ التعرف على تأثير الحياة السياسية في كل من العصر العباسي، والمملوكي، والأندلسي في النتاج الأدبي لهذا العصر.

٢ـ التعرف على تأثير الحياة الاجتماعية في كل من العصر العباسي، والمملوكي، والأندلسي في النتاج الأدبي لهذا العصر.

٣ـ التعرف على تأثير الحياة العلمية في كل من العصر العباسي، والمملوكي، والأندلسي في النتاج الأدبي لهذا العصر.

٤ـ القدرة على تحديد العوامل التى أدت إلى ازدهار الشعر والنثر في كل من العصر العباسي، والمملوكي، والأندلسي.

٥ـ المقارنة بين كل من العصر العباسي، والمملوكي، والأندلسي في الفنون الأدبية المختلفة.

٦ـ شرح الأسباب التي أدت إلى ظهور وانتشار فنون شعرية و نثرية لم تكن موجودة قبل كل من العصر العباسي، والمملوكي، والأندلسي.

٧ـ معرفة السير الذاتية والنتاج الأدبى لعدد من أدباء كل من العصر العباسي، والمملوكي، والأندلسي.

٨ـ حفظ بعض النصوص الأدبية لبعض أدباء العصر العباسي، والمملوكي، والأندلسي.

❊ ❊ ❊

الوحدة الأولى
الأدب العربي في العصر العباسي

أهداف الوحدة:

بعد الانتهاء من هذه الوحدة ينبغي أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ ـ يتعرف على تأثير كل من الحياة السياسية والاجتماعية، والعلمية في النتاج الأدبي للعصر العباسي.

٢ ـ يذكر أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور بعض الفنون الأدبية من شعر ونثر في العصر العباسي.

٣ ـ يسرد ترجمة لبعض أدباء هذا العصر.

٤ ـ يحفظ بعضًا من نصوص هذا العصر، ويمتلك القدرة على شرحها.

٥ ـ يحدد أهم خصائص الشعر والنثر في العصر العباسي.

الدرس الأول

ملامح الحياة في العصر العباسي

أهداف الدرس:

بنهاية الدرس يتوقع أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يذكر التقسيم التاريخي المناسب للعصر العباسي.

٢ـ يشرح كيف أثَّرت الحياة السياسية في العصر العباسي في النتاج الأدبي لهذا العصر.

٣ـ يبين كيف أثرت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي في النتاج الأدبي لهذا العصر.

٤ـ يوضح كيف أثرت الحياة العلمية في العصر العباسي في النتاج الأدبي لهذا العصر.

تمهيد: تقسيم العصر العباسي:

اختلف الباحثون اختلافًا شديدًا في تقسيم العصر العباسي إلى مراحل، إلا أنهم اتفقوا على أنَّ العصر العباسي يبدأ بعام ١٣٢ هـ، حيث غربت شمس الدولة الأموية وتولى أبو العباس السفاح مقاليد الحكم، كما اتفقوا على أنَّ نهايته كانت بسقوط بغداد في يد التتار عام ٦٥٦ هـ، وقتل الخليفة المستعصم بالله على يد التتار؛ ولعل السبب في اختلاف الباحثين في هذا التقسيم يرجع إلى: طول العصر العباسي (خمسة قرون)، وصعوبة مجاراة الأحداث والوقائع، وصعوبة الوقوف على الخصائص الفنية لكل أقاليم الدولة العباسية كوحدة متصلة.

قسم المؤرخون العصر العباسي إلى أربعة أقسام وهي:

العصر العباسي الأول: ويبدأ من ظهور الدولة العباسية إلى أول عهد خلافة المتوكل (١٣٢هـ ـــ ٢٣٢هـ).

العصر العباسي الثاني: يبدأ من عهد المتوكل إلى تولي البويهيين الفُرْس الحكم الفعلي (٢٣٢هـ ـــ ٣٣٤هـ).

العصر العباسي الثالث: يبدأ من حكم البويهيين إلى استيلاء السلاجقة الأتراك على بغداد (٣٣٤هـ ـ ٤٤٧هـ).

العصر العباسي الرابع: يبدأ من قيام دولة السلاجقة إلى سقوط بغداد في أيدي التتار (٤٤٧هـ ـ ٦٥٦هـ).

١ـ الحياة السياسيَّة:

نشطت الدعوة العباسيَّة في بلاد فارس، حيث حمل لواء الدعوة هناك «أبو مسلم الخراساني»، الذي حارب الأمويين حتى انتصر عليهم، وقضى على دولتهم.

تولى أبو العباس السفَّاح حكم الدولة العباسية، وجاء من بعده خلفاء أقوياء مثل:أبو جعفر المنصور، هارون الرشيد، المأمون، المعتصم... وغيرهم، لكننا إذا تجاوزنا المائة عام الأولى؛ فإنَّ بقية العصر التي تزيد على أربعمائة عام كانت مقاليد الأمور في يد الأتراك تارة والفرس تارة أخرى، حيث صار المنصب صُوريًّا، بل صار الخليفة ألعوبةً في يد الحُكَّام الفعليين من أتراك وفُرْس، حتى صار الخليفة بمنزلة الببَّغاء الذي يردِّد ما يقوله المستشارون الأجانب، ولذا قال أحد الشعراء في الخليفة العباسي المستعين (أحمد بن المعتصم تولى عام ٢٤٨هـ):

خَليفــةٌ في قَفَــصٍ ** بــين وَصِيــفٍ وبُغَــا

يقــولُ مــا قــالا لــهُ ** كــما تــقولُ البَّــبغا[١]

وقال الخليفة المعتمد على الله (أحمد بن المتوكل تولى عام ٢٥٦هـ) في حق نفسه لما أمر بهدية من الذهب لمُغنِّيَة أطربته، فلم يُلَبِّ له القائمون على خزانة الدولة طلبه:

أَلَيْسَ من العجائبِ أنَّ مِثْلي ** يَرى ما قَلَّ مُـمْتَنِعًا عَلَيْهِ؟

وَتُؤْكَلُ باسْـمِهِ الدُّنْيا جَميعًا ** وما مِنْ ذاكَ شَيءٌ في يَدَيْـهِ؟

إليهِ تُـحْمَـلُ الأمـوالُ طُرًّا ** وَيُمْنَعُ بَعْضَ مَا يُـجْبَى إليْـهِ[٢]

---

(١) وصيف، بُغَا: من أشهر قادة الجند من الأتراك، وقد استعان بهما الخليفة الواثق بالله في القضاء على الفتن والثورات الداخليَّة، ولكنهما ما لبثا أن استحوذا على مقاليد الأمور عمليًّا. البَبَّغا: مقصور البَبَّغاء وهو: طائر معروف يحاكي كلام الناس، يسميه العامة في مصر (البغبغان).

(٢) طُرًّا: جميعًا، يُجْبى: يُجمع من الأقاليم على هيئة الخراج ونحوه.

٢ـ الحياة الاجتماعية:

كان الخلفاء وحاشيتهم من الوزراء والقواد يعيشون حياة مُتْرَفَةً ناعمةً بسبب الأموال الكثيرة التي كانت تُجْبى من أطراف البلاد، فقد كثر الإنفاق على موائد الطعام والشراب، وعلى شراء الجواري والغلمان، وعلى مجالس الغناء وتعاطي الخمور؛ مما صبغ المجتمع بصبغة جديدة من الترف لم يألفها العرب من قبل.

كما قامت حركة مناهضة للعرب تعرف بالشعوبية؛ ردًّا على تعصب الأمويين من قبل للعرب، فظهر في العصر العباسي من ينادي بالتسوية بين العرب وغيرهم، ثم من يجهر بتفضيل الفرس على العرب، ويعلن عن انتقاص العرب في أخلاقهم وثقافتهم، وحسبنا أن نسمع قول أبي نواس في حق العرب، وتقليدهم الشعري في الوقوف على الأطلال:

عـاجَ الشَّـقِيُّ عَـلى دارٍ يُسـائِلُها ** وَعُـدتُ أَسـأَلُ عَن خَمّـارَةِ البَلَدِ

لا يُرقِئُ اللهُ عَينَيْ مَن بَكى حَجَراً ** وَلا شَفى وَجْدَ مَن يَصبو إِلى وَتَدِ

قالوا ذَكَرتَ دِيارَ الحَيِّ مِن أَسَـدٍ ** لا دَرَّ دَرُّكَ قُل لي مَن بَنو أَسَدِ؟

وَمَن تَميمٌ وَمَن قَيسٌ وَإِخوَتُهُم؟ ** لَيسَ الأَعاريبُ عِندَ اللهِ مِن أَحَدِ[١]

٣ـ الحياة العلمية:

ازدهرت الحياة العلمية في هذا العصر ازدهارًا لم يسبق له مثيل، وبخاصة في القرن الرابع الهجري؛ لأسباب منها:

أ – انتشار حلقات التعليم في المساجد والكتاتيب.

ب – كثرة الهبات التي يعطيها الخلفاء للعلماء والمؤدِّبين.

ج – شيوع الجدل والمناظـرة في مجالس الخلفاء وغيرهم، مثل مناظرات أهل السنة مع المعتزلة في قضية خلق القرآن.

د – نشاط حركة الترجمة عن الفارسية واليونانية وغيرهما، وبخاصة في عهد الخليفة هارون الرشيد الذي أنشأ «دار الحكمة» في بغداد.

(١) عاج: يقال عاج على المكان أي انثنى عن طريقه وعطف عليه، يعنى وقوف الشعراء على الأطلال، رقأ الدمع والدم: جفَّ وانقطع، وجد: حُبّ، يصبو: يميل، لا درَّ درُّك: لا زكا عملك. الأعاريب: جمع أعراب، وأعراب: جمع أعرابي وهو البدوي الذي يسكن الصحراء.

هـ - ازدهار علوم اللغة والنحو والرواية، وبخاصة في المدرستين البصرية والكوفية.

و - نشاط حركة تدوين المرويَّات في العلوم الشرعية، وبخاصة الحديث النبوي الشريف مما ساعد على حدوث نهضة في دراسة التفسير والحديث والفقه وغيرها.

ومن العجيب أن يُقْبل غير العرب على تعلم اللغة العربية وإتقان آدابها، حتى إنَّ منهم من نهض بالتأليف في علوم اللغة العربية، وحسبنا أن نعلم أن «سيبويه» ليس عربيًّا، بل هو فارسي، واسمه يعني بالفارسية رائحة التفاح، كما نهضت دراسة العلوم الشرعية وبخاصة الفقه، حيث تكونت المذاهب الأربعة في هذا العصر، الإمام أبو حنيفة (ت١٥٠هـ)، والإمام مالك بن أنس (ت١٧٩هـ)، والإمام الشافعي (ت٢٠٤هـ)، والإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، ناهيك عن ظهور مئات المؤلفات في التفسير وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والعقائد والملل والنحل ... وغيرها من فروع الفكر الإسلامي.

❊ ❊ ❊

تدريبات

السؤال الأول: أجب عن الأسئلة الآتية:

١ـ «اختلف المؤرخون في تقسيم العصر العباسي وإن اتفقوا على بدايته ونهايته». اشرح ذلك، موضحًا التقسيم المناسب.

٢ـ مَنْ أبرز شعراء الشعوبية في العصر العباسي الأول؟ .

٣ـ الأموال التي كانت تُجْبى من أطراف البلاد أثرت في حياة الخلفاء والوزراء،وضح ذلك.

السؤال الثاني: علِّلْ لما يأتي:

١ـ ازدهار الحركة العلمية في العصر العباسي.

٢ـ صار منصب الخلافة صوريًا بعد العصر العباسي الأول.

٣ـ عاش الخلفاء والوزراء العباسيون حياة مترفة.

السؤال الثالث: أجب عما يأتى مكان النقط:

١ـ معنى لقب سيبويه...

٢ـ من قضايا الجدل بين أهل السنة والمعتزلة قضية ....

٣ـ معنى كلمة «طُرًّا»:..

السؤال الرابع: ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (×) أمام العبارة غير الصحيحة فيما يأتي:

١ـ الشعوبية: حركة اجتماعية تدعو إلى تفضيل العرب على العجم. ( )

٢ـ عاش الأئمة الأربعة في العصر العباسي. ( )

٣ـ «وصيف» و «بغا» من أمراء الفرس البارزين. ( )

٤ـ ازدهر علم النحو في مدرستي البصرة والكوفة في العصر الأموي. ( )

السؤال الخامس:

اذكر الأسباب التى أدت إلى ازدهار الحياة العلمية في العصر العباسي.

الدرس الثاني

الشعر العربي في العصر العباسي

أهداف الدرس:

بنهاية الدرس يتوقع أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يحدد أهم عوامل ازدهار الشعر في العصر العباسي.

٢ـ يحدد الدوافع التي أدت إلى ظهور فن المديح في العصر العباسي.

٣ـ يذكر أمثلة لفن الرثاء في العصر العباسي.

٤ـ يذكر أسباب ظهور التغزل بالغلمان في العصر العباسي.

٥ـ يعلل وجود شعر الخمريات، وشعر الزهد في العصر العباسي.

٦ـ يذكر أمثلة للشعر السياسي في العصر العباسي.

أولاً: عوامل ازدهاره:

١ـ إغداق الخلفاء الهبات والعطايا على الشعراء؛ فقد أعطى الخليفة «محمد المهديُّ بن أبي جعفر المنصور» الشاعرَ «مروان بن أبى حفصة» مائة ألف درهم مكافأة على قصيدة واحدة يدلِّل فيها على حق العباسيين في الخلافة، وأعطى الخليفة «هارون الرشيدُ» الشاعرَ «سلم الخاسر» عشرين ألف دينار مكافأة على قصيدة واحدة.

٢ـ إتقان الشعراء علوم اللغة بسبب سيطرة اللغويين على سوق الشعر؛ حيث كان حكمهم على شاعر باللحن أو الشذوذ أو مخالفة القياس كفيلاً بأفول نجمه.

٣ـ اتساع آفاق النقد الأدبي؛ حيث خرج من دائرة النقد التأثري الانفعالي إلى آفاق المنهجية العلمية، إذ أُلِّفَتْ أمهات كتب النقد الأدبي في تراثنا العربي كله في العصر العباسي مثل: طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، الشعر والشعراء لابن قتيبة، البيان والتبيين للجاحظ، جمهرة

أشعار العرب لمحمد بن أبي الخطاب القرشي، نقد الشعر لقدامة بن جعفر، البديع لعبد الله بن المعتز، الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني... وغيرها.

٤ـ تأثر الشعراء بالحياة العقلية المزدهرة نتيجة لنشاط حركة الترجمة، فدخلت الفلسفة الشعرَ، وحاول الشعراء نظم المقولات الفلسفية؛ فالشاعر أبو العتاهية عندما سمع مقولة بعضهم لما مات الإسكندر الأكبر: «الإسكندر كان أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس»، نظمه في قوله في رثاء أحد أصدقائه:

وكانتْ في حياتكَ لي عظاتٌ ⁂ فأنتَ اليومَ أوعـظُ منْكَ حيًّا

٥ـ الامتزاج القويُّ بين العرب وغيرهم من الأعاجم لا سيما من الفرس والروم؛ حيث غيَّر العباسيون ما درج عليه الأمويون من احتقار غير العرب؛ ولأن دولتهم قامت بسواعد الفرس فقد اختاروا منهم الكتاب والقُواد والوزراء، وتزوجوا من الفارسيات والروميات؛ حتى إنَّ معظم أمهات الخلفاء كنَّ غير عربيَّات؛ مما تولد عنه جيل جديد متميز بصفات عقلية، ونفسية جديدة، وقد تجلَّت تلك العقلية الجديدة في شعرهم الذي طرق موضوعات جديدة، وابتكر معاني مستحدثة، واصطبغ بألوان من الأصباغ التي لم يعهدها العرب من قبل.

٦ـ التنافس بين أمراء المناطق المختلفة في اجتذاب الشعراء إلى بلاطهم؛ فقد أدى ضعف مركزية الدولة في العصر العباسي الثاني إلى استقلال كثير من أمراء أطراف الدولة الإسلامية بما تحت أيديهم، فسمعنا عن الدولة الحمدانية في حلب، والدولة الطولونية، ثم الإخشيدية، ثم الفاطمية، ثم الأيوبية في مصر، والدولة السامانية والغزنوية في بلاد فارس، ودولة الأدارسة ثم الأغالبة في بلاد المغرب العربي، وغيرها. وقد كان كل أمير يطمع في مجيء الشعراء إلى بلاطه للتنويه بذكره، وتخليد مآثره؛ مما أسهم في رواج سوق الشعر.

ثانيًا: أهم أغراض الشعر في العصر العباسي:

١ـ المدح: كثر المدح في العصر العباسيّ كثرة مفرطة طمعًا في نوال الخلفاء، وإذا كان المدح في القديم يدور حول معاني العفة والشجاعة والكرم وغيرها؛ فقد زاد العباسيون فيه معاني جديدة كالحفاظ على الدين، والتقوى والورع، وإحياء السنة، كقول الشاعر «مروان بن أبي حفصة» في الخليفة محمد المهدي:

أحيـا أميـرُ المؤمنينَ محمَّــدٌ ⁂ سننَ النبيِّ حَـرامَها وحـلالَهَا

مَلِـكٌ تَفَـرَّعَ نَبعُهُ مِن هاشِـمٍ ** مَدَّ الإِلهُ عَلى الأَنامِ ظِلالَهَا[١]

٢ـ الرثاء: كثرت في العصر العباسيّ مراثي الخلفاء والقادة والزعماء، ولم يقتصر الشعراء على مجرد تعداد صفات المرثيّ، بل أضافوا إليها تمجيد البطولة والشهادة، وبخاصة إذا كان الفقيد شهيدًا، ومن أبرز قصائد الرثاء قصيدة أبي تمام في رثاء القائد البارع محمد بن حُمَيد الطوسي، وقد استشهد في حرب بابك الخُرَّميّ، ومطلع القصيدة:

أَصَمَّ بكَ النَّـاعي وإنْ كانَ أَسْمَعَا ** وأصبحَ مَغْنى الجُودِ بعدكَ بَلْـقَعَا[٢]

وقد أضاف العباسيون رثاء المدن، مثل رثاء بغداد التي خربت أيام الصراع بين الأمين والمأمون، ورثاء الحيوانات الأليفة كالفرس والقط، ورثاء الممتلكات الشخصية كالبستان والكتاب وغيرها.

٣ـ الغَزَل: ذاع الغزل في العصر العباسيّ ذيوعًا مُفْرطًا؛ بسبب انتشار الغناء والجواري والغلمان، وقد جنح بعض الشعراء عن العفة إلى المجون، وعن العذرية إلى الحسية، بل انحدر بعضهم إلى التصريح بالفواحش، ومع هذا فقد بقي التياران (العفيف والفاحش) على الساحة، ومن أبرز شعراء الغزل العفيف في ذلك العصر «عباس بن الأحنف» الذي اشتهر بحب «فوز»، وكانت جارية لأحد أصدقائه، من ذلك قوله فيها:

الحـبُّ أولُ مـا يكـونُ لجاجـةً ** تأتـى بـه وتسـوقه الأقـدارُ

حتى إذا سلك الفتى لُجَجَ الهوى ** جـاءت أمـورٌ لا تُـطاقُ كِبـارُ

نزفَ البكاءُ دموعَ عينِكَ فاستعرْ ** عينـاً لغَـيْرك دمعُـها مـدْرارُ

مـن ذا يُعـيركَ عيْـنَهُ تبكي بها ** أرأيْـتَ عيْـنًا للبُـكاءِ تُـعَارُ[٣]

٤ـ الخمريات: انتشـر شرب الخمر في العصر العباسيّ، وكانت هناك دور تدار فيها الكؤوس، وتغني فيها الجواري دون محاسبة من الخلفاء الذين حول بعضهم دار الخلافة إلى حانة لشرب الخمور، وحسبنا أن الأمين اتخذ أبا نُواس نديمًا له (أي جليسًا له في مجالس الشراب)، وكان أبو نواس ومعه «وَالِبَة بن الحُباب و مُطِيع ابن إياس» من أبرز شعراء هذا اللون من الشعر، فأبو نواس يجاهر بالشرب؛ لأنه نديم الخليفة، قائلاً:

(١) النبْع: شجر ينبت في أعالي الجبال تصنع منه القسي والسهام، ويقال فلان نبعة كريمة، أي: ماجد الأصل.

(٢) الناعي: من يعلن خبر الموت، مغنى: المَغْنى: المكان الطيب الذي يستغني أهله بالإقامة فيه عن غيره، البلْقع: المكان الخالي. والمعنى أنَّ خبر الوفاة لما وصل إلى آذاننا أصابها بالصمم، وحول أرض الكرم إلى صحراء خالية.

(٣) لجاجة: اضطراب في القلب، لُجج: جمع لُـجَّة وهي ماء البحر العميق الذي لا يدرك قاعه، تُطاق: تُحتمل، نزف: أفنى، مدرار: غزير.

أَلا فاسـقني خمرًا وقلْ لي هي الخمرُ ** ولا تسْـقنِي سرًّا إذا أمكنَ الجَهْـرُ

وبُحْ باسمِ منْ تهوى ودعني من الكُنَى ** فلا خـيرَ في اللذاتِ منْ دونها سِـتْرُ[١]

٥ـ الزهد: قابلت صفةُ الزهد صفةَ المجون والزندقة، فكل فعل له ردُّ فعل، ومن ثم امتلأت المساجد بالوعاظ والنُسَّاك والمُحَدِّثين، وكان فيهم الشعراء الصادقون من أمثال مالك بن دينار الذي يقول:

أتيتُ القبـــورَ فناديْتُها ** فأينَ الـمُعَـظَّمُ والمُـحْـتَقَرْ

وأينَ الـمُـذلُّ بِسُلطانـهِ ** وأين المـزكَّى إذا ما افتخرْ

تفانَـوا جميعًـا فـما مُخْبـرٌ ** وماتُـوا جميعًا وماتَ الخبرْ

فيا سائلي عن أناسٍ مضَوا ** أمَا لكَ فيمَا ترى مُـعْـتَبَرْ؟[٢]

٦ـ الشعر التعليميّ: هذا فن استحدثه العباسيُّون عندما صاغوا بعض القصص والمعارف القديمة في ثوب شعري، حيث نظم أبان بن عبد الحميد اللاحقي قصص «كليلة ودِمْنة» شعرًا في نحو أربعة عشر ألف بيت، وقدَّم نظمه إلى جعفر بن يحيى البرمكي، وقد استهلّ نظمه بقوله:

هـذا كتـابُ أدبٍ ومِحْنَـةْ ** وهو الذي يدعى كليلَ دمنةْ

فيــه دلالاتٌ وفيه رشْـدُ ** وهو كتابٌ وضعتْـهُ الهِنْدُ

فوصفُـوا آدابَ كلِّ عَـالَمِ ** حكايةً عنْ ألْسُـنِ البهائِمِ[٣]

وجاء من بعده شاعر الزهد والحكمة أبو العتاهية في منظومته (ذات الأمثال) التي يقال: إنها تبلغ أربعة آلاف بيت، منها قوله:

حسبُكَ ممَّـا تبتغِيـهِ القوتُ ** ما أكثـرَ القوتَ لمنْ يموتُ

لـكلِّ ما يُـؤذي وإنْ قـلَّ ألمْ ** ما أطولَ الليلَ على مَنْ لم ينَمْ

ما انتفـعَ المـرءُ بمثـلِ عقلِهِ ** وخيرُ ذُخْرِ المرءِ حُسْنُ فِعْلهِ

إنَّ الفسـادَ ضـدُّهُ الصَّـلاحُ ** ورُبَّ جـدٍّ جَـرَّهُ المِـزاحُ

---

(١) بُحْ: أعلن، الكُنَى: جمع كُنْية من قولهم: كنيت عن الأمر إذا ورَّيت عنه بغيره، والمقصود التصريح باسم المحبوب علانية دون اللجوء إلى الكناية والتورية.

(٢) المُدِلّ: اسم فاعل من الفعل (أدلَّ) إذا أفرط في الثقة والتفاخر بنفسه وسلطانه. تفانَوا: أفنى بعضهم بعضًا.

(٣) كليلة ودمنة: مجموعة قصص خيالية على لسان الحيوان، كتبها الفيلسوف الهندي (بَيْدَبا) باللغة السنسكريتية، للملك (دبشليم)، وضمنها نقدًا رمزيًّا للحكام الفاسدين، ثم ترجمها (برزويه) إلى اللغة الفارسية، ثم نقلها عبد الله بن المقفع من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية.

٧- الهجاء: عُرِفَ عددٌ من شعراء العصر العباسي بالهجاء منهم بشار بن برد، وحماد عجرد، ودعبل بن علي الخزاعي، وابن الرومي؛ حيث كان أداة من أدوات التقارع عند التخاصم، وقد انحدر به نفر من الشعراء إلى حضيض الفحش وهتك الأعراض، بينما وقف آخرون عند حدود السخرية، وتصوير المهجوِّ في صورة أشبه ما تكون بما يرسمه رسامو «الكاريكاتير» في عصرنا، من ذلك قول ابن الرومي في وصف رجل كبير الأنف:

إنْ كانَ أنفُـكَ هَكـذا ❊❊ فالفيلُ عِنْدكَ أفْطَسُ

مـا إنْ رأينـا عاطِسًـا ❊❊ بـأبي قبيْسٍ يعطِسُ

وإذا جَلَسْتَ على الطَّريـ ❊❊ ـقِ ولا أرى لكَ تَجْلِسُ

قيـلَ السَّـلامُ عليكـما ❊❊ فتُجِيبُ أنْتَ وَيَخْرَسُ (١)

٨- الشعر السياسي: عاش العباسيون في صراع مرير مع أبناء عمومتهم من العلويين الذين يرون أنهم أولى بالخلافة؛ لأنَّهم من أبناء فاطمة، بينما يرى العباسيون أنهم أقرب إلى النبي ﷺ؛ لأنهم أبناء العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، وأبناء العم أولى بالميراث من أبناء البنت، وقد حدثت بين الفريقين مواجهات دامية أبرزها خروج محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية، لكن أبا جعفر المنصور تمكن من القضاء عليه.

وقد انتقلت المعركة الفكرية بين الجانبين إلى عالم الشعر، فعَدَدٌ كبير من الشعراء الراغبين في عطايا العباسيين هلَّلوا لحكامهم، وردَّدوا أنَّهم أحق بالميراث من أبناء فاطمة؛ يقول الشاعر منصور النمري:

إِنَّ الخِلافَةَ كانَت إِرثَ والِدِكُم ❊❊ مِن دونِ تَيمٍ وَعَفوُ اللهِ مُتَّسِعُ

وَما لآلِ عَليٍّ في إِمارَتِكُم ❊❊ حَقٌّ وَما لَهُمُ في إِرثِكُم طَمَعُ

العَمُّ أَولى مِن ابنِ العَمِّ فاستَمِعُوا ❊❊ قَولَ النَّصيحِ فَإِنَّ الحَقَّ يُستَمَعُ (٢)

❊ ❊ ❊

---

(١) الأفطس: من كانت قصبة أنفه منخفضة. أبو قبيس: اسم جبل بمكة المكرمة. الخَرَس: العجز عن الكلام.

(٢) تَيْم: اسم قبيلة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، يقصد أنَّ العباس كان أولى بخلافة الرسول ﷺ من أبي بكر الصديق. والنصيح: الناصح.

تدريبات

السؤال الأول: أجب عن الأسئلة الآتية:

١ـ «استحدث العباسيون صوغ العلوم والمعارف في قالب منظوم» اشرح ذلك مع التمثيل.

٢ـ اكتب مذكرة أدبية موجزة عن غرض الرثاء في العصر العباسي.

٣ـ «كان للتنافس بين أمراء الأقاليم المختلفة دور إيجابي في الحياة العلمية والأدبية». اشرح ذلك.

السؤال الثاني: علِّلْ لما يأتي:

١ـ ازدهار الشعر العربي في العصر العباسي.

٢ـ كثرة الشعر السياسي في العصر العباسي الأول.

٣ـ إقبال الشعراء على مدح الخلفاء.

السؤال الثالث: اختر الإجابة الصحيحة من البدائل المطروحة بين القوسين:

١ـ من أشهر شعراء الهجاء الساخر في العصر العباسي:

(ابن الرومي ـ مروان بن أبي حفصة ـ أبو العتاهية).

٢ـ كتب الشاعر «العباس بن الأحنف» كثيرًا من القصائد في محبوبته: (بثينة ـ ليلى ـ فوز).

٣ـ من أشهر القادة الذين رثاهم أبو تمام:

(المعتصم ـ محمد بن حميد الطوسي ـ أبو مسلم الخراساني).

٤ـ النديم هو: (الجليس على الشراب ـ المتندم ـ القديم).

السؤال الرابع: ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (×) أمام العبارة غير الصحيحة فيما يأتي:

١ـ حصل الشاعر بشار بن برد على مائة ألف درهم؛ لأنه قال قصيدة يدلل فيها على حق العباسيين في الخلافة. ( )

٢ـ من أبرز مؤلفات الجاحظ كتاب «البيان والتبيين». ( )

٣ـ المؤلف الأصلي لكتاب «كليلة ودمنة» هو ابن المقفع. ( )

٤ـ ظهرت دولة الأغالبة في بلاد المغرب العربي. ( )

٥ـ كان الشاعر «دِعْبل بن علي الخُزاعي» من مؤيدي الخلفاء العباسيين. ( )

السؤال الخامس: أجب عما يأتي:

١ـ مَنْ أبرز شعراء الهجاء في العصر العباسي؟

٢ـ من مؤلف كتاب الأغاني؟

٣ـ من مؤلف منظومة «ذات الأمثال»؟ وما عدد أبياتها؟

٤ـ ينقسم شعر الغزل إلى قسمين اذكرهما.

* * *

الدرس الثالث

أهم خصائص الشعر في العصر العباسي

أهداف الدرس:

بنهاية الدرس يتوقع أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يحدد مستجدات الفنون الشعرية التي ظهرت في العصر العباسي.

٢ـ يبين إلى أيِّ مدى تأثرت لغة الشعر في العصر العباسي بالحضارة الجديدة.

٣ـ يبين كيف أثَّر تطور الحياة في العصر العباسي على المعاني والأخيلة لدى الشعراء.

٤ـ يعلل عدم تأثر موسيقى الشعر كثيرًا بتطور الحياة في العصر العباسي.

أولاً: الفنون والأغراض: على الرغم من التطورات الكبيرة التي طرأت على المجتمع العباسي ظلَّت الموضوعات التقليدية مستمرة من مدح وهجاء ورثاء ووصف وغزل... وغيرها؛ لأنَّها لصيقة بالإنسان في كل زمان ومكان، فلا يخلو بشر من صديق يمدحه، أو عدو يهجوه، أو ميت يرثيه، أو حبيب يتغزل به، ولكن حدث تطور كبير من حيث المعاني التي يعالجها الشعراء في هذه الموضوعات.

وقد ظهرت موضوعات جديدة مثل: الغزل بالمذكر بسبب كثرة الغلمان في قصور الوجهاء ودورهم وحانات الشراب. ورثاء المدن بسبب خراب بعضها في أزمنة الفتن أو بكوارث طبيعية. والشعر الصوفي الذي كان ردَّ فعل لشعر الخلاعة والزندقة. ونظم العلوم والفنون للحاجة إلى تعليم الناشئة مبادئ العلوم والفنون.

كما استجاب كثير من الشعراء للدعوة إلى الوحدة الموضوعية، بحيث تكون القصيدة في موضوع واحد، ولا تجمع بين الوقوف على الأطلال والوصف والغزل والمدح وغيرها كما كان في العصر الجاهلي، ومن الغريب أن يدعو أبو نواس إلى الوقوف على حانات الخمر بدلاً من الوقوف على الأطلال، حيث يقول:

صِفَـةُ الطُّلـولِ بَلاغَـةُ القِدْمِ ** فَاجعَل صِفاتكَ لِابنَةِ الكَرْمِ [1]

---

(١) الطلول والأطلال: جمع طَلَل، وهو ما بقي من آثار الديار. القِدْم: الزمن القديم. ابنة الكرم: الخمر؛ لأنَّها تصنع من العنب، وأشجاره هي الكَرْم.

ثم تجاوز الشعراء الكبار كأبي تمام والبحتري والمتنبي ظاهرة البدء بالوقوف على الأطلال تمامًا، فكان ذلك بمثابة انتصار كبير لمذهب المُحْدثين.

ثانيًا: الألفاظ والأساليب: من البعيد أن تتغير لغة الشعر كُليًّا من عصر إلى عصر، فاللغةُ العربيةُ مُمْتَدَّةٌ منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا، وقد بقيت بعض التراكيب والأساليب متوارثة حتى العصر العباسي مثل: ألا أيها الرَّبْعُ، خليليَّ، سقى الله، أبى الله إلا، إن أنس لا أنسى... وغيرها، ولكن التغيير الكبير الذي طرأ على الحياة في العصر العباسي انعكس على لغة الشعر في عدة مظاهر:

أ) اتجهت ألفاظ الشعر العباسي عمومًا إلى السهولة، حيث نفر الشعراء من التعقيد والغرابة وغير ذلك مما يوجد في القصيدة الجاهلية والأموية، وبدأوا يأخذون الشعر باتجاه السهولة والدماثة، حتى اقتربت لغة الشعر عند «أبي العتاهية» من لغة العامة، ولك أن تتأمل قوله:

سُـبحانَ رَبِّكَ ما أَراكَ تَتوبُ ⁂ وَالرَّأسُ مِنكَ بِشَيْبِهِ مَـخْضوبُ

سُبحانَ رَبِّكَ كَيفَ يَلتَذُّ امرُؤٌ ⁂ بِالعَيْـشِ وَهـوَ بِنَفسِـهِ مَطلوبُ

ب) دخلت كثير من الألفاظ الفارسية والرومية الشعر العربي، وبخاصة لدى أبي نواس وابن الرومي مثل ألفاظ الأطعمة والأشربة الفارسية (فالوذج، لوذينج، سكباج، خندريس)، وأسماء الأعياد الفارسية مثل (النيروز والمهرجان)، وألفاظ أخرى مثل «دستجة» بمعنى حزمة، و«قهرمانة» بمعنى مدبرة شئون البيت... وغيرها، من ذلك قول «العُماني» الراجز في أرجوزة يمدح بها هارون الرشيد:

مَن يَلقَه مِـن بَطَلٍ مُسْرَنْدِ

فِي زَغفَـةٍ مُحكَمَـةٍ بالـسَّرْدِ

تَجُولُ بَـينَ رَأسِـه والكَرْدِ(١)

فكلمة الكرد كلمة فارسة معناها العنق، وقد استعملها الفرزدق من قبله.

ج) بدأت فنون البديع تغزو لغة الشعر شيئًا فشيئًا، حيث بدأ مذهب البديع على يد «مسلم بن الوليد» الملقَّب بصريع الغواني، ثم زاد فيه أبو تمام، وهجر الشعراء الطبع إلى تكلف فنون البديع، حتى تحولت القصيدة بنهاية العصر العباسي إلى معرض فني لأصباغ البديع من جناس وطباق وتورية

(١) المُسْرَنْد: الذي يظفر بعدوِّه ويعلو عليه، الزعفة: الدرع اللينة الواسعة، السَّرْد: نسيج الدرع، وفي القرآن الكريم: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾، الكَرْد: العنق باللغة الفارسية. والمعنى: من الذي يستطيع مقابلة هذا البطل الذي ينتصر دومًا، والذي يلبس دروعًا سابغة تستر كل بدنه بها في ذلك ما بين الرأس والرقبة.

وحسن تقسيم وغيرها، من ذلك قول «مُسْلم بن الوليد» يمدح القائد البارز «يزيد بن مزيد الشيباني»:

يَغشى الوَغى وَشِهابُ المَوتِ في يَدِهِ ** يَرمي الفَوارِسَ وَالأَبطالَ بِالشُّعَلِ

يَفتَرُّ عِندَ اِفتِرارِ الحَربِ مُبْتَسِمًا ** إِذا تَغَيَّرَ وَجْهُ الفارِسِ البَطَلِ

مُوفٍ عَلى مُهجٍ في يَومِ ذي رَهَجٍ ** كَأَنَّهُ أَجَلٌ يَسعى إِلى أَمَلِ (١)

فثمة جناس بين (يفتر ـ افترار) وبين (مهج ـ رهج) وبين (أجل ـ أمل)، وطباق بين (يفتر ـ تغير).

د) دخلت مصطلحات العلوم والفنون لغة الشعر، وبخاصة مصطلحات المنطق والفلسفة، وهذا انعكاس لما كان يجري في مجالس المتكلمين من مناظرات قائمة على الجدل المنطقي، وأصبحنا نقرأ الجوهر والعرض والشك واليقين وغيرها، من ذلك قول ابن المعتز في وصف الخمر:

صَفَت وَصَفَت زُجاجَتُها عَلَيها ** كَمَعنًى دَقَّ في ذِهنٍ لَطيفِ

فتشبيه صفاء الخمر بالمعني الدقيق في الذهن اللطيف فيه أثر واضح مما كان يجري على ألسنة المتكلمين من مفردات.

ثالثًا: المعاني والأخيلة: من البدهي أن ينعكس التطور الكبير الذي طرأ على الحياة في العصر العباسي على معاني الشعر وصوره، ونستطيع أن نرصد أربع صور بارزة:

أ) اتجه الشعراء إلى تعميق المعاني، وجنحوا إلى المبالغة والتهويل، في محاولة للوصول إلى معنى طريف لم يسبق إليه أحد، أو للحصول على جوائز سنية من الممدوحين عندما يسمعون هذه المبالغات المفرطة، من ذلك قول المتنبي في مدح «بدر بن عمار»:

سَبَقتَ السابِقينَ فَما تُجارى ** وَجاوَزتَ العُلُوَّ فَما تُعالى

وَأُقسِمُ لَو صَلَحتَ يَمينَ شَيءٍ ** لَما صَلَحَ العِبادُ لَهُ شِمالا (٢)

ب) اهتمَّ الشعراء بالتدليل المنطقي على تلك المعاني الغريبة، حتى تخرج النفس من دائرة التردد والشك إلى دائرة القبول والتسليم، من ذلك قول بشار بن برد:

إِذا كُنتَ في كُلِّ الأُمورِ مُعاتِبًا ** صَديقَكَ لَم تَلقَ الَّذي لا تُعاتِبُهْ

---

(١) الوغى: الحرب، يفترُّ: يضحك، افترار الحرب كناية عن اشتعالها، موفٍ: اسم فاعل من الفعل أوفى بمعنى أشرف. مُهَج: جمع مهجة وهي الروح والنفس ودم القلب، الرَّهَج: غبار المعركة.

(٢) تُجارى: تنافس في السبق إلى كل خير حسي أو معنوي، تُعالى: تنافس في العلو.

فَعِشْ واحِـدًا أَو صِـلْ أَخـاكَ فَإِنَّهُ ** مُقـارِفُ ذَنْـبٍ مَـرَّةً وَمُجانِبُـهْ

إِذا أَنـتَ لَم تَشرَب مِرارًا عَلى القَذى ** ظَمِئتَ، وَأَيُّ الناسِ تَصفو مَشارِبُهْ؟ (١)

ج) كثرت في الشعر العباسي الاستعارات الغريبة التي كانت في البداية بمثابة صدمة للأذن العربية، ولكنها استقرت بعد ذلك، وصارت مما يستملح في الأداء الشعري، من ذلك قول أبي نواس:

بُـحَّ صَـوتُ المالِ مِمَّـا ** مِنـكَ يَشـكُو وَيَصيحُ

فقد جعل للمال صوتًا، وجعله يُبَحُّ من طول الشكوى والصياح، ومثله استعارة أبي تمام الماء للملام (اللوم) في قوله:

لا تَسـقِني مـاءَ المَـلامِ فَإِنَّنـي ** صَبٌّ قَدِ استَعذَبتُ ماءَ بُكائي (٢)

د) التأثر بالمعجم القرآني في الأداء الشعري عند الشعراء المتديِّنين كأبي العتاهية، وغير المتدينين كأبي نواس؛ لأنَّ القرآن الكريم كان ولا يزال مادة رئيسة في تكوين المعجم اللغوي في مرحلة التحصيل، من ذلك قول أبي العتاهية:

خُلِـقَ الخَلـقُ لِلفَنـاءِ فَهُـم بَيْـ ** ـنَ شَـقِيٍّ مِنهُـمْ وَبَيْنَ سَـعيدِ

لَيتَ شِعري وَكَيفَ حالُكِ يا نَفْـ ** ـسُ غَداً بَينَ سائِقٍ وَشَهيدِ

فمن الواضح أنَّه متأثرٌ بقوله تعالى في سورة هود [الآية: ١٠٥] ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ وقوله في سورة ق [الآية: ٢١] ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾

رابعًا: الموسيقى: ظلَّ الشعر العربي في العصر العباسي محافظًا على صورته الإيقاعية التقليدية المتمثلة في الأوزان والقوافي الموحدة، وحافظت القصيدة التقليدية على الأوزان الطويلة الفخمة مثل: الطويل والبسيط والكامل؛ لأنَّ النزعة الخطابية كانت لا تزال مسيطرة على الأداء الشعري حتى ذلك الوقت، ولكن استجدت جملة من الظواهر الموسيقية الوثيقة الصلة بظاهرة الغناء الشائعة في ذلك العصر، والتي لا تخطئها عين، منها:

أ) استكثر الشعراء من الأوزان القصيرة (البحور المجزوءة أو المشطورة أو المنهوكة) حتى إنَّ الشاعر «سلم الخاسر» أنشد قصيدة في مدح الخليفة الهادي، يتكون فيها الشطر من تفعيلة واحدة، حيث يقول:

(١) قَارَفَ الذنب: ارتكبه أو اقترب منه. القذى: التراب الذي يكون في العين.

(٢) الصبّ: المحبّ.

موسـى المطـرْ * غيْـــثٌ بكــرْ
ثُـــمَّ انهَمــرْ * ألــوى المــرزْ

ب) استفاضت المقطوعات الشعرية التي تتكون من بيتين أو ثلاثة إلى سبعة، والتي تشبه «التغريدة» الآن، حيث يصيب بها الشاعر مرماه من وصف أو هجاء أو سخرية على البديهة.

ج) ابتكر عدد من الشعراء صورًا وزنية جديدة، بعيدة عن الأضرب التقليدية للبحور المتوارثة عن الخليل، وقد كان الشاعر أبو العتاهية جريئًا في هذا المقام، حتى قيل له يومًا: خرجت من العروضٍ؟ فقال: أنا أكبر من العروض.

د) ظهرت بوادر التمرُّد على القافية الموحدة، حيث ظهر المزدوج الذي تتحدُ فيه قافية العروض مع الضرب، وتختلف من بيت إلى بيت، كما مرَّ بنا في قصيدة «ذات الأمثال» لأبي العتاهية، كما ظهرت المسمَّطات وهي: قصائد تتألف من أدوار، وكل دور يتركب من أربعة أشطار أو أكثر، وتتفق أشطار كل دور في قافية واحدة ما عدا الشطر الأخير؛ فإنَّه يستقل بقافية مغايرة، وفي الوقت نفسه يتحد فيها مع الشطور الأخيرة في الأدوار المختلفة، من ذلك ما أورده ابن رشيق شاهدًا على المسمَّط، حيث يقول الشاعر:

خيـالٌ هـاجَ لي شَـجَنا * فبــتُّ مُكابـدًا حَزَنَـا
عميـدَ القَلْـبِ مُرْتَهنَـا * بذكْرِ اللهوِ والطَّرَبِ (١)

* * *

(١) الشجن: الحزن. مكابدًا: معانيًا. عميد القلب: أصابه العشق حتى بلغ مداه.

تدريبات

السؤال الأول: أجب عن الأسئلة الآتية:

١ـ «على الرغم من عراقة اللغة العربية طرأت تغيرات مهمة على لغة الشعر في العصر العباسي». اشرح ذلك مع ذكر ثلاث من أبرز مظاهر ذلك التغير.

٢ـ ما «المسمطات»؟ مثِّلْ بنموذج مما تحفظ.

٣ـ اذكر ثلاثًا من الظواهر الموسيقية الجديدة في الشعر العباسي.

السؤال الثاني: علِّلْ لما يأتي:

١ـ بقاء الأغراض التقليدية كالمدح والرثاء والهجاء في الشعر العباسي.

٢ـ ميل الشعراء العباسيين إلى المبالغة.

٣ـ ظهور مصطلحات العلوم والفنون في الشعر العباسي.

السؤال الثالث: اختر الإجابة الصحيحة من البدائل المطروحة بين القوسين:

١ـ دعا أبو نواس الشعراء للوقوف على (الأطلال ـ حانات الخمر ـ قصور الخلفاء).

٢ـ تتميز لغة الشعر عند أبي العتاهية (بالسهولة ـ بالتعقيد الفلسفي ـ بغرابة الألفاظ).

٣ـ معنى كلمة «الصَّبّ»: (المصبوب ـ المصيب ـ المُحِبّ).

السؤال الرابع: ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (×) أمام العبارة غير الصحيحة فيما يأتي:

١ـ كلمة «الكرْد» بمعنى العنق عربية فصيحة. (   )

٢ـ حمل الشاعر «أبو نواس» لواء الهجوم على بدء القصيدة بالوقوف على الأطلال. (   )

٣ـ يعد الشاعر «مسلم بن الوليد» من أبرز شعراء «مذهب البديع» في العصر العباسي (   )

السؤال الخامس: أكمل مكان النقط في الجمل الآتية:

١ـ من الموضوعات الجديدة التي ظهرت في الشعر العباسي ....، ....، ....

٢ـ تتكون «المقطوعة الشعرية من .... أبيات.

٣ـ يلقب الشاعر «مسلم بن الوليد» بـ..........

❊ ❊ ❊

الدرس الرابع

ترجمة موجزة لثلاثة من شعراء العصر العباسي

أهداف الدرس:

بنهاية الدرس يتوقع أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يحدد أهم العوامل التى أثرت في شعر بشار بن برد.

٢ـ يذكر أهم فنون الشعر التى برع فيها البحتري مع ضرب الأمثلة على ذلك.

٣ـ يقارن بين كل من بشار بن برد وأبي العلاء المعرى من حيث أغراض الشعر التى برع فيها كل منهما، والعوامل التي أثرت في ذلك.

٤ـ يُصدر حكمًا على الأبرع شعريًّا من بين الشعراء (بشار بن برد، البحتري، أبو العلاء المعرى) مع ذكر الأسباب.

١ـ بشَّار بن بُرْد:

هو بشار بن برد بن يَرْجُوخ العُقَيلي، كنيته: أبو معاذ، ولقبه: المُرَعَّث؛ لأنَّه كان يلبس رعثة (قرطًا) في أذنيه، أصله من بلاد فارس، حيث كان جده من سبْي «المهلَّب بن أبي صفرة»، لكنَّ بشارًا نال الحرية بعد وفاة أبيه على يد امرأة من بني عقيل، ولد عام ٩٦هـ بالبصرة، ويعدُّ من مخضرمي الدولتين، حيث عاصر نهاية الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية، ولد بشارٌ أعمى، وكان من فحول الشعراء وسابقيهم المجوِّدين، قال عنه الجاحظ: «وليس في الأرض مولد قروي يعد شعره في المحدث إلا وبشار أشعر منه»، اتُّهم بشار في آخر حياته بالزندقة؛ فضرب بالسياط حتى مات عام ١٦٨هـ.

نَظَم «بشار بن برد» الشعر في الأغراض كافة، لكنه برز في غرض الهجاء؛ حيث كان لا يتورع عن استخدام الألفاظ القبيحة والتعبيرات الساقطة، فكان الناس يخافون منه، ويتحاشون أي علاقة معه، وبرع في الوصف على الرغم من عماه، حتى إنَّه ابتكر واحدة من أروع صوره في وصف المعارك الحربية، وهي قوله:

كَأَنَّ مُثارَ النَّقْعِ فَوقَ رُؤُوسنا ❊ وَأَسيافَنا لَيلٌ تَهاوى كَواكِبُه [١]

كما تغزل بالمرأة وهو لا يراها، وفي هذا يقول:

يا قَومِ أُذْنِي لِبَعضِ الحَيِّ عاشِقَةٌ ❊ وَالأُذْنُ تَعشَقُ قَبلَ العَينِ أَحيانا

قالوا بِمَن لا تَرى تَهذي فَقُلتُ لَهُم ❊ الأُذنُ كَالعَينِ تُؤتي القَلبَ ما كانا

هَل مِن دَواءٍ لِمَشْغُوفٍ بِجارِيَةٍ ❊ يَلقَى بِلُقْيانِها رَوْحًا وَرَيْحانا [٢]

❊ من روائع شعر بشار قوله عن ابتلائه بالعمى، وكيف عوِّض عنه بالذكاء وقوة الذاكرة:

عَميتُ جَنينًا وَالذَّكاءُ مِنَ العَمى ❊ فَجِئتُ عَجيبَ الظَنِّ لِلعِلمِ مَعقِلا

وَغاضَ ضِياءُ العَينِ لِلقَلبِ فَاغتَدى ❊ بِقَلبٍ إِذا ما ضَيَّعَ الناسُ حَصَّلا [٣]

٢ـ البُحْتُرِيّ:

هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي، ولد عام ٢٠٦هـ بمَنْبِج (بين حلب والفرات)، والتقى بأبي تمام، وتتلمذ على يديه في الشعر، حتى نبغ فيه، ثم رحل إلى العراق، فاتصل بجماعة من الخلفاء أولهم المتوكل العباسي، وكانت له علاقة متينة بوزيره «الفتح بن خاقان»، وقد مدحهما بكثير من القصائد، وكان البحتري حاضرًا عند اغتيال الخليفة المتوكل، وقد صور مشاهده المؤلمة بقصيدته التي مطلعها:

مَحَلٌّ عَلى القاطولِ أَخلَقَ داثِرُهْ ❊ وَعادَت صُروفُ الدَّهرِ جَيشًا تُغاوِرُهْ [٤]

بقي البحتري في بلاط الخلفاء اللاحقين: المنتصر والمستعين والمعتز، ثم عاد إلى الشام، واستقر في بلده «منبج» حتى مات بها سنة ٢٨٤هـ.

يعتبر البحتري أحد أهم الشعراء العباسيين، بل هو أحد أضلاع المثلث الشعري الأبرز في العصر العباسي: (المتنبي، وأبو تمام، والبحتري)، حتى قيل لأبي العلاء المعري: أي الثلاثة أشعر؟ فقال: المتنبي وأبو تمام حكيمان، وإنَّما الشاعر البحتري.

---

(١) مُثار النقع: الغبار المنتشر في المعركة. تهاوى: تتساقط. شبَّه هيئة الغبار الهائج في أرض المعركة والسيوف المتصادمة تلمع في وسطه بهيئة ليل بهيم تتساقط فيه الكواكب المنيرة.

(٢) تهذي: تتكلم بكلام غير معقول ولا منتظم. الرَّوْح: الرائحة الطيبة.

(٣) غاض الماء: ذهب في الأرض. يعني أن ضوء عينه ذهب وانتقل إلى عقله فأصبح عجيب الشأن في الحفظ.

(٤) القاطول: نهر متفرع من دجلة، بُني عليه قصر المتوكل. أخلق: بلي. داثره: المكان الذي أصبح باليًا متهدِّمًا. صروف الدهر: المصائب والحوادث، مفردها صَرْف. تغاوره: تحاربه.

اشتهر البحتري بالتفنُّن في غرض الوصف، حيث كان واسع الخيال، جيد التصوير، ومن روائع وصفه، قصيدته في وصف إيوان كسرى التي مطلعها:

صُنتُ نَفسي عَمّا يُدَنِّسُ نفسي ** وَتَرَفَّعتُ عَن جَدَا كُلِّ جِبْسِ[1]

وقصيدته في وصف بركة الخليفة المتوكل التي فيها:

يا مَن رَأى البِركَةَ الحَسناءَ رُؤيَتَها ** وَالآنِساتِ إِذا لاحَت مَغانيها

بِحَسْبِها أَنَّها مِن فَضلِ رُتبَتِها ** تُعَدُّ واحِدَةً وَالبَحْرُ ثانيها

ما بالُ دِجلَةَ كَالغَيْرى تُنافِسُها ** في الحُسنِ طَورًا وَأَطواراً تُباهيها

٣ـ أبو العلاء المعري:

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي، كنيته: أبو العلاء، ولقبه: المعري. ولد بمعرة النعمان ـ وهي بلدة بين حلب وحماة بسورية ـ عام ٣٦٣هـ. أصيب أبو العلاء بالجدري وهو في الرابعة من عمره؛ مما أدى إلى فقده بصره، تربَّى أبو العلاء في بيت علم وفقه، وقد رزقه الله ذاكرة واعية، فتلقى العلم عن علماء بلده، ثم ارتحل إلى حلب فأخذ عن علمائها، ثم سافر إلى العراق وأخذ عن علماء بغداد، لكن جاءه خبر وفاة والدته وهو بالعراق عام ٤٠٠هـ، فعاد إلى بلده، ولزم داره فلم يخرج منها قرابة خمسين سنة إلا مرة واحدة، وكان لا يأكل اللحم، ولا يشرب اللبن، وكل ما توالد من الحيوان، وقد لُقِّب برهين المحبسين بسبب احتباسه في البيت وعماه، حتى توفي سنة ٤٤٩هـ.

كتب أبو العلاء عددًا كبيرًا من الدواوين الشعرية منها: سقط الزند، لزوم ما لا يلزم، مُلْقى السبيل، كما كتب عشرات الكتب أهمها: رسالة الغفران، رسالة الصاهل والشاحج، اللامع العزيزي.

اشتهر أبو العلاء بالفلسفة، فهو شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء، ومن روائع نظراته الفلسفية قوله في رثاء الفقيه أبي حمزة الحنفي:

صَاحِ هَذِي قُبُورُنا تَمْلأ الرُّحْـ ** ـبَ فأينَ القُبُورُ مِنْ عَهدِ عادِ

خَفّفِ الوَطْءَ ما أظُنّ أدِيمَ الـ ** أرْضِ إلاّ مِنْ هَذِهِ الأجْسادِ

وقَبيحٌ بنَا وإنْ قَدُمَ العَهْـ ** ـدُ هَوَانُ الآبَاءِ والأجْدادِ

رُبّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْداً مراراً ** ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُمِ الأضْدادِ

(١) الجدا: العطاء. الجِبس: الجبان، الضعيف، اللئيم، الدنيء، البخيل الذي لا يجيب إلى خير.

وَدَفِـــينٍ عَـــلى بَقايـــا دَفِـــينٍ * في طَويـــلِ الأَزْمـــانِ وَالآبـــادِ
تَعَـــبٌ كُلُّهـــا الحَيـــاةُ فَـــما أعْــ * ـــجَبُ إلاّ مِنْ راغبٍ في ازْديادِ (١)

***

(١) صاح: منادى مرخم أي يا صاحبي. الرُّحْب: جمع رُحْبة وهي الأرض الواسعة. الوطء: الدوس بالأقدام على الأرض. الأديم: التراب. الهوان: الاحتقار والاستخفاف. الآباد: جمع أبد وهو الدهر الطويل.

تدريبات

السؤال الأول: أجب عن الأسئلة الآتية:

١ـ اكتب ترجمة موجزة عن الشاعر بشار بن برد.

٢ـ ما أشهر أغراض شعر البحتري؟ مع التمثيل.

٣ـ «سلك أبو العلاء المعري مسلكًا غريبًا في معيشته» اشرح ذلك.

السؤال الثاني: علِّلْ لما يأتي:

١ـ خوف الناس من بشار بن برد.

٢ـ اشتهار البحتري بشعر الوصف.

٣ـ تلقيب أبي العلاء المعري بـ «رهين المحبسين».

٤ـ تلقيب بشار بن برد بلقب «المُرَعَّث».

السؤال الثالث: اختر الإجابة الصحيحة من البدائل المطروحة بين القوسين:

١ـ ينتمي بشار بن برد إلى أصول (عربية ـ فارسية ـ هندية).

٢ـ شاهد البحتري اغتيال الخليفة (المتوكل ـ المنتصر ـ المعتز).

٣ـ احتبس أبو العلاء المعري في بيته قرابة (خمس سنوات ـ عشرين سنة ـ خمسين سنة).

السؤال الرابع: ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (×) أمام العبارة غير الصحيحة فيما يأتي:

١ـ يعتبر بشار بن برد من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. (   )

٢ـ ذاع الهجاء في شعر البحتري. (   )

٣ـ يعتبر أبو العلاء المعري فيلسوف الشعراء. (   )

السؤال الخامس: أكمل مكان النقط في الجمل الآتية:

١ـ اتُهِم بشار بن برد بتهمة ....

٢ـ أشهر ثلاثة شعراء في العصر العباسي .... ، ....، ....

٣ـ من دواوين أبي العلاء المعري .... ، .... ، ....

الدرس الخامس

النثر في العصر العباسي

أهداف الدرس:

بنهاية الدرس يتوقع أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يحدد أهم فنون النثر في العصر العباسيّ.

٢ـ يذكر مثالًا لخطبة من العصر العباسيّ.

٣ـ يذكر الأسباب التي أدت إلى انتشار فن المقامة في العصر العباسيّ.

٤ـ يحدد أهم العوامل التي أدت إلى انتشار فن الكتابة في العصر العباسيّ.

٥ـ يحدد المقصود بالرسائل الإخوانية، مع ذكر مثال لها.

٦ـ يذكر ترجمة لبعض كتّاب النثر في العصر العباسيّ.

٧ـ يذكر أهم خصائص النثر في العصر العباسيّ.

توطئة:

النثر هو الجناح الثاني للأدب (شعر ـ نثر)، ويتميز عن الشعر بخلوِّه من قيود الوزن والقافية فقط، بينما يشترك معه في المحافظة على سلامة العبارة واستقامة المعنى، وجمال التعبير، ومجالات النثر أوسع من مجالات الشعر، حيث يشمل الخطابة والمواعظ والرسائل والمقامات والتوقيعات والقصص بشتى أشكالها.

أولًا: الخطابة

الخطابة من أقدم الفنون الأدبية، فقد ازدهرت في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام والعصر الأموي، وبلغت أوج ازدهارها في أوائل العصر العباسي لأسباب عديدة منها:

١ـ أنَّ الخلفاء العباسيين في العصر الأول كانوا خطباء فصحاء، يمارسون الخطابة بأنفسهم، وهناك خطب مأثورة لأبي جعفر المنصور وهارون الرشيد والمأمون وغيرهم.

٢ـ احتدام الصراع بين العلويين والعباسيين حول الحق في الخلافة، وقد استعان كل فريق بعدد من الخطباء الفصحاء لتأييد رأيه.

٣ـ أنَّ العصر العباسي حفل بعدد من الخطباء المبرزين منهم: خالد بن صفوان، وشبيب ابن شبَّة، وداود بن علي، وغيرهم.

٤ـ ظهور الفرق الكلامية التي دار بينها جدل كبير حول كثير من القضايا العقدية، وكانت الخطابة سلاحًا مهمًّا في تلك المناظرات.

٥ـ جرأة الزنادقة على الطعن في الإسلام، فنهض الخطباء لرد مطاعنهم، وتفنيد شبهاتهم.

* لكن الخطابة ما لبثت أن ضعفت في العصر العباسي الثاني بسبب ضعف الملكات، وقلة الخطباء المتمكنين، وتفتت الدولة بعد انفصال عدد كبير من الأقاليم، واستئثار العجم من الفرس أو الترك بمقاليد الأمور في بغداد.

* ترجمة ابن نُباتة الخطيب:(١)

هو أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نُباتة الفارقيّ، ولد عام ٣٣٥هـ في مَيّارفارِقين (بديار بكر) ونسبته إليها، وسكن حلب فكان خطيبها. واجتمع بالمتنبي في خدمة سيف الدولة الحمداني. وكان سيف الدولة كثير الغزوات، فأكثر ابن نباتةمن خطب الجهاد والحث عليه. وكان تقيًّا صالحا فصيحًا، مفوَّهًا، بديع المعاني، جزل العبارة، رزق سعادة تامة في خطبه. روى تاج الدين الكندي أنَّ ابن نُباتة رأى النبي ﷺ في المنام، وأنَّ النبي ﷺ تفل في فمه، وسماه خطيب الخطباء، فاستيقظ وعلى وجهه أثر النور، وفي فمه رائحة المسك، ولا يطعم طعامًا ولا يشتهيه، حتى توفي بعدها بأيام معدودة وهو دون الأربعين، وكانت وفاته بحلب عام ٣٧٤هـ..

* نموذج من خطبه: يقول ابن نُباتة في التحذير من هوى النفس والاستعداد ليوم العرض: «أيُّها الناسُ، ذَكِّروا القلوب هَوْل الازدحامِ في اليومِ المَشْهودِ، وضَمِّروا النفوسَ لاقتحامِ العقبةِ الكَؤُودِ، وحاذِروا مَظالِمَ العبادِ قبلَ انتصافِ الحاكمِ المَعبودِ، وبادروا عدمَ الإمكانِ بانْتهازِ فُرَصِ الوجودِ، وتَحَفَّظوا منْ تسْطيرِ رُقَبائِكم قبل شهادة الألْسُنِ والجُلودِ، وتيقَّظوا من سِنَةِ غَفَلاتكم قبل رقدتكم الكُبْرى في ظُلَمِ اللُّحودِ».(٢)

(١) في الأدب العربي ثلاثة أعلام يحملون كنية (ابن نباتة)، أولهم: ابن نباتة الفارقي المعروف بالخطيب (ت٣٧٤هـ) صاحب الترجمة هنا، والثاني: ابن نباتة السعدي (عبد العزيز بن عمر ت٤٠٥هـ)، وهو شاعر معاصر للأول، التقى به في بلاط سيف الدولة الحمداني، والثالث: ابن نباتة المصري (محمد بن محمد الفارقي ت٧٦٨هـ)، وهو من ذرية ابن نباتة الخطيب، وكان شاعرًا وكاتبًا مشهورًا في عصر سلاطين المماليك.

(٢) الهول: الرعب والفزع. ضمِّروا النفوس: أعدِّوها، وكانوا العرب يضمِّرون الفرس أي يدربونه قبل السباق. العقبة الكؤود: الشديدة الصعبة. انتصف منه: أخذ حقه. ويشير بقوله «عدم الإمكان» إلى الموت. الرقباء: جمع رقيب، وهو هنا الملك الذي يسجل=

ثانيًا: الكتابة

نهضت الكتابة في العصر العباسي نهضة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الكتابة العربية، حيث تضافرت عدة عوامل على نهضتها، أهمها:

١ـ اتساع الدولة وتعدد الدواوين الحكومية مثل: ديوان الجيش، وديوان الخراج، وديوان الرسائل؛ حيث كان يقوم على كل ديوان جماعة من خيرة الكتّاب.

٢ـ التنافس الشديد بين الكتاب للوصول إلى الوظائف الكتابية؛ حيث كانت تدرُّ عليهم أرزاقًا واسعة، وكان منهم من يرتقي إلى منصب الوزارة.

٣ـ أن كثيرًا من قادة الدولة كانوا يحسنون الكتابة مثل: جعفر بن محمد بن الأشعث، وطاهر بن الحسين، وأبي دُلَف العجْلي.

٤ـ التوسع في نقل الآداب الفارسية وغيرها إلى اللغة العربية، وقد كان للمادة المترجمة دور كبير في نهضة الكتابة الأدبية؛ لأنَّ العرب أخذوا صناعة الدواوين عن الفرس.

٥ـ ظهور المؤلفات المتخصصة في مجال النثر الفني، والتي يتعلم منها الناشئة صناعة الكتابة مثل أدب الكاتب لابن قتيبة.

٦ـ ازدهار الحياة العقلية، وبخاصة في المنطق والفلسفة، مما أدى إلى اتساع نطاق الكتابة العلمية.

* من أبرز الكتاب في العصر العباسي: عبد الله بن المقفع (ت١٤٢هـ)، سهل بن هارون (ت٢١٥هـ)، عمرو بن مسعدة (ت٢١٧هـ)، محمد بن عبد الملك المعروف بابن الزيات (ت٢٣٣هـ)، الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، أبو بكر الخوارزمي (ت٣٨٣هـ)، ابن العميد (ت٣٦٦هـ)، بديع الزمان الهمذاني (ت٣٩٨هـ)... وغيرهم.

* موضوعات الكتابة:

١ـ الرسائل الديوانية: وهي التي تصدر عن ديوان الخلافة، وتعالج العهود والمواثيق والمنشورات التي تقرأ على الشعب لتثبيت الناس على البيعة، وتحذيرهم من الخروج عليها، وتبشيرهم بالنصر على الأعداء. وقد كان يكتبها كُتَّاب بارزون مثل: يحيى البرمكي، وابنه جعفر، والفضل بن سهل، والحسن بن سهل وغيرهم.

= الأعمال. الألسن: جمع لسان. السِّنَة: النعاس والغفوة تكون قبل النوم. اللحود: جمع لحد وهو القبر.

* من نماذج الرسائل الديوانية، الرسالة التي كتبها الخليفة المأمون إلى أهل خراسان كي تُقْرأ عليهم؛ ليقدموا أهل الفضل على من سواهم، جاء فيها: «ليكُنْ أوَّلَ ما تتعهَّدونَ به أنفسَكُم، وتُثابرونَ عليهِ من مَصَالحِ أَدَبِكُمْ، تَناصفُ الحقِّ بينكمْ بتقديم أهلِ الفَضائلِ والآثارِ المَحمودةِ منكمْ، وتفخيمِ أمرهم، فقد علمتمْ أنَّ منكم المبرِّزَ الفائتَ الذي لا يُدْرَكُ شَأْوُهُ، ولا يَوازَى بَلاؤُهُ».[1]

٢ـ الرسائل الإخوانية: وهي التي يتداولها الأصدقاء فيما بينهم، للتهنئة بمولود أو بعودة بعيد أو بالشفاء، أو للتعزية في وفاة حبيب، أو للعتاب أو لطلب الشفاعة، أو نحو ذلك.

* من نماذج الرسائل الإخوانية ما كتبه أبو بكر الخوارزمي إلى صديق له لم يَعُدْه في مرضه، ولم يهنئه بشفائه: «كتابي وقد خرجت من البلاء خروج السيف من الجلاء، وبروز البدر من الظلماء، وقد فارقتني المحنة وهي مفارقٌ لا يُشتاق إليه، وودعتني وهي مودع لا يُبْكي عليه. فالحمد لله تعالى على مِحْنة يُجليها، ونعمة يُنيلها ويُوليها. كنت أتوقع أمس كتاب سيدي بالتسلية، واليوم بالتهنئة، فلم يكاتبني في أيام البرحاء بأنَّها غمَّته، ولا في أيام الرخاء بأنَّها سرته. وقد اعتذرت عنه إلى نفسي وجادلت عنه قلبي، فقلت: أمَّا إخلالُه بالأولى؛ فلأنَّه شغله الاهتمام بها عن الكلام فيها، وأمَّا تغافُلُه عن الأخرى؛ فلأنَّه أحبَّ أنْ يوفِّر عَلَيَّ مرتبة السابق إلى الابتداء، ويقف بنفسه محل الاقتداء؛ لتكونَ نِعَمُ الله تعالى موقوفةً من كل جانب عليَّ، ومحفوفة من كل بيئة بي. فإنْ كنتُ أحسنت الاعتذار عن سيدي؛ فليعرف لي حق الإحسان، وليكتب لي بالاستحسان. وإنْ كنتُ أسأتُ فليخبرني بعذره؛ فإنَّه أعرف مني بسره، وليرضَ مني بأنِّي حاربْتُ عنه قلبي، واعتذرت من ذنبه حتى كأنه ذنبي، وقلت: يا نفس، اعذري أخاك، وخذي منه ما أعطاك، فمع اليومِ غدٌ، والعَوْدُ أَحْمَدُ».[2]

٣ـ التوقيعات: وهي كلمات قصيرة يكتبها الخليفة أو الوزير أو القائد في ذيل مكتوب يعرض عليه، وتحمل رأيه في إيجاز.

* من نماذج التوقيعات ما وقع به الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح في رقعة قوم شكوا احتباس أرزاقهم، فكتب: «مَنْ صَبَرَ في الشدَّة شاركَ في النِّعمة». ووقَّع أبو جعفر المنصور على كتاب

(١) تتعهدون: تلزمون. تثابرون: تواظبون وتداومون. تناصف: أن ينصف بعضكم بعضًا. المبرِّز: المتفوق الذي يسبق أقرانه. الفائت: السابق الذي بينه وبين أقرانه تفاوت كبير. الشأو: الشوك في السباق، ومعنى «لا يدرك شأوه»: لا يوصل إلى غايته. البلاء: الجهد الشديد، ومعنى «لا يوازى بلاؤه»: لا يشابهه أحد في اجتهاده.

(٢) جلاء السيف: صقله، وإزالة الصدأ منه. محنة: مصيبة. يُجليها: يزيلها ويرفعها. التسلية: الكلام الذي يؤدي إلى السلوان عن المصيبة ونسيانها. البرحاء: شدَّة الحمَّى.

عامله بمصر يذكر نقصان النيل، فكتب: «طَهِّرْ عَسْكركَ من الفساد، يُعْطِكَ النيلُ القِيادَ». ووقَّع جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي على شكوى من بعض عماله بقوله: «قد كَثُرَ شاكوكَ، وقلَّ شاكروك، فإمَّا عَدَلْتَ، وإما اعتــزلْتَ».

٤ـ الكتابة العلمية: وهي التي تُعالج موضوعات علمية في العلوم الشرعية من حديث وتفسير وفقه، أو علوم اللغة من نحو وصرف وأدب ونقد وبلاغة، أو غيرهما من المجالات العلمية في التاريخ والمنطق والفلسفة. وتتسم الكتابة العلمية بالدقة والوضوح، والبعد عن المجاز، ومخاطبة العقل.

لكن كثيرًا من المؤلفين في شتى المجالات كانوا يتمتعون بموهبة أدبية، وبأسلوب متميز، فكانت كتاباتهم مزيجًا من الكتابة العلمية والأدبية في وقت واحد، ومن أبرز الكتب في العصر العباسي التي تجمع بين العلم والأدب: البيان والتبيين للجاحظ، والكامل في اللغة والأدب للمبرد، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، ويتيمة الدهر في محاسن أهل العصر لأبي منصور الثعالبي... وغيرها.

*** ترجمة الجاحظ:**

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، الملقب بالجاحظ لجحوظ عينيه أي بروز حدقتهما، ولد عام ١٥٩هـ بالبصرة، أخذ العلم في البصرة عن شيوخ اللغة والأدب فيها، وكان شغوفًا بقراءة الكتب، حتى إنَّه كان يقضي معظم وقته بالمكتبات، طُلب الجاحظ للعمل في ديوان الرسائل في عهد الخليفة المأمون، ولكنه لم يمكث فيه سوى ثلاثة أيام، وطلبه الخليفة الواثق لتأديب أولاده، ولكنه استبشع منظره فصرفه، كانت تربطه صداقة بالوزير محمد بن عبد الملك الزيات، فكان يغدق عليه العطاء، حتى إنَّه أعطاه خمسة آلاف دينار بعد تأليفه كتاب (الحيوان)، ظل الجاحظ بالبصرة حتى توفي بها عام ٢٥٥هـ عن بضعة وتسعين عامًا.

ألف الجاحظ عددًا كبيرًا من الكتب منها: الحيوان، البيان والتبيين، البخلاء، المحاسن والأضداد، بالإضافة إلى مجموعة الرسائل.

* من نماذج كتابة الجاحظ رسالته إلى صديقه الوزير محمد بن عبد الملك الزيات لما عزله المتوكل:

«لا والله ما عالج الناسُ داءً قطُّ أَوْدَى من الغيظ، ولا رأيت شيئًا هو أنفذ من شماتة الأعداء، ولا أعلم بابًا أجمع لخصال المكروه من الذلِّ، ولكنَّ المظلوم ما دام يجد من يرجوه، والمبتلَى ما دام يجد من يرثى له فهو على سبب دَرْك وإن تطاولت به الأيام، فكم من كُرْبةٍ فادحةٍ، وضيقة مُصْمِتَة، قد فُتِّحتْ أقفالُها، وفُكِّكتْ أغلالُها، ومهما قصَّرت فيه فلم أقصر بالمعرفة بفضلك، وفي حسن النية بيني وبينك، ولا

مشتت الهوى، ولا مقسم الأمل على تقصير قد احتملتَه، وتفريط قد اغتفرتَه، ولعل ذلك أن يكون من ديون الإدلال وجرائم الإغفال، ومهما كان من ذلك فلن أجمع بين الإساءة والإنكار، وإن كنت كما تصف من التقصير وما تعرف من التفريط، فإنِّي من شاكري أهل هذا الزمان، وحسن الحال، متوسط المذهب، وأنا أحمد الله على أن كانت مرتبتك من المُنْعمين فوق مرتبتي في الشاكرين، وقد كانت عليَّ بك نعمة أذاقتني طعمَ العزِّ، وعودتني روح الكفاية، وَلَوَتْ هذا الدهرَ وجهده، ولما مسخ الله الإنسان قردًا وخنزيرًا ترك فيهما مشابهة من الإنسان، ولما مسخ زماننا لم يترك فيه مشابهة من الأزمان»[١].

ثالثًا: فن المقامة

*** المقامة في اللغة:** اسم مكان من الفعل (قام)، وكانت تطلق على المجلس الذي يجتمع فيه القوم، وعلى الجماعة من الناس الذين يضمهم المجلس، ثم أطلقت على الكلام الذي يدور في المجلس على سبيل المجاز المرسل، وعلاقته المحليَّة.

*** واصطلاحًا:** هي قصة قصيرة يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية أو فلسفية أو خطرة وجدانية أو لمحة من لمحات الدعابة والمجون.

*مبتكر فن المقامة:

اختلف مؤرخو الأدب في تحديد أول من كتب في فن المقامة، فقال بعضهم: هو العالم اللغوي أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد صاحب كتاب جمهرة اللغة، وقال بعضهم: هو المطهر الأزدي.

*** سبب نشأتها:** انتشرت ظاهرة التسول في العصر العباسي، وقد احترف هذه المهنة طائفة سميت بالساسانيين، كانوا يستجدون الناس ببعض الشعر، ثم تطور الأمر إلى اختراع هؤلاء الساسانيين قصصًا يحكي فيها الرجل فقره، وما حلَّ به من نكبات، بأسلوب مشوِّق مؤثِّر لينال به عطاء الناس.

*** بناء المقامة:** يبني صاحب المقامة مقاماته على هيئة قصص قصيرة، لكل قصة راوٍ يسميه: كعيسى بن هشام، وبطلٌ يقوم بالأفعال الغريبة والأمور الطريفة كأبي الفتح السكندري في مقامات بديع الزمان الهمزاني، وكالحارث بن همام، وأبي زيد السروجي في مقامات الحريري، أما أسلوبها فيقوم غالبًا على السجع، وحشد عدد كبير من المحسنات البديعية، وتضمينها أبياتًا من الشعر، سواءٌ من شعر الكاتب نفسه، أو من التراث الشعري القديم.

---

(١) أودى (اسم تفضيل): أهلك وأقتل. يرثي له: يرحمه ويشفق عليه. درْك: اسم مصدر بمعنى الإدراك. ضيقة: شدَّة. مصمتة: تجعل المصاب بها يسكت من شدة هولها. اغتفرته: غفرته. الإدلال: الانبساط ثقة في زيادة المحبة. لوتْ: ثنتْ.

* القيمة العلمية للمقامات:

١- ترسم صورة للعصر بكل أبعاده السياسية والاجتماعية والثقافية.

٢- إحياء عدد كبير من مفردات اللغة وأساليبها.

٣- ذاع صيتها في عالم الأدب، بل انتقلت من الأدب العربي إلى آداب عالمية.

٤- تعتبر حلقة مهمة من حلقات تطور الفن القصصي عند العرب.

٥- إثراء الأدب العربي بنتاج ضخم قام به أدباء مبدعون على مَـرِّ التاريخ الأدبي منهم: بديع الزمان الهمزاني، والحريري والزمخشري والسيوطي.

* ترجمة بديع الزمان الهمذاني:

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى الهمذاني الملقب ببديع الزمان، ولد في همـذان من بلاد فارس عام (٣٥٨هـ)، أخذ بديع الزمان عن علماء عصره، ومن أبرزهم أبو الحسن أحمد بن فارس صاحب كتاب (مجمل اللغة)، ثم رحل من همذان لبرودة الجو بها، وتنقل بين (الري)، و(جرجان)، و(نيسابور)، و(سجستان)، ثم استقر في (هراة) بأفغانستان، وتزوج من ابنة أحد أثريائها، واقتنى عقارًا وضياعًا وأنجب أولادًا، بل كان الناس يقصدونه لطلب شفاعته عند أولياء الأمر. وبها توفي عام ٣٩٨هـ، وهو في الأربعين من عمره.

ترك بديع الزمان ديوان شعر، ورسائل، ومقامات، وكلها من الأدب الإنشائي الذي يقوم على الإبداع الذاتي لا على الوصف والنقد لأدب الآخرين.

* نموذج من مقامات بديع الزمان:

من المقامة القريضيَّة

«حدثنا عيسى بن هشام قال: طرحتْني النوى مطارحها، حتى إذا وطئت جرجان الأقصى، فاستظهرت على الأيام بضِياعٍ أجلْتُ فيها يد العمارة؛ وأموالٍ وقفتها على التجارة، وحانوتٍ جعلتُه مثابة، ورفقة اتخذتها صحابة، وجعلت للدار حاشيتي النهار، وللحانوت ما بينهما، فجلسنا يومًا نتذاكر القريض وأهله، وتلقَّـانا شابٌّ قد جلس غير بعيد، ينصت وكأنَّه يفهم، ويسكت وكأنه لا يعلم، حتى إذا مال الكلام بنا ميْـله، وجرَّ الجدال فينا ذيله، قال: قد أصبتُمْ عُذَيْقة، ووافيتم جُذَيْـلة، ولو شئتُ

للفظتُ وأفضت، ولو قلتُ لأصدرت وأوردت، ولجلوتُ الحق في معرض بيان يُسْمع الصم، ويُـنْزل العُصْم، فقلت: يا فاضل، ادنُ فقد منَّيْتَ، وهات فقد أثـنيتَ، فدنا وقال: سلوني أجبْكم، واسمعوا أُعْجِـبْكم.

فقلنا: ما تقول في امرئ القيس؟ قال: هو أول من وقف بالديار وعرصاتها، واغتدى والطيرُ في وَكَنَـاتها، ووصف الخيل بصفاتها، ولم يقل الشعر كاسبًا، ولم يجد القول راغبًا، ففَضَل من تفتَّـق للحيلة لسانه، وانتجع للرغبة بنانُه.

قلنا: فما تقول في النابغة؟ قال: يثـلبُ إذا حنق، ويمدح إذا رغب، ويعتذر إذا رهب، فلا يرمي إلا صائبًا.

قلنا: فما تقول في زهير؟ قال: يُذيب الشعرَ والشعرُ يُذيبه، ويدعو القول والسحر يجيبه.

قلنا: فما تقول في طرفة؟ قال: هو ماء الأشعار وطينتها، وكنز القوافي ومدينتها، مات ولم تظهر أسرار دفائنه، ولم تفتح أغلاق خزائنه.

قلنا: فما تقول في جـرير والفرزدق؟ أيهما أسبق؟ فقال: جرير أرقُّ شعرًا، وأغْزرُ غَـزْرًا، والفرزدق أمتن صخرًا، وأكثر فخرًا، وجرير أوجع هجوًا وأشرفُ يومًا، والفـرزدق أكثر روْمًا، وأكرم قومًا، وجرير إذا نسب أشجى، وإذا ثلب أردى، وإذا مدح أسنى، والفرزدق إذا افتخر أجزى، وإذا احتقر أزرى، وإذا وصف أوفى.

قلنا: فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم؟ قال: المتقدمون أشرف لفظًا، وأكثر من المعاني حظًّـا، والمتأخرون ألطف صنعًا، وأرقُّ نسجًا». [1]

رابعًا: أهم خصائص النثر في العصر العباسي

١ـ العناية بفصاحة الألفاظ وجزالتها والتأنق في اختيارها، فهجرت الألفاظ الحوشية الغريبة، كما هجرت الألفاظ العامية السوقية.

---

(١) النوى: البعد. ومعنى طرحتني النوى مطارحها: باعدت بيني وبين أهلي. استظهرت: استعنت. ضياع: جمع ضيعة وهي الأرض التي تدرُّ على صاحبها غلة. مثابة: ملجأ. حاشيتي النهار: أوله وآخره. القريض: الشعر. أصبتُم عُذَيْقة ووافيتم جُذَيْـلة: كنايتان عن تعظيم نفسه، وأنَّه أهل للإجابة عن هذا السؤال. أفضت: زدت في الكلام. أصدرت وأوردت: نشرت وأذعت. جلوت: أظهرت. ينزل العُصْم: يجعل الوعول تنزل من أعالي الجبال. العرصات: جمع عرصة وهي ساحة الدار، والمقصود أنَّه وقف على الأطلال. وكنات: جمع وكنة وهي عش الطائر. يثلب: يهجو. حنق: غضب. إذا ثلب أردى: إذا هجا إنسانًا أسقطه.

٢ـ العناية بزخرفة الأسلوب بالمحسنات البديعية، وقد كانت المحسنات البديعية قليلة في نتاج الأدباء في العصر العباسي الأول على نحو ما نرى في أسلوب الجاحظ، ثم بدأت تظهر شيئًا فشيئًا حتى وصلت إلى درجة التكلف الممقوت.

٣ـ كثرة الاقتباس من القرآن الكريم والسنة النبوية، وتضمين أشعار القدماء، والإشارة إلى الحوادث التاريخية.

٤ـ التفخيم والتهويل في سرد ألقاب الملوك والأمراء وأصحاب الشأن، وتخصيص كل مرتبة بلقب خاص.

٥ـ الاستطراد بعرض المعنى في أكثر من صورة، فكثر السجع، والمزاوجة بالجمل المترادفة.

٦ـ تقسيم الأسلوب إلى فقرات، تطول أحيانًا في رسائل الوصف، وتقصر غالبًا في بقية فنون الرسائل من تهنئة وعتاب وتهديد ... الخ.

٧ـ ترتيب الأفكار ترتيبًا منطقيًّا بعرض المقدمات ثم النتائج، أو ذكر الدعوى ثم إقامة الدليل عليها، وهذا من آثار التوسع في دراسة المنطق والفلسفة وترجمة كتب الحكمة الفارسية واليونانية.

* * *

تدريبات

السؤال الأول: أجب عن الأسئلة الآتية:

١ـ عرف المقامة لغة واصطلاحًا، وبين الرأي الراجح في مبتكرها، مع ذكر فقرة مما تحفظ من المقامة القريضية توضح حكم المؤلف على أحد الشعراء.

٢ـ اكتب مقالًا مختصرًا في ترجمة «الجاحظ» تصور فيه مكانته في النثر العربي.

٣ـ ما أبرز السمات الفنية للنثر في العصر العباسي؟

«يعتبر فن التوقيعات من أعظم الفنون دلالة على روعة الإيجاز في البيان العربي» اشرح هذه العبارة، مُعَرِّفًا فن التوقيعات، ومستشهدًا بنموذجين مما تحفظ.

السؤال الثاني: علِّلْ لما يأتي:

١ـ بلوغ الخطابة أوج ازدهارها في صدر العصر العباسي.

٢ـ ظهور فن المقامة في العصر العباسي.

٣ـ الأهمية العلمية للمقامات الأدبية.

٤ـ عودة الجاحظ من بلاط الخليفة الواثق.

السؤال الثالث: اختر الإجابة الصحيحة من البدائل المطروحة بين القوسين:

١ـ من مؤلفات الجاحظ كتاب: (الشعر والشعراء ـ البيان والتبيين ـ دلائل الإعجاز).

٢ـ توفي بديع الزمان الهمذاني في مدينة (الري ـ جرجان ـ هراة).

٣ـ عاش ابن نباتة الخطيب في (مصر ـ الشام ـ اليمن).

٤ـ مؤلف كتاب «أدب الكاتب» هو (ابن قتيبة ـ الجاحظ ـ عبد القاهر الجرجاني).

السؤال الرابع: ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (×) أمام العبارة غير الصحيحة فيما يأتي:

١ـ كان الجاحظ صديقًا للوزير محمد بن عبد الملك الزيات. ( )

٢ـ البطل في مقامات بديع الزمان هو عيسى بن هشام. (   )

٣ـ ضعفت الخطابة في أواخر العصر العباسي. (   )

٤ـ تعد رسائل التهنئة بالمولود من الرسائل الديوانية. (   )

٥ـ أخذ العرب صناعة الدواوين عن الفرس. (   )

السؤال الخامس: أكمل مكان النقط في الجمل الآتية:

١ـ الرسالة الديوانية هي ....

٢ـ من الكتب التي جمعت بين العلم والأدب .... ، .... ، ....

٣ـ من أبرز كتاب المقامات بعد بديع الزمان الهمذاني .... ، .... ، ....

٤ـ من أبرز الخطباء في العصر العباسي .... ، .... ، ....

❊ ❊ ❊

إثراءات

✽ تذكر أنَّ: الشاعر الملقب بصريع الغواني هو مسلم بن الوليد :

ـ الشاعر الملقب برهين المحبسين هو أبو العلاء المعري؛ والمحبسان هما عماه ولزومه بيته، وقد أضاف إليهما محبسًا ثالثًا حيث قال:

الطائيان هما: أبو تمام والبحتري؛ لأنهما ينتميان إلى قبيلة طيئ.

- الشاعر الملقب بالمُرَعَّث هو بشار بن برد؛ لأنه كان في أذنه وهو صغير رعاث جمع (رعثة) وهو القرط.
- المتنبي أقام في مصر أربع سنوات في زمن كافور الإخشيدي، وقد مدحه في البداية، ثم هجاه في النهاية.
- لم يدَّع المتنبي النبوة؛ ولكنَّها فرية ألصقها به خصومه للتقليل من مكانته.
- عاصر المتنبي عددًا كبيرًا من الشعراء، ولكن شهرته قلَّلت من ذكرهم، منهم: أبو فراس الحمداني، الصنوبري، السري الرفاء وغيرهم.
- قالوا: بدأت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد. والأول هو عبد الحميد بن يحيى كاتب الأمويين، وقد قتل مع مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، والثاني هو محمد بن الحسين من أهل خراسان، عاش في القرن الرابع الهجري. وليس معنى المقولة أنَّ الكتابة كانت غير موجودة قبل الأول وانتهت بوفاة الثاني؛ ولكنها تشير إلى تميزهما بين الكُتَّاب.
- لقب الجاحظ بهذا اللقب لجحوظ عينيه، ولقب ابن العميد بالجاحظ الثاني؛ لاقتداره في فنون الكتابة تشبيهًا له بالجاحظ.
- الراوي في مقامات بديع الزمان الهمذاني هو عيسى بن هشام، والبطل هو أبو الفتح السكندري، بينما الراوي في مقامات الحريري هو الحارث ابن همام، والبطل هو أبو زيد السروجي. وكلها شخصيات خيالية من اختراع المؤلفين.

✽ ✽ ✽

الدرس السادس

في الرثاء لأبي تمام

أهداف الدرس:

بنهاية الدرس يتوقع أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يذكر ترجمة لأبي تمام.

٢ـ يذكر مناسبة قصيدة أبي تمام التي مطلعها: (كَـذا فَـليَجِلَّ الخَطبُ وَليَفدَحِ الأَمرُ ...

٣ـ يشرح الأبيات المختارة من القصيدة بأسلوبه الخاص.

٤ـ يحدد سمات شخصية الشاعر وخصائص أسلوبه.

٥ـ يذكر أثر البيئة في النص.

٦ـ يستخرج مظاهر الجمال من النص المختار.

٧ـ يحفظ خمسة أبيات من القصيدة.

كَذافَليَجِلَّ الخَطبُ وَليَفدَحِ الأَمرُ ** فَلَيسَ لِعَينٍ لَم يَفِضْ ماؤُها عُذْرُ[١]

تُوُفِّيَـتِ الآمـالُ بَعـدَ مُحَمَّـدٍ ** وَأَصبَحَ في شُغلٍ عَنِ السَّفرِ السَفْرُ[٢]

وَمـا كانَ إِلا مـالَ مَـن قَـلَّ مالُهُ ** وَذُخراً لِمَن أَمسى وَلَيسَ لَهُ ذُخرُ[٣]

وَما كانَ يَدري مُجتَدي جودِ كَفِّهِ ** إِذا ما استَهَلَّت أَنَّهُ خُلِقَ العُسرُ[٤]

أَلا في سَـبيلِ اللَّـهِ مَـن عُطِّلَت لَهُ ** فِجاجُ سَبيلِ اللَّهِ وَانثَغَرَ الثَغرُ[٥]

فَتـىً كُلَّـما فاضَـت عُيـونُ قَبيلَـةٍ ** دَماً ضَحِكَت عَنهُ الأَحاديثُ وَالذِّكرُ[٦]

---

(١) فليجلّ، فليفدح: فليَعْظُم، ويجوز فيهما كسر اللام وفتحها للتخلص من التقاء الساكنين، والكسر أجود.

(٢) السفْر بسكون الفاء: المسافر، ويطلق على المفرد والجمع.

(٣) الذُّخْر: ما يدخر لوقت الحاجة من مال وسلاح، ومنه ذخيرة الحرب، وهي العُدّة.

(٤) مُجتدِي: طالب الجَدا أو الجدوى، بمعنى النفع والعطاء. استهلت: اشتد انصباب عطائها.

(٥) فجاج: جمع فجّ، وهو الطريق الواسع. انثغر: انفتح، والثغر: موضع هجوم الأعداء.

(٦) فاضت عينه: سال دمعها بغزارة.

فتىً مات بَينَ الضَّربِ وَالطَّعنِ ميتَةً ** تَقومُ مَقامَ النَّصرِ إِذ فاتَهُ النَّصْرُ[١]

وَما ماتَ حَتّى ماتَ مَضرِبُ سَيفِهِ ** مِنَ الضَّربِ وَاعتَلَّت عَلَيهِ القَنا السُّمْرُ[٢]

وَقَد كانَ فَوتُ المَوتِ سَهلًا فَرَدَّهُ ** إِلَيهِ الحِفاظُ المُرُّ وَالخُلُقُ الوَعْرُ[٣]

ونفسٌ تعافُ العارَ حتَّى كأنَّهُ ** هو الكُفْرُ يومَ الرَّوعِ أو دونه الكُفْرُ[٤]

*** التعريف بالشاعر:**

هو حبيب بن أوس الطائي، ولد عام ١٨٨هـ في قرية جاسم (من قرى حوران بسورية) عندما ترعرع أبو تمام سافر إلى مصر فكان يسقي الماء بجامع عمرو بن العاص، وهو يومئذٍ مكتظ بحلقات العلم، فاستمع إلى الشيوخ، وتلقى عنهم دروسًا في اللغة والنحو والأدب وعلوم الدين، كما حفظ كثيرًا من الشعر، حتى أبدع فيه، وتفرد فيه بعبقرية نادرة فأصبح شاعرًا مطبوعًا لطيف المعاني له إبداعات تفرد بها، عاد أبو تمام إلى موطنه عام ٢١٤هـ، فوجد المآتم منصوبة لفقيد طيِّئ «محمد بن حُمَيْد الطوسي» الذي قتله جماعة من أنصار «بابك الخُرَّمي» فرثاه أبو تمام بعينيته الرائعة:

أصمَّ بك الناعي وإنْ كانَ أسْمَعَا ** وأصبحَ مَغْنَى الجودِ بعدكَ بلْقَعَا[٥]

ومن هنا بدأ نجمه يلمع، حتى صار من أبرز شعراء عصره، فاستدعاه المعتصم إلى بغداد، فصار من المقربين له، وخصه بأصفى مدائحه، ثمَّ ولاَّه بريد الموصل، فبقي فيها سنتين حتى مات سنة ٢٣١هـ عن ثلاثة وأربعين عامًا.

من أروع قصائد أبي تمام قصيدته في فتح «عمورية»، تلك المدينة الحصينة التي فتحها المعتصم استجابة لصوت أسيرة مسلمة نادت «وامعتصماه»، فحرَّك الجيش في زمن الشتاء رغم شدة البرودة، ولم يستمع إلى أقوال المنجِّمين الذين زعموا أنَّ الطالع ليس في صالحه، وقد عرَّض أبو تمام بأكاذيب هؤلاء المنجِّمين في مطلع القصيدة حيث قال:

السَّيفُ أَصدَقُ أَنباءً مِنَ الكُتُبِ ** في حَدِّهِ الحَدُّ بَينَ الجِدِّ وَاللَّعِبِ

---

(١) الضرب بالسيف، والطعن بالرمح.

(٢) مضرب السيف: حده، اعتلت عليه: تكاثرت عليه حتى عاقته عن الحركة.

(٣) الحِفاظ: الدفاع عن المحارم في المعركة. الوعْر: الصُّلب الشديد.

(٤) تعاف: تكره. العار: كل ما يلزم منه سباب أو عيب. الروْع: الحرب والفزع الشديد.

(٥) الناعي: من يعلن خبر الموت، مغنى: المَغْنى: المكان الطيب الذي يستغني أهله بالإقامة فيه عن غيره، البلْقع: المكان الخالي. والمعنى أنَّ خبر الوفاة لما وصل إلى آذاننا أصابها بالصمم، وحول أرض الكرم إلى صحراء خالية.

بيضُ الصَّفائِحِ لا سودُ الصَّحائِفِ في *** مُتونِـهِنَّ جَـلاءُ الشَّـكِّ وَالرِّيَـبِ

وَالعِلمُ في شُـهُبِ الأَرماحِ لامِـعَةً *** بَينَ الخَميسَينِ لا في السَّبعَةِ الشُّهُبِ[1]

* مناسبة القصيدة:

رثى أبو تمام بهذه القصيدة القائد البارع محمد بن حميد الطوسي، وهو من كبار قادة جيوش الخليفة المأمون العباسي، حيث استعان به في مقاتلة الخارجين عليه، وبخاصة «بابك الخُرَّمي» الذي ادعى الألوهية، وانضمَّ إلى دعوته كثير من الناس، فأبلى الرجل في قتاله بلاء حسنًا، لكن جماعة من أصحاب «بابك الخُرَّمي» نصبوا له كمينًا عام ٢١٤هـ، وخرجوا عليهم بغتة ففر معظم أصحابه، لكنَّه صمد أمامهم وقاتلهم قتالًا شديدًا حتى انكسرت في يده تسعة سيوف، ولما يئسوا من قتله احتالوا بأن ضربوا فرسه بالرُّمح فسقط إلى الأرض، فاجتمعوا عليه وقتلوه.

وقد حزن الخليفة المأمون على موته حزنًا شديدًا، وقد رثاه عدد كبير من الشعراء بمراثٍ رائعة، لكن أخلدها وأروعها بلا منازع رائية أبي تمام.

* المعنى العام:

يقول الشاعر: إنَّ مصابنا في محمد بن حُمَيد مصابٌ كبيرٌ فادح، وإنَّ العيون يجب أن تبكي عليه جميعًا، ولا عذر لأحد في ترك البكاء. ولم لا؟ فقد ماتت آمالنا في النصر بل في الحياة من بعده، وانشغل المسافرون عن رحلتهم لما سمعوا هذا النبأ المؤلم. لقد كان الرجل جوادًا كريمًا، فكل فقير معدم يعتمد على الله ثم عليه، فماله مال للفقراء، ومدخراته من مال وسلاح كأنها في خزانة من لا يجدون شيئًا منها، حتى إنَّ هؤلاء الفقراء الذين تعودوا على سؤاله ظنُّوا أنَّ العسر والحاجة لا وجود لهما في الحياة.

إنَّنا نحتسب عند الله ذلك البطل الشهيد الذي عطلت بموته الفتوحات، بل انفتحت الثغور أمام غارات الأعداء بعدما مات حاميها، والحقيقة أنَّ كافة القبائل تبكي على فراقه بالدماء بدلاً من الدموع، ولكن آثاره الطيبة وفتوحاته الخالدة تضحك وتستبشر بترديد هذه الأخبار، كيف لا والرجل حاز الشهادة في سبيل الله، ومات مقبلاً غير مدبر، وهذا لون من ألوان النصر. لقد أثبت الرجل في الميدان شجاعة بالغة، وقاوم حتى تكسر سيفه، واجتمعت عليه رماح الأعداء من كل ناحية، وقد كان من السهل عليه الفرار، لكنَّه يعتبر أنَّ الفرار عارٌ شنيع، فهو عنده كالكفر أو أشد من الكفر.

---

(١) حدِّه: جانب السيف الذي يقطع. الحدُّ: الفصل. بيض الصفائح: السيوف البيضاء اللامعة. سود الصحائف: كتب المنجِّمين. متون: جمع متن وهو حدُّ السيف. جلاء: ذهاب. الريب: جمع ريبة وهي الظن والتهمة. الأرماح: جمع رمح. الخميسين: الجيشين. السبعة الشهب: النجوم التي يقرأ فيها المنجمون الطالع ونحوه.

❊ مظاهر الجمال:

١ـ بدء القصيدة بقوله: (كذا) هو من المطالع الغريبة، إشارةً إلى أنَّ هذا القائد مات ميتة فريدة، وينبغي أن تكون حالته هي المشبه بها فى كل مصاب جليل. وفي قوله (فليجل)، (وليفدح) جاء المضارع مقترنًا بلام الأمر يدل على التفخيم والتهويل.وجاءت كلمة (عذر) نكرة لإفادة العموم والشمول.

٢ـ وفي قوله (توفيت الآمال) استعارة مكنية، حيث شَبَّه الآمال بإنسان يموت، وفائدتها تشخيص المعنوي، وعرضه في صورة حسيَّة مجسَّمة.وقوله: (وأصبح في شغل عن السَّفَر السَفْر) كناية عن الذهول من هول المصيبة، وبين قوله: (السَّفَر ـ السَفر) جناس غير تام يعطي الكلام جرسًا موسيقيًّا عذبًا، ويلفت النظر إلى المفارقة المعنوية بين اللفظين.

٣ـ وفى قوله: (ما كان إلا مال..) قصر، طريقه النفي والاستثناء، ويفيد التأكيد والتخصيص.

٤ـ وفي قوله : (استهلَّت) استعارة تصريحية تبعية، حيث شَبَّه تدفق العطاء من يد الممدوح بانصباب المطر من السحاب.

٥ـ كلمة (ألا) أداة استفتاح وتنبيه، تدل على أهمية ما بعدها.

٦ـ جاءت كلمة(فتى) نكرة للتفخيم والتعظيم، كأنَّه الجامع لكل صفات الفتوّة، وفى البيت إيجاز بالحذف، حيث حذف المبتدأ (هو) للمسارعة إلى المطلوب.وفى قوله: (فاضت عيون قبيلة دمًا) كناية عن نفاد الدمع من كثرة البكاء.وفى قوله: (ضحكت عنه الأحاديث) استعارة مكنية؛ حيث شَبَّه الأحاديث بإنسان يضحك، وفائدتها تشخيص المعنوي. وبين قوله: (فاضت عيون قبيلة دمًا،وضحكت) طباق يبرز المعنى ويوضحه.

٧ـ وفى قوله: (مات بين الطعن والضرب) كناية عن الشجاعة والتوكيد بالمصدر وتنكيره في قوله (مات ... ميتة) يدل على تعظيم هذه الميتة، ولا عجب فهي تقوم مقام النصر.

٨ـ وفي قوله: (مات مضرب سيفه) استعارة مكنية حيثُ صوَّر مضرب السيف بشخص يموت.

٩ـ وفي قوله: (قد كان فوت الموت سهلاً) جاء التوكيد بقد؛ ليدل على تحقق حصول فرصة الهرب، لكنَّه هو الذي رفض رفضًا قاطعًا.وفي قوله: (فوت ـ الموت) جناس غير تام، يعطي الكلام جرسًا موسيقيًّا عذبًا.وفي قوله: (الحفاظ المرّ) استعارة مكنية، حيث شبَّه الحفاظ في صعوبته

بالشراب المر، ولكنه تعاطى هذا الشراب كما يتعاطى المريض الدواء المرّ. وفي قوله: (الخلق الوعر) استعارة مكنية تصور الخلق الشديد مكانًا وعرًا، وهى توحى بكثرة تحمله المشقَّات.

١٠ ـ وفي قوله: (كأنَّه هو الكفر) تشبيه الفرار بالكفر يوحي بقبح صورة عار الفرار عند ذلك القائد، وقد استخدم أداة التشبيه (كأنَّ) للدلالة على قرب الشبه بين الطرفين. وفي قوله: (أو دونه الكفر) مبالغة في تقبيح صورة الفرار، وأنه عار ما بعده عار.

❊ ❊ ❊

التعليق على النص

أولاً: شخصية الشاعر من خلال النص:

١ـ شاعر مرهف الأحاسيس فياض المشاعر.

٢ـ شاعر يعتز بأبطال قومه وقبيلته، بدليل حزنه الشديد على فقد هذا البطل.

٣ـ شاعر مناضل يرى أن الموت في عزّ خير من الحياة في ذل.

ثانيًا: خصائص أسلوب الشاعر من خلال النص:

١ـ اعتمد على الأسلوب الخبري ليفيد التقرير والتوكيد.

٢ـ اعتمد على المحسنات البديعية، على الرغم من أن المقام مقام رثاء؛ وذلك لأن أبا تمام من أوائل من عرفوا بالصنعة البديعية.

٣ـ روعة التصوير، ودقة التعبير.

ثالثًا: أثر البيئة في النص:

١ـ انتشار الرثاء القبلي والقومي.

٢ـ وجود ثورات على الحكام في العصر العباسي.

٣ـ قيام الحروب بين جيوش الدولة والخارجين عليها.

رابعًا: العاطفة:

عاطفة الشاعر في هذه القصيدة صادقة تمامًا، فقد أدَّى استشهاد محمد بن حميد إلى حالة من الحزن العارم؛ حيث بكاه الخليفة، واجتمع الناس يبكونه في شوارع بغداد، إذ كانت وفاته زلزالًا عنيفًا هزَّ أركان الدولة العباسية، فلا عجب أن يحزن عليه شاعر ينتمي إلى قبيلته، وليس في القصيدة شبهة تكسُّب أو رغبة في العطاء؛ لأن الرجل قد مات.

خامسًا : التعبير والتصوير:

تنطق القصيدة بعبقرية أبي تمام في اختيار الألفاظ، وتشكيل الصور الفنية، والاستفادة من الأساليب البلاغية بكامل طاقاتها الجماليَّة، من ذلك:

سادسًا : الموسيقى:

اختار أبو تمام لقصيدته بحر الطويل بتفعيلاته الممتدة (فعولن مفاعيلن) أربع مرات في كل بيت؛ ليستوعب معاني الحزن والحسرة التي عمَّت الأمة بأسرها.

واختار حرف الروي (الراء) لسهولته وكثرة تردده في كلام العرب، مما مكنه من إرسال القول على فطرته دون تكلف، والتكرار الذي هو صفة من صفات الراء يشير إلى تردد الحسات في فؤاده بلا توقف.

وهناك موسيقى داخيلة تتمثل في اختيار الألفاظ المناسبة في مواضعها، وبعض المحسنات البديعية من طباق وجناس، مما جعل القصيدة صالحة للتلحين، ولا عجب فقد غَنَّتها (عريب) جارية المأمون لما مات أخوه أبو عيسى بألحان النياح، فبكى المأمون بكاء شديدًا، وبكي جميع الحاضرين.

❊ ❊ ❊

تدريبات

السؤال الأول:

كَـذا فَـلْيَجِلَّ الخَطبُ وَلْيَفْدَحِ الأَمرُ ❊ فَـلَيسَ لِـعَينٍ لَـم يَفِضْ ماؤُها عُذْرُ
تُـوُفِّـيَتِ الآمـــالُ بَـعدَ مُـحَـمَّـدٍ ❊ وَأَصـبَحَ فـي شُغلٍ عَنِ السَّفرِ السَّفْرُ
وَمــا كــانَ إِلا مــالَ مَــن قَلَّ مالُهُ ❊ وَذُخـراً لِـمَن أَمسى وَلَيسَ لَهُ ذُخرُ

١) لمن النص؟ وما عنوانه؟ وما مناسبة القصيدة؟

٢) اشرح الأبيات شرحًا أدبيًّا بأسلوبك.

٣) هات معنى ما تحته خط في الأبيات السابقة.

٤) ماذا أفاد قوله: «كذا» في مطلع القصيدة؟

٥) بين ما فى الأبيات من مظاهر جمال.

السؤال الثانى:

وَمـا كــانَ يَدري مُجتَدي جودِ كَفِّهِ ❊ إِذا مـــا اســتَهَلَّت أَنَّــهُ خُلِقَ العُسرُ
أَلا فـي سَـبيلِ الـلَّـهِ مَن عُطِّلَت لَهُ ❊ فِـجاجُ سَـبيلِ الـلَّـهِ وَانـثَغَرَ الثَّغرُ
فَـتًى كُـلَّما فـاضَت عُـيونُ قَبيلَةٍ ❊ دَماً ضَحِكَت عَنهُ الأَحاديثُ وَالذِّكرُ
فَـتًى مـاتَ بَينَ الضَّربِ وَالطَّعنِ ميتَةً ❊ تَـقومُ مَقـامَ النَّـصرِ إِذ فاتَـهُ النَّصر

١) ضع عنوانًا مناسبًا للأبيات السابقة.

٢) اشرح الأبيات بأسلوبك.

٣) اكتب بيتين بعد الأبيات السابقة.

٤) هات معاني الكلمات التى تحتها خط في الأبيات.

٥) اختر الصواب مما بين القوسين فيما يأتى:

١. جمع كلمة «كف» (كفوف ـ أكف ـ كلاهما صحيح).

٢. جمع كلمة «فتى» (أفتية ـ فتية ـ فتوة).

٣. تنكير كلمة «فتى» يفيد (التفخيم والتعظيم ـ العموم والشمول ـ التحقير).

٦) ما الفرق بين الضرب والطعن؟

٧) استخرج من البيت الثالث استعارة، وبين نوعها، وبم توحى؟

السؤال الثالث:

وَمـا ماتَ حَتّى ماتَ مَضرِبُ سَيفِهِ ** مِنَ الضَّربِ وَاعتَلَّت عَلَيهِ القَنا السُّمْرُ

وَقَـد كـانَ فَوتُ المَوتِ سَهلاً فَرَدَّهُ ** إِلَـيهِ الـحِفاظُ الـمُرُّ وَالـخُلُقُ الوَعْرُ

وَنَـفسٌ تَعافُ العارَ حَـتّى كَأَنَّـهُ ** هُـوَ الكُفرُ يَومَ الرَوعِ أَو دونَهُ الكُفرُ

(أ) اختر الصواب مما بين القوسين:

١ـ «مضرب سيفه» (حد السيف ـ بريق السيف ـ قوة السيف).

٢ـ «الحفاظ» (المحافظة على المال ـ الدفاع عن المحارم ـ حفظ الشعر).

٣ـ «الوعر» مضادها: (الأخضر ـ الصعب ـ السمح).

٤ـ بين «فوت، والموت» (طباق ـ جناس تام ـ جناس ناقص).

(ب) اشرح الأبيات بأسلوبك.

(جـ) هات من الأبيات تشبيهًا ووضحه.

* * *

الدرس السابع

في الاستعطاف للمتنبي

أهداف الدرس:

بنهاية الدرس يتوقع أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يذكر ترجمة موجزة لأبي الطيب المتنبي.

٢ـ يذكر المناسبة التي أدت إلى قول المتنبي قصيدته في الاستعطاف.

٣ـ يشرح الأبيات المختارة من القصيدة بأسلوبه الخاص.

٤ـ يحدد سمات شخصية الشاعر وخصائص أسلوبه.

٥ـ يذكر أثر البيئة في النص.

٦ـ يستخرج مظاهر الجمال من النص المختار.

٧ـ يحفظ خمسة أبيات من القصيدة.

تَــرَفَّق أَيُّهــا المَــولى عَلَيْــهِم ** فَــإِنَّ الرِّفــقَ بِالجــاني عِتــابُ [1]

وَإِنَّهُــمُ عَبيــدُكَ حَيــثُ كانوا ** إِذا تَدعــو لِحادِثَــةٍ أَجابــوا [2]

وَعَينُ المُخطِئينَ هُمُ وَلَيسوا ** بِــأَوَّلِ مَعــشَرٍ خَطِئُــوا فَتابوا [3]

وَأَنتَ حَياتُهُم غَضِبَت عَلَيهِم ** وَهَــجْرُ حَياتِــهِم لَهُمُ عِقابُ

وَمــا جَهِلَت أَيادِيَكَ البَوادي ** وَلَكِــن رُبَّــما خَفِــيَ الصَّوابُ [4]

وَكَــم ذَنــبٍ مُوَلِّــدُهُ دَلالٌ ** وَكَــم بُعــدٍ مُوَلِّــدُهُ اِقــتِرابُ [5]

---

(١) ترفَّق: كن رحيمًا بهم. المولى: السيد. الجاني: المذنب.

(٢) حادثة: أمر طارئ. أجابوا: أطاعوا ولبوا النداء.

(٣) المخطئين: جمع مخطئ وهو اسم فاعل من الفعل أخطأ بمعنى وقع منه الخطأ دون تعمد، بخلاف خَطِئ في الشطر الثاني فإنها تعني تعمد الوقوع في الخطأ. معشر: كل جماعة متفقين على أمر واحد، والجمع معاشر.

(٤) الأيادي: النعم والعطايا. البوادي: جمع بادية والمقصود أهل البادية وهم سكان الصحاري بخلاف الحضر.

(٥) مولِّده: مسببه وموجده. دلال: جرأة بسبب الإفراط في الصداقة والمحبة.

وَجُـرمٍ جَرَّهُ سُفَـهاءُ قَـومٍ ** وَحَـلَّ بِغَيرِ جارِمِـهِ العَذابُ [(١)]

رَمَيْـتَهُمُ بِبَحـرٍ مِـن حَديـدٍ ** لَـهُ في الـبَرِّ خَلفَهُـمُ عُبَـابُ [(٢)]

فَمَسَّـاهُم وَبُسـطُهُمُ حَريـرٌ ** وَصَبَّحَهُـم وَبُسـطُهُمُ تُرابُ [(٣)]

وَمَـن في كَفِّـهِ مِنهُـم قَـناةٌ ** كَمَن في كَفِّهِ مِنهُم خِضابُ [(٤)]

بَنو قَتلى أَبيكَ بِأَرضِ نَـجدٍ ** وَمَـن أَبقى وَأَبقَـتهُ الحِرابُ [(٥)]

عَفا عَنهُم وَأَعتَقَهُم صِغارًا ** وَفي أَعناقِ أَكثَرِهِم سِخابُ [(٦)]

وَكُلُّكُـمُ أَتـى مَأتـى أَبيـهِ ** فَكُلُّ فَعـالِ كُلِّكُمُ عُـجابُ [(٧)]

كَذا فَليَسرِ مَن طَلَبَ الأَعادي ** ومثل سراك فليكن الطلابُ [(٨)]

* التعريف بالشاعر:

هو أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجُعْفي الكِنْدي، كنيته أبو الطيب، ولقبه المُتنبِّي. ولد في حي (كِنْدة) بالكوفة عام ٣٠٣هـ لأبوين ينتميان إلى أصول يمنية، التحق أبو الطيب بكُتَّاب في الكوفة، وتفتحت موهبته الشعرية وهو في الثامنة من عمره، تنقل بين الشام والعراق حتى استقر به المقام في حلب في بلاط الأمير المجاهد سيف الدولة الحمداني، فاستمرَّ عنده تسع سنوات (٣٣٧ ـ ٣٤٦هـ)، وبسبب كثرة وشايات الخصوم ارتحل إلى مصر فأقام بها أربع سنوات، ابتدأها بمدح كافور الإخشيدي، وختمها بهجائه مرَّ الهجاء، ثم فرَّ من مصر متخفِّيًا ليلة عيد الأضحى عام ٣٥٠هـ، فذهب إلى بغداد، ثم انتقل إلى بلاد فارس، وفي طريق عودته عند دير العاقول (بالقرب من بغداد) خرج عليه جماعة من اللصوص بقيادة فاتك بن أبي جهل الأسدي، ولم يكن معه سوى ابنه وغلامه فقتلوهم في أواخر رمضان عام ٣٥٤هـ.

---

(١) جُرْم: ذنب. جرَّه: سبَّبه. السفهاء: جمع سفيه وهو الجاهل الأحمق. حلَّ: وقع ونزل. الجارم: المذنب.
(٢) بحر من حديد: جنود على رؤوسهم خوذات الحديد كأنهم ماء البحر في الكثرة. عُباب: معظم ماء البحر.
(٣) مسَّاهم: أتاهم في وقت المساء. صبَّحهم: نزل بهم في وقت الصباح. بسطهم: جمع بساط وهو ما يفرش على الأرض.
(٤) القناة: الرمح. الخضاب: الحناء.
(٥) الحراب: جمع حربة وهي حديدة مسنونة أقصر من الرمح يرمى بها الأعداء.
(٦) سِخاب: قلادة توضع في أعناق الصبيان.
(٧) أتى مأتى أبيه: فعل مثل فعله. فعال (بفتح الفاء وكسرها) أي عمل. عجاب: عجيب وغريب.
(٨) فليسرِ: من السُّرى وهو السير ليلًا. الأعادي: جمع أعداء، وأعداء جمع عدو.

اشتهر المتنبي بشعر الحكمة؛ حيث مزج بينها وبين الفروسية وطموح نفسه إلى معالي الأمور مما أكسبها السيرورة والخلود، ومن روائع حكمه قوله:

إِذَا غَامَـرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُومِ *** فَـلا تَقْنَـعْ بِـمَا دُونَ النُّـجُومِ

فَطَعْمُ الْـمَوْتِ فِي أَمْرٍ حَقيرٍ *** كَطَعْـمِ المُـوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمِ

يَرَى الْـجُبَناءُ أَنَّ الْعجْزَ عَقْلٌ *** وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبْعِ اللَّئِيمِ

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحاً *** وَآفَتُـهُ مِـنَ الْفَهْـمِ السَّـقِيمِ [١]

*** مناسبة القصيدة:**

في عام ٣٤٣هـ تمرَّدت قبيلة بني كلاب التي كانت تسكن في مدينة «بالس» على شاطئ الفرات على حكم سيف الدولة الحمداني أمير الدولة الحمدانية بحلب، وارتكبت من الأعمال ما لا يليق، والأمير منشغل بحروبه ضد الروم، فلما عاد من حربه قرَّر أن يؤدبهم، فلما علموا بمسيره إليهم رحلوا عن ديارهم، لكن الرجل كان لهم بالمرصاد، فتتبعهم حتى أدركهم بين ماءيْ (الحرارات والغبارات)، فقاتلهم وهزمهم هزيمة منكرة، وقتل عددًا من رجالهم، وسبى عددًا من نسائهم.

وكان المتنبي في ذروة مجده في بلاط سيف الدولة، فأنشد هذه القصيدة يمدحه، ويستعطفه للعفو عن بني كلاب، وتبلغ القصيدة اثنين وأربعين بيتًا، ومطلعها:

بِغَيرِكَ راعِيًا عَبِثَ الذِّئابُ *** وَغَيرَكَ صارِمًا ثَلَمَ الضِّرابُ [٢]

*** المعنى العام:**

يناشد المتنبي سيفَ الدولة أن يعامل بني كلاب برفق؛ لأنَّ الجاني إذا عومل برفق رجع عن ضلاله؛ وذلك لأنهم عبيدك في أي مكان، ولن يتأخروا عن إجابة طلبك وتلبية دعوتك.

ولا شك أنَّهم مخطئون، ولكنهم ليسوا أول من أخطأوا، فعادة الإنسان الخطأ والنسيان، فليكن من عادتك أن تعفو وتصفح، ويمكن أن تكتفي بهجرهم، وتلك عقوبة كبيرة لهم؛ لأنَّك لهم بمنزلة الحياة، أو بمنزلة الروح من الجسد، وليست هناك عقوبة أشد من هجر الحياة.

---

(١) غامرت: خاطرت، والمغامرة هي الدخول في المهالك. مروم: مطلوب. السقيم: المريض.
(٢) عبث: استخفَّ. صارمًا: سيفًا. ثلم السيف: تكسر حدُّه.

وهؤلاء الكلابيون لا يجهلون فضلك، ولا يجحدون نعمتك عليهم، ولكن العين قد تعمى عن رؤية الصواب، فلعلهم تجرَّؤوا على فَعْلتهم بسبب فرط الدلال، وشدة القرب منك، فكم كان القرب سببًا لإفساد ذات البين، ولكن العدل يقتضي ألا نأخذ غير الجاني، فكيف تجعل إساءة بعض السفهاء سببًا لمعاقبة الجميع.

لقد هجمت عليهم بجيش جرار كأن رجاله الذين يلبسون الخوذات على رءوسهم، بحر من حديد له أمواجه المتلاطمة من المقاتلين. وقد حل جيشك بديارهم مساءً وهم منعمون على بساط الحرير، وما إن أقبل الصباح حتى كانوا مشردين على وجوههم في الصحاري، وحسبهم ذُلًّا أن يستوي الرجال والنساء في القهر والاستكانة.

ولا تنس أيها الأمير أنَّ هؤلاء المتمردين إما أبناء قوم حاربهم أبوك وأذَّلهم وقتل آباءهم، وإما أولئك الأسرى الذين عفا عنهم والدك احتقارًا لشأنهم حيث كانوا أطفالًا صغارًا تعلق القلائد في أعناقهم، فعفا عنهم وأعتقهم، وأنت أولى الناس بأن تتشبه بأبيك «ومن يشابه أبه فما ظلم».

وفي النهاية معاركك هي المثل الأعلى لمن أراد أن يتعلم فن الحرب، سواء في توقيت البدء أم في إنهاء المعركة.

*** مظاهر الجمال:**

١ـ وفى قوله : (ترفقْ) أسلوب إنشائي، نوعه: أمر، وقد خرج عن معناه الحقيقى إلى معنى مجازى وهو الرجاء، ؛ لأنَّه صادر من الأدنى إلى الأعلى؛ وقوله:(أيُّها المولى) نداء حذفت أداته للدلالة على قرب المنادَى منه، ومجيء المنادي معرَّفًا بعد (أي) يدل على التعظيم، والكلمة ببنائها تدلُّ على العلو والسيادة.

٢ـ وقوله: (فإن الرفق بالجاني عتاب) جملة خبرية مؤكدة بإنَّ تدل على الثبوت والدوام، وهو ما يجعل منها حكمة خالدة ثابتة في كل زمان ومكان.

٣ـ وفى قوله : (إذا تدعو لحادثة أجابوا) شرط، يدل على التلازم بين فعلي الشرط والجواب، فمتى دعوتهم لن يتأخروا عن إجابة دعوتك والبيت تعليل للبيت الأول .

٤ـ وفى قوله : (المخطئين) جاءت اسم فاعل للدلالة على أنهم لم يفعلوا ذلك عمدًا.

٥ـ وفى قوله :(أنت حياتهم) تشبيه بليغ، وفائدته تعظيم مكانة سيف الدولة.

٦ـ وفي قوله :(البوادي) إيجاز بحذف المضاف والتقدير "أهل البوادي"، يدل على المبالغة في الإقرار بنعم الرجل، حتى كأنَّ الأرض نفسها تقرُّ بهذه النعم.

٧ـ وفي قوله : (وكم ذنب.... وكم بعد) جاءت كمْ خبرية تفيد التكثير للدلالة على شيوع مثل هذه التصرفات بين أهل الأرض، مع الاعتذار عنها بأنَّ سببها الدلال والقرب.

٨ـ وفي قوله :(وجرم جرَّه سفهاء قوم...البيت) تأثر الشاعر بقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]

٩ـ وفي قوله : (رميتهم ببحر من حديد) استعارة تصريحية، حيث شَبَّه جنود سيف الدولة بالبحر في الكثرة والإخافة.

١٠ـوفي قوله : (وبسطهم حرير) كناية عن العز والغنى والأمان، (وبسطهم تراب) كناية عن الذل والهوان، وبين الشطرين مقابلة.

١١ـوفي قولـه: (ومن في كفِّه منهم قناة) كنايـة عـن موصـوف، وهم الرجال؛ لأنهم هم الذين يحملون السلاح عادة، وقوله:(كمن في كفِّه منهم خضاب) كناية عن موصوف وهن النساء؛ لأنهنَّ يختضبن بالحناء عادة، والتشبيه يدل على التحقير، فقد صيَّر سيف الدولة الرجال كالنساء في الذل والضعف والاستكانة.

١٢ـوفي قوله: (بنو قتلى أبيك) إيجاز بالحذف، حيث حذف المبتدأ، والتقدير: هؤلاء أو هم، والغرض من الحذف التحقير.

١٣ـوفي قوله: (وفي أعناق أكثرهم سخاب) كناية عن أنهم كانوا أطفالًا؛ لأنَّ العرب كانوا يعلقون التمائم عادة في أعناق الأطفال.

١٤ـوفي قوله: (أتى مأتى أبيه) تشبيه، أي: فعل مثلما فعل أبوه، فآباؤهم عصوا وتمردوا، وأبوك عفا وصفح، وهذا من عجيب التوافق،

١٥ـوفي قوله: (كذا فليسر ، ومثل سراك) تشبيهان يدلان على تعظيم الممدوح، فقد صار بحكيم تصرفه قدوة وإمامًا لكل المحاربين.

* * *

التعليق على النص

أولاً: شخصية الشاعر من خلال النص:

١ـ صديق لسيف الدولة الحمداني.

٢ـ بارع في التصوير والتعبير.

٣ـ مثقف واسع الثقافة.

٤ـ يلتمس الأعذار للمخطئين.

٥ـ يعرف تاريخ الملوك مع شعوبهم.

ثانيًا: خصائص أسلوب الشاعر:

١ـ نوَّع بين الخبر والإنشاء؛ للتقرير والتشويق.

٢ـ اعتمد على الترتيب المنطقي في سرد الموضوع.

٣ـ روعة التصوير، ودقة التعبير.

٤ـ قلة المحسنات البديعية غير المتكلفة.

ثالثًا: أثر البيئة في النص:

١ـ وجود بعض الشعراء في بلاط الحكام.

٢ـ يأخذ الشاعر أحيانًا دور الشفيع بالنسبة لبعض المخطئين.

٣ـ وجود بعض الثورات على الحاكم.

رابعًا: العاطفة:

وقف المتنبي بين يدي سيف الدولة موقف الشفيع الذي يثق بمكانته عند الأمير، ونعتقد أنه كان صادقًا في عاطفته؛ إذ لا يوجد ما يحمله على الكذب والمداهنة من طمع في مغنم أو خوف من عقاب.

خامسًا: التعبير والتصوير:

وظَّف المتنبي قدراته الشعرية الجبارة في سبيل تحقيق الهدف الذي يصبو إليه من العفو عن بني كلاب، واستعان بجملة من الوسائط التعبيرية والأساليب البلاغية.

سادسًا: الموسيقى:

اختار المتنبي لقصيدته "بحر الوافر"، ووزنه «مفاعلتن مفاعلتن فعولن» وهو بحر عذب الإيقاع، سهل الحفظ، يتناسب مع موقف الاستعطاف.

حرف الروي هو "الباء"، وهي حرف مجهور شديد مقلقل يتناغم مع دقات طبول الحرب التي يتحدث عنها المتنبي.

استعان المتنبي بألوان من الموسيقى الداخلية متمثلة في المحسنات البديعية غير المتكلفة، ووضع الألفاظ في مواضعها، وتذييل كثير من الأبيات بما يشبه الحكم الخالدة.



تدريبات

السؤال الأول:

تَرَفَّق أَيُّها المَولى عَلَيْـهِم ** فَإِنَّ الرِّفقَ بِالجاني عِتابُ
وَإِنَّهُمُ عَبيدُكَ حَيثُ كانوا ** إِذا تَدعـو لِحادِثَـةٍ أَجابـوا
وَعَينُ المُخطِئينَ هُمُ وَلَيسوا ** بِأَوَّلِ مَعشَرٍ خَطِئُوا فَتابوا

(أ) من قائل النص؟ وما عنوانه؟ وما مناسبة القصيدة؟

(ب) استخرج من البيت الأول أسلوبى النداء والأمر، واذكر الغرض منهما.

(جـ) اكتب بيتين بعد الأبيات السابقة.

(د) استخرج من الأبيات طباقًا، واذكر فائدته.

(هـ) ما علاقة الشطر الثاني بالأول، في البيت الأول؟

(و) هات معنى ما تحته خط في الأبيات.

السؤال الثانى:

رَمَيْـتَهُمُ بِبَحرٍ مِن حَديدٍ ** لَـهُ في الـبَرِّ خَلفَهُمُ عُبابُ
فَمَسَّـاهُم وَبُسطُهُمُ حَريرٌ ** وَصَبَّحَهُم وَبُسطُهُمُ تُرابُ
وَمَـن في كَفِّـهِ مِنهُـم قَناةٌ ** كَمَن في كَفِّهِ مِنهُم خِضابُ

(أ) اختر الإجابة الصحيحة مما بين القوسين:

١ـ في قوله: «بحر من حديد» (تشبيه ـ استعارة مكنية ـ استعارة تصريحية).

٢ـ بين شطري البيت الثاني (طباق ـ مقابلة ـ جناس).

٣ـ كلمة «قناة» جمعها (قنا ـ قنوات ـ قنايا).

٤ـ كلمة «بسط» مفردها (باسط ـ بسطة ـ بساط).

(ب) ضع عنوانًا مناسبًا للأبيات السابقة.

(جـ) اشرح البيت الثالث، وبين ما فيه من هجاء.

السؤال الثالث:

بَنو قَتلى أَبيكَ بِأَرضِ نَـجدٍ ** وَمَن أَبقى وَأَبقَـتهُ الحِرابُ

عَـفا عَنهُم وَأَعتَقَهُم صِغارًا ** وَفي أَعناقِ أَكثَرِهِم سِخابُ

(أ) اختر الإجابة الصحيحة مما بين القوسين:

ـ مفرد كلمة «الحراب» (حرب ـ حربة ـ محراب).

ـ مفرد كلمة «بنو» (بان ـ لبناء ـ ابن).

(ب) فسر المفردات التي تحتها خط.

(جـ) في البيت الأول إيجاز، اذكره، ثم بين الغرض منه.

(د) اشرح البيتين شرحًا أدبيًا.

(هـ) وضِّحْ علاقة البيتين ببيئة الشاعر.

***

الدرس الثامن

خطبة عيد الفطر للخليفة المأمون

أهداف الدرس:

بنهاية الدرس يتوقع أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يذكر ترجمة للخليفة المأمون بن هارون الرشيد.

٢ـ يذكر مناسبة خطبة الخليفة هارون الرشيد.

٣ـ يشرح الخطبة بأسلوبه الخاص.

٤ـ يحدد سمات شخصية الخطيب وخصائص أسلوبه.

٥ـ يذكر أثر البيئة في النص.

٦ـ يستخرج مظاهر الجمال من النص المختار.

٧ـ يحفظ فقرة من الخطبة.

أورد ابن قتيبة في كتابه (عيون الأخبار) أنَّ الخليفة المأمون خطب في يوم عيد الفطر فقال:

«إنَّ يومَكُمْ هذا يومُ عيدٍ وسُنَّة، وابتهالٍ ورغبةٍ، يومٌ ختَم الله تعالى به صيامَ شهرِ رمضان، وافتتح به حجَّ بيته الحرام، فجعله خاتمةَ الشهر، وأوَّلَ أيامِ شهورِ الحَجِّ، وجعله مُعقَّبًا لِفْروضِ صِيامكمْ، ومُتَنَفَّلِ قِيامكمْ، أَحَلَّ فيه الطعام لكم، وحرَّم فيه الصيام عليكم، فاطلبوا إلى الله تعالى حوائِجَكُمْ، واستغفروه لتَفريطِكُم؛ فإنَّه يُقال: «لا كبيرةَ معَ استغفارٍ، ولا صغيرةَ معَ إصرارٍ»، ثم التكبير والتحميد وذكر النبي ﷺ والوصية بالتقوى، ثم قال: فاتقوا الله عبادَ اللهِ، وبادِرُوا الأمرَ الذي اعتدَلَ فيهِ يَقينُكُمْ، ولم يَحتضِرْ الشكُّ فيهِ أحدًا منكمْ، وهو الموتُ المكتوبُ عليكمْ؛ فإنَّه لا تُستقالُ بَعْدهُ عَثْرَة، ولا تُحظَ قَبْلَهُ تَوبةٌ.

واعلموا أنَّه لا شيء قبله إلا دونه، ولا شيء بعده إلا فوقه، ولا يُعينُ على جَزَعِهِ وعَلَزه وكَرْبه، ولا يُعين على القبرِ وظُلمتِهِ، وضِيقِه ووحشَتِهِ، وهولِ مَطْلعِهِ، ومُساءَلةِ مَلائكتِهِ، إلا العملُ الصالحُ الذي

أمرَ اللهُ تعالى به، فمَن زلَّتْ عند الموتِ قدمُهُ فقدْ ظهرتْ نَدَامَتُهُ، وفاتَتْهُ استقالَتُهُ، ودَعا من الرَّجْعَةِ إلى ما لا يُجابُ إليه، وبَذَلَ مِنَ الفِدْيةِ ما لا يُقْبَلُ منْهُ.

فاللهَ اللهَ عبادَ اللهِ، فكونوا قومًا سألوا الرَّجْعة فأُعْطُوها؛ إذْ مُنِعَها الذين طَلَبوها، فإنَّه ليس يتمنَّى المُتقدِّمون قبلَكم إلا هذا المَهَلَ المَبْسوطَ لكم، واحذروا ما حذَّركم اللهُ تعالى منه، واتقوا اليومَ الذي يَجْمَعُكم اللهُ فيه لوضْعِ مَوازينِكُمْ، ونَشْرِ صُحُفِكُمْ الحافظةِ لأعْمالكم، فلْينظُرْ عندما يضعُ في ميزانه مما يَثْقُل به، وما يُمِلُّ في صحيفتِهِ الحافظةِ لما عليهِ ولَهُ، فقدْ حَكَى اللهُ تعالى لكم ما قال المُفرِّطونَ عندَها؛ إذْ طالَ إعراضُهُمْ عَنْها قال: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]»[١].

* التعريف بالخطيب:

هو أبو العباس عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، الملقب بالمأمون، سابع الخلفاء العباسيين، وأحد أعظم ملوك الدنيا في عصره، ولد عام ١٧٠هـ، وتلقى العلم عن كثير من علماء عصره، فكان عالمًا محدِّثًا لغويًّا، تولى الأمر بعد خلع أخيه الأمين عام ١٩٨هـ، وعمل على تقوية دولته سياسيًّا وعلميًّا، فامتدَّ ملكه من الهند وخراسان شرقًا إلى المغرب العربي غربًا، وتمَّم ما بدأه جده «أبو جعفر المنصور» من ترجمة كتب العلم والفلسفة، حيث كان يرسل الهدايا النفيسة إلى ملوك الروم طالبًا ما لديهم من كتب الفلاسفة، فبعثوا إليه بعدد كبير من كتب أفلاطون وأرسطو وبقراط وجالينوس وإقليدس وغيرهم، فاختار لها المترجمين المَهَرة، فترجموها وحضَّ الناس على قراءتها، فقامت دولة الحكمة والفلسفة في أيامه، وأطلق حرية الكلام لأهل الجدل والفلاسفة، مما أدى إلى ظهور فتنة القول بخلق القرآن في أواخر حكمه، حيث امتحن وعُذِّب بسببها عدد من العلماء على رأسهم الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله.

كان الخليفة المأمون صالحًا تقيًّا، فقد روي أنَّه تلا في رمضان ثلاثًا وثلاثين ختمة، كما كان فصيحًا مفوَّهًا، نقلت عنه توقيعات بليغة، وعبارات مأثورة، فمن كلامه: «لو عرف الناسُ حُبِّي للعفوِ لتقرَّبوا إليَّ بالجَرائم»، «معاوية بن أبي سفيان بعمره، وعبد الملك بحجاجه، وأنا بنفسي»، «الناس ثلاثة: رجلٌ منهم مثلُ الغذاءِ لا بُدَّ منه، ومنهم كالدواءِ يُحْتاج إليه في حال المرض، ومنهم كالدَّاءِ مكروهٌ على كلِّ حَالٍ».

---

(١) معقبًا: تاليًا. متنفل: نافلة مقابل الفرض. تفريطكم: تهاونكم وتقصيركم. بادروا: سارعوا. عثرة: خطأ وزلَّة. ولا تستقال بعده عثرة: لا يطلب مغفرة الزلة بعد الموت؛ لفوات زمن التوبة. تحظر: تمنع. العَلَز: الكرب الذي يعاني منه المحتضر عند الموت. المهل: المهلة وهي الفترة الزمنية المتاحة لأمر ما. المبسوط: المتسع. يملُّ: يملي على الكاتب. مشفقين: خائفين.

خرج للغزو فتوفي في قرية «بذندون» من الثغور الشمالية للدولة، وذلك في الثاني عشر من رجب سنة ٢١٨هـ، ثم نقل ابنه جثمانه ليدفن في مدينة طرسوس.

*** مناسبة الخطبة:**

كان الخلفاء والأمراء في زمن ازدهار الخلافة ورواج سوق العلم والأدب يؤدون خطبة الجمعة بأنفسهم، وقد احتفظت كتب التاريخ والأدب بعدد غير قليل من خطب أصحاب السلطان في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي والعصر العباسي، فلا جرم أن يقوم الخليفة المأمون الذي كان عالمًا محدِّثًا وأديبًا وخطيبًا مفوَّهًا بأداء خطبة العيد بنفسه، لكن المصدر الذي احتفظ بالخطبة لم يحدد العام الذي قيلت فيه؛ لكنه من أعوام خلافته يقينًا أي بين عامي (١٩٨ - ٢١٨هـ).

*** نظرات أدبية :**

* على الرغم من أنَّ الخطبة من خطب المناسبات الدينية استطاع المأمون أن يخرج بها عن إطار المناسبة، وأن يجمع فيها كثيرًا من المواعظ التي يرى الناس في حاجة إليها، وبخاصة جانب الدنيا التي فتحت أبواب زخارفها على مصراعيها في العصر العباسي، ويوم العيد يلهو فيه الناس عادة، فأراد أن يزجرهم عن السعي الحثيث وراء مباهجها.

* تضمنت الخطبة عددًا من القيم الدينية والخلقية أهمها: منزلة يوم عيد الفطر، لزوم الاستغفار، أهمية التقوى، المبادرة إلى العمل قبل الموت، يوم القيامة وما فيه من حساب.

* اللغة التي استخدمها الخليفة المأمون سهلة سلسلة ليس فيها كلمة عامية سوى (عَلَزه)، وذلك لأنَّها موجهة إلى عامة الناس.

* الخطبة قصيرة عملاً بأمر النبي ﷺ حيث قال: «إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ، وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ، مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ، وَاقْصُرُوا الْخُطْبَةَ، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا». رواه مسلم من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما.

مظاهر الجمال:

- في قوله : (إنَّ يومَكُمْ هذا يومُ عيدٍ وسُنَّة....) جملة خبرية تدل على الاستقرار والثبات، فيوم العيد ثابت خبره، ولا يتغير بتبدل الخلفاء.

- بين الفرض والنافله فى قوله: (مفْروضِ صِيامكمْ، ومُتَنَفَّلِ قيامكم)، الطباق وبين الإعطاء والمنع – أيضا – فى قوله:(سألوا الرَّجْعة فأُعْطُوها؛ إذْ مُنِعَها الذين طَلَبوها)، يبرز المعنى ويوضحه، ففي المثال الأول يظهر اجتماع ثوابي الفريضة والنافلة في رمضان، وفي المثال الثانى يبرز الفرق بين التائب الذي بادر إلى التوبة في حياته فنال المغفرة، واللاهي الذي طلب الرجعة بعد الموت فمنع من ذلك.
- وفى قوله : (أحل فيه الطعام لكم، وحَّرم فيه الصيام عليكم) مقابلة، وهى تبرز حال المسلم الطائع الذي كان الصيام عليه مفروضًا والإفطار حرامًا أمس، ثم تبدل الحكم تمامًا يوم العيد.
- وفى قوله : (فاطلبوا، واستغفروه، وبادِرُوا، واعلموا...) إنشاء، نوعه أمر، غرضه النصح والإرشاد، على الرغم من أنها صادرة من الأعلى إلى الأدنى، لكن السياق يدل على أنَّها مواعظ من خطيب هدفها النصيحة دون إجبار .
- وفى قوله: (سنة، رغبة)، (استغفار، إصرار)، (عثرة، توبة)، (ظلمته، وحشته) سجع، جاء عفو الخاطر، ولا تنافر بينه وبين المقام.
- وفى قوله: (زلَّتْ عند الموتِ قدمُهُ) كناية عن الخسران بالتورط في أعمال غير صالحة.
- وفى قوله: (فاللهَ اللهَ) إغراء، الغرض منه الحث على التمسك بالعمل الصالح الذي يرضي الله.
- وفى قوله: (عبادَ اللهِ) نداء؛ حذفت أداة النداء، والتقدير ياعباد الله الغرض منه للدلالة على قرب الرعية من الراعي.
- وفى قوله: (لا شيء قبله إلا دونه، ولا شيء بعده إلا فوقه) وقوله: (فإنَّه ليس يتمنَّى الُمتقدِّمون قبلَكم إلا هذا الَمهَلَ الَمبْسوطَ لكم) قصر، طريقه النفى والإستثناء، وغرضه التوكيد.
- استشهد الخطيب بآيتين من القرآن، كما استشهد بقول بعض السلف: (لا كبيرةَ معَ استغفارٍ، ولا صغيرةَ معَ إصرارٍ)، وهذا يدل على أنَّ الخطيب يدعم كلامه بالدليل، ولا يركن إلى الكلام المرسل.

❊❊❊

التعليق على النص

أولاً: شخصية الخطيب من خلال النص:

١ـ أنَّه زاهد في الدنيا، على الرغم من كونه خليفة المسلمين آنذاك.

٢ـ أنَّه يخاف الله واليوم الآخر.

٣ـ أنَّه يقوم بدور الناصح المشفق على رعيته.

ثانيًا: خصائص أسلوب الخطيب من خلال النص:

١ـ نوَّع في أسلوبه بين الخبر والإنشاء للتقرير والتوكيد.

٢ـ قلة المحسنات البديعية، إلا ما جاء عفو الخاطر.

٣ـ بروز الروح الدينية في الخطبة.

٤ـ الاقتباس من القرآن الكريم.

ثالثًا: أثر البيئة في النص:

١ـ الاحتفال بالأعياد والمناسبات الدينية.

٢ـ أداء الخلفاء الخطب بأنفسهم أحيانًا.

٣ـ وجود القادة المصلحين في المجتمع.

❊ ❊ ❊

تدريبات

السؤال الأول:

درست خطبة دينية للخليفة المأمون. فأجب عما يأتي:

(أ) ما مناسبة الخطبة.

(ب) كان قائل الخطبة مُحبًّا للعلم، كما كان صالحًا تقيًّا، اذكر مما درست ما يدل على ذلك.

(جـ) اذكر بإيجاز بعض القيم الخلقية التى تضمنتها الخطبة.

(د) ما أهم أجزاء الخطبة؟

(هـ) اختر الصواب مما بين القوسين:

١ـ هذه الخطبة وردت في كتاب

(الكامل للمبرد ـ وحي القلم للرافعي ـ عيون الأخبار لابن قتيبة).

٢ـ كانت الخطبة في يوم (عيد الفطر ـ عيد الأضحى ـ الجمعة).

السؤال الثاني:

«فاللهَ اللهَ عبادَ اللهِ، فكونوا قومًا سألوا الرَّجْعة فأُعْطُوها؛ إذْ مُنِعَها الذين طَلَبوها، فإنَّه ليس يتمنَّى المُتقدِّمون قبلَكم إلا هذا المَهَلَ المَبْسوطَ لكم، واحذروا ما حذَّركم اللهُ تعالى منه...».

(أ) ضع عنوانًا مناسبًا للفقرة السابقة.

(ب) اختر الإجابة الصحيحة مما بين القوسين:

١ـ «الله الله» أسلوب (استغاثة ـ إغراء ـ مدح).

٢ـ «عباد الله» أسلوب (نداء ـ أمر ـ تمني).

٣ـ «احذروا» أمر غرضه (الإلزام ـ النهى ـ النصح والإرشاد).

(جـ) اشرح الفقرة المذكورة شرحًا أدبيًّا.

(د) أكمل الفقرة المذكورة إلى نهاية الخطبة.

الوحدة الثانية
الأدب العربي في العصر المملوكي
(٦٤٨ هـ - ٩٢٣ هـ)

أهداف الوحدة:

بعد الانتهاء من هذه الوحدة ينبغي أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١- يتعرف على تأثير كل من الحياة السياسية والاجتماعية، والعلمية في النتاج الأدبي للعصر المملوكيّ.

٢- يحدد العوامل التي أدت إلى ازدهار فنون شعرية ونثرية معينة في العصر المملوكيّ.

٣- يعلل تفوق فن النثر على فن الشعر في العصر المملوكيّ.

٤- يذكر الأسباب التى أدت إلى ظهور بعض الفنون الأدبية في العصر المملوكيّ.

٥- يسرد ترجمة موجزة لبعض أدباء ذلك العصر.

٦- يحفظ بعض النصوص الأدبية من العصر المملوكي، ويمتلك القدرة على شرحها.

٧- يحدد أهم خصائص الشعر والنثر في العصر المملوكيّ.

الدرس التاسع

ملامح الحياة في العصر المملوكي

أهداف الدرس:

بنهاية الدرس يتوقع أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يذكر التقسيم التاريخي المناسب للعصر المملوكي، وأبرز الحكام في كل قسم.

٢ـ يشرح كيف أثرت الحياة السياسية في العصر المملوكي في النتاج الأدبي لهذا العصر.

٣ـ يبين كيف أثرت الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي في النتاج الأدبي لهذا العصر.

٤ـ يوضح كيف أثرت الحياة العلمية في العصر المملوكي في النتاج الأدبي لهذا العصر.

أولًا: الحياة السياسية:

راجت تجارة الرقيق في العصر العباسي، واستكثر الخلفاء من شراء الرقيق من منطقة وسط آسيا لقوَّة أبدانهم ومهارتهم في القتال؛ وذلك للاستعانة بهم في الدفاع عن سلطانهم، وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب (من سلاطين الأيوبيين في مصر) قد استعان بعدد كبير منهم، ودرَّبهم تدريبًا عسكريًّا متميزًا، وعندما مات الملك الصالح والحرب مشتعلة بين المسلمين والصليبيين في معركة المنصورة في أثناء الحملة الصليبية التاسعة تولى ابنه «توران شاه»، ولكن المماليك ثاروا عليه وقتلوه بعد أربعين يومًا من ولايته فقط، فصارت الأمور إلى أرملة أبيه «شجرة الدر»، وعندما أنكر عليهم الخليفة العباسي تولية امرأة تنازلت بعد ثمانين يومًا عن حكم مصر لصالح زوجها الجديد «عز الدين أيبك» وهو من المماليك، ومن ثم بدأت الدولة المملوكية عام ٦٤٨هـ.

ينقسم العصر المملوكي إلى قسمين:

١ـ العصر المملوكي الأول: ويعرف بدولة الأتراك؛ لأنَّ معظم المماليك كانوا من أصل تركي، ويسمى أيضًا بعصر المماليك البحرية؛ لأنهم كانوا يسكنون في جزيرة الروضة الواقعة وسط النيل بالقاهرة، وقد امتد عصرهم لأكثر من مائة وثلاثين عامًا (٦٤٨-٧٨٤هـ = ١٢٥٠- ١٣٨١م)، وقد ظهر منهم رجال عظماء مثل قطز الذي انتصر على التتار في معركة عين جالوت، وبيبرس الذي

حارب بقايا الصليبيين والتتار في الشام فترة طويلة، وقلاوون وابنه الملك الأشرف خليل الذي أخرج الصليبيين من الشام بصورة نهائية بعد معركة عكا.

٢ـ العصر المملوكي الثاني: ويعرف بدولة الشراكسة؛ لأنَّ معظم المماليك كانوا من أصل شركسي، ويسمى أيضًا بعصر المماليك البرجية؛ لأنهم كانوا يسكنون في أبراج القلعة. وقد امتد عصرهم إلى ما يقرب من مائة وأربعين عامًا (٧٨٤-٩٢٣هـ = ١٣٨٢-١٥١٧م).

من أشهر سلاطين المماليك في العصر الثاني: الظاهر برقوق، والأشرف قايتباي، وقد اتَّسم عهدُهم بكثرةِ الدَّسائسِ والمؤامرات، وفي المقابل تميز بتشجيعِ سلاطينهم للعلمِ والأدب وبناءِ المساجد والمدارس والمستشفيات، وكان لهم دورٌ كبير في حمايةِ بلاد الشَّام من أطماعِ الملك التتري تيمورلنك، وقد انتهت الدولة المملوكية بعد هزيمتهم أمام جيوش الدولة العثمانية في معركة «مرج دابق» (٩٢٢هـ = ١٥١٦م) بالقرب من حلب، حيث قُتِل السلطان «قنصوه الغوري» ثم تولى من بعده ابن أخيه «طومان باي» الذي انهزم في معركة «الريدانية» (٩٢٢هـ = ١٥١٧م) بالقرب من العباسية، ثم دخل العثمانيون القاهرة، وشنقوا السلطان «طومان باي» على باب زويلة في ربيع الأول عام ٩٢٣هـ، وبذلك أصبحت مصر إمارة تابعة للدولة العثمانية.

ثانيًا: الحياة الاجتماعية:

اتسم المجتمع في العصر المملوكي بجملة من السمات، أهمها:

١ـ كثرة الفتن والثورات الداخلية بسبب صراع المماليك على كرسي الحكم.

٢ـ كثرة حلول الكوارث الطبيعية من زلازل وأوبئة؛ حيث كان يموت في الطاعون الواحد عشرات الآلاف.

٣ـ تعميم نظام الإقطاع؛ حيث كان كبار رجال الدولة يحصلون على إقطاعيات كبيرة، تتمثل في مساحات شاسعة من الأرض، بينما يعمل عندهم المصريون بأجر زهيد؛ مما أدى إلى اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء.

٤ـ اهتمام المماليك بإنشاء الخانقاهات[1] والسُبُل والحمامات الشعبية، والمستشفيات العامة أشهرها

(١) الخانقاهات: جمع خانقاه وهي كلمة فارسية الأصل، وتعني الدار التي ينقطع فيها المتصوفة للعبادة، وكانت الدولة تنفق عليها وتقدم لهم الطعام مجانًا، وكلمة (خانگاه) باللغة الفارسية تعني البيت الذي يأكل فيه الملك، وقد تغير الاسم في العصر العثماني إلى (تكية) وجمعها تكايا. ولا يزال المصريون يستعملون الكلمتين وإن تغير مدلولهما قليلاً.

المارستان[1] المنصوري الذي أنشأه السلطان المنصور قلاوون، ووقف عليه أوقافًا كثيرة.

٥ـ اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح، مما حرم مصر في العصر المملوكي من أهم مصادر الدخل.

٦ـ اهتمام المماليك بالعمارة، والبراعة في فنون الزخرفة المعمارية، وقد بقيت آثارهم شاهدة على مدى تقدمهم في هذا المجال مثل: جامع الظاهر بيبرس، ومسجد السلطان حسن بالقاهرة، وقلعة قايتباي بالإسكندرية.

ثالثًا: الحياة العلمية:

على الرغم من كثرة الصراعات السياسية وسوء الأحوال الاقتصادية وبخاصة في العصر المملوكي الثاني ازدهرت الحياة العلمية في العصر المملوكي لعدة أسباب:

١ـ الاهتمام بالتعليم والإنفاق على المدارس بسخاء، ووقف الأموال عليها لضمان استمرار عطائها، وكانت هذه المدارس تهتم في المقام الأول بالعلوم الشرعية واللغوية.

٢ـ نهوض العلماء لحفظ ما بقي من التراث العلمي بعد الكارثة التي حلت به على يد التتار في بغداد، فأقبلوا على تسجيل كل ما تظفر به أيديهم في موسوعات علمية ضخمة.

٣ـ وفود كثير من العلماء إلى مصر من الشرق والغرب حيث جاء العلماء من بغداد بعد سقوطها في يد التتار عام ٦٥٦هـ، كما أقبلوا من الأندلس بعد سقوط عدد كبير من المدن الأندلسية في أيدي الأسبان.

٤ـ تعدد مراكز العلم والثقافة في مصر والشام فثمة مدارس ومكتبات في القاهرة والإسكندرية وأسيوط وقوص ودمشق وحلب.

٥ـ بروز أسماء قامات علمية كبيرة في العصر المملوكي مثل: شمس الدين الذهبي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، وابن قدامة المقدسي، وصلاح الدين الصفدي، وابن حجر العسقلاني، وجلال الدين السيوطي... وغيرهم.

٦ـ اهتمام سلاطين المماليك بإنشاء المكتبات، فقد كانت المكتبات ملحقة بالمساجد الكبرى، كما كانت هناك خزائن كتب مستقلة مثل خزانة المدرسة الظاهرية، وخزانة المدرسة الفاضلية،

(١) كلمة مارستان، أصلها «بيمارستان» وهي كلمة فارسية تتكون من كلمتين «بيمار» أي مريض «ستان» أي محل أو مكان أي دار المرضى، وقد دخلت هذه الكلمة اللغة العربية بهذا المعنى يقول الجوهري في الصحاح: المارستان بيت المرضى.

وخزانة القبة المنصورية، وغيرها من الخزائن التي حفلت بمئات الآلاف من الكتب التي تمكن العلماء من إنقاذها.

٧ـ ازدهار التأليف في العلوم الشرعية واللغوية كافة، وحسبنا أَنَّنا ما زلنا نعيش على نتاج علماء تلك الفترة في النحو مثل: ألفية ابن مالك وشروحها، وكتب ابن هشام (قطر الندى، شذور الذهب، مغني اللبيب)، وفي البلاغة مثل: الإيضاح للخطيب القزويني، وفي التراجم مثل: وفيات الأعيان لابن خلكان، والوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي، وفي الفقه مثل كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وفي الحديث مثل فتح الباري لابن حجر العسقلاني، بالإضافة إلى كتب جلال الدين السيوطي في معظم العلوم والفنون.

❊ ❊ ❊

تدريبات

السؤال الأول: أجب عن الأسئلة الآتية:

١ـ اذكر أهم السمات التي اتسم بها المجتمع في العصر المملوكي.

٢ـ ينقسم العصر المملوكي إلى فترتين متباينتين. اشرح ذلك بالتواريخ، ذاكرًا أسماء أشهر سلاطين المماليك في الفترتين.

٣ـ اهتم المماليك بالإنفاق على الطب والعمارة والتعليم. اشرح ذلك.

السؤال الثاني: علِّلْ لما يأتي:

١ـ استعانة الخلفاء بالمماليك من منطقة آسيا الصغرى.

٢ـ النهضة العلمية في العصر المملوكيّ.

٣ـ حرمان مصر من أهم مصادر الدخل في العصر المملوكيّ.

٤ـ اهتمام العلماء بجمع العلوم في موسوعات ضخمة.

٥ـ تسمية المماليك في العصر المملوكي الأول بالمماليك البحرية.

السؤال الثالث: اختر الإجابة الصحيحة من البدائل المطروحة بين القوسين:

١ـ كلمة «مارستان» أصلها: (عربي ـ فارسي ـ تركي).

٢ـ أول سلاطين الدولة المملوكية هو

(الملك الصالح ـ توران شاه ـ عز الدين أيبك التركماني).

٣ـ كانت معسكرات المماليك الشراكسة في (أبراج القلعة ـ جزيرة الروضة ـ الإسكندرية).

السؤال الرابع: ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (×) أمام العبارة غير الصحيحة فيما يأتي:

١ـ اقتصر التعليم في العصر المملوكيّ على القاهرة. ( )

٢ـ شنق السلطان «طومان باي» وعلق على باب زويلة. ( )

٣ـ أمضت «شجره الدر» عامًا كاملًا في حكم مصر. ( )

٤ـ وفد العلماء بكثرة من الأندلس إلى مصر هربًا من بطش الأسبان. ( )

السؤال الخامس: أكمل مكان النقط في الجمل الآتية:

١ـ انتصر السلطان «قطز» على التتار في معركة ....

٢ـ من خزائن الكتب في العصر المملوكي .... ، .... ، ....

٣ـ من العلماء البارزين في العصر المملوكيّ .... ، .... ، ....

❊ ❊ ❊

الدرس العاشر

الشعر العربي في العصر المملوكيّ

أهداف الدرس:

بنهاية الدرس يتوقع أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يحدد أبرز عوامل ازدهار الشعر في العصر المملوكيّ بمصر والشام، وخموده فى العراق.

٢ـ يحدد أهم الدوافع التي أدت إلى شيوع فن المديح في العصر المملوكى.

٣ـ يذكر مثالًا لمدح المصطفى ﷺ.

٤ـ يذكر أمثلة لفن الرثاء في العصر المملوكى.

٥ـ يذكر أسباب ظهور الهجاء في العصر المملوكى.

٦ـ يذكر أهم خصائص الشعر في العصر المملوكى.

أولًا

الشعر بين الخمود في العراق والنهضة في مصر والشام

* في العصر المملوكي خمدت جذوة الأدب عامة والشعر خاصة في الجزء الشرقي من العالم الإسلامي (العراق وما حولها) لعدة أسباب:

١ـ استيلاء التتار على بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وتقويض دعائم الحضارة فيها.

٢ـ إتلاف الكتب التي كانت تزخر بها مكتبات بغداد، حتى إنَّ المؤرخين يروون أنَّهم جعلوا منها جسرًا يعبرون عليه نهر دجلة، حتى اسودَّ ماؤه من أحبار تلك الكتب.

٣ـ قتل العلماء والأدباء والمربين الذين كانوا يعملون في مدارس بغداد وقصورها، ومن أشهر العلماء الذين قتلتهم التتار أبو الفرج بن الجوزي.

٤ـ هجرة من بقي من العلماء من تلك المناطق فرارًا من طغيان التتار.

* وفي المقابل حافظ الأدب في مصر والشام ـ اللتين كانتا تحت حكم سلاطين المماليك في وحدة سياسية مثمرة ـ على تماسكه، بل ازدهر في أوائل العصر المملوكي لعدة أسباب:

١ـ نهضة الأمة سياسيًّا وعسكريًّا، وتحقيقها انتصارات مهمة على الصليبيين والتتار، حتى تم تطهير بلاد الشام من رجسهم، وهذا من شأنه أن يحفِّز همم الأدباء، ويشرح صدورهم لمدح أولئك القادة العظام.

٢ـ وجود عدد كبير من الأدباء بين الفارِّين من بغداد في المشرق والأندلس في المغرب فوجدوا في مصر والشام ملاذًا آمنًا من طغيان التتار والأسبان، وقد فتحت لهم الدولة المملوكية صدرها بكل عطف وترحاب.

٣ـ استمرار اللغة العربية لغةً رسميةً للبلاد، فبها تكتب المراسلات، وتسجل المعلومات في دواوين الحكومة، فضلاً عن التأليف والتصنيف بها، على الرغم من أنَّ اللغة الأم لسلاطين المماليك هي اللغة التركية.

٤ـ كثرة الأدباء النابهين الذين ظهروا في مصر والشام في تلك الفترة مثل: البوصيري، وابن نباتة، وابن الوردي، والشاب الظريف، وأبي الحسين الجزار، وغيرهم.

٥ـ اشتداد التنافس بين الأدباء ليس من أجل الحصول على عطايا السلاطين، وإنَّما للفوز في المباريات الأدبية، والمطارحات الشعرية التي سيطرت على الساحة الفنية في تلك الفترة.

ثانيًا

أهم أغراض الشعر في العصر المملوكي

من الملاحظ أنَّ كفة النثر رجحت على كفة الشعر في العصر المملوكي وربما كان ذلك لأول مرة في تاريخ الأدب العربي؛ ولعل ذلك يرجع إلى إنصراف الأدباء إلى التأليف والعمل في ديوان الإنشاء، أو غيرها من وظائف التدريس والقضاء، مما يوفر لهم حياة كريمة، وليس أدلَّ على ذلك من أنَّ نفرًا من الشعراء انصرفوا عن الشعر للعمل في مهن أخرى مثل أبي الحسين الجزار الذي ترك الشعر إلى احتراف الجزارة، فلمّا لامه صديقه «شرف الدين بن قديم» قال له:

لا تَلُمْنِي يا سيِّدي شرفَ الدِّيـ ** ـنِ إذا ما رَأَيْتَنِي قَصَّابا

كَيْفَ لا أَشْكُرُ الجِزارةَ ما عِشْـ ** ـتُ حِفَاظًا وَأَتْرُكُ الآدابا

وَبِــها صارتِ الكلابُ تُرَجِّــ ** ــني وبالشِّعْرِ كُنْتُ أرْجُو الكِلابا [١]

وليس معنى ذلك أن جذوة الشعر قد انطفأت، فقد استمر الشعراء يقرضون الشعر في كل غرض من الأغراض القديمة والمستحدثة، ولعل أهم تلك الأغراض:

١ـ المدح:

لم يتوقف الشعراء عن مدح الملوك والأمراء تقديرًا لجهدهم في الدفاع عن الأمة أمام الصليبيين والتتار، كما لم يخلُ المديح في هذا العصرين طمعًا في منصب أو مال، وقد امتزج مدح القادة المنتصرين بالفخر والحماسة، فقد واصل الظاهر «بيبرس» مسيرة «قطز» الجهاديَّة، وتعقب فُلول التتار وبقايا الصليبيِّين في سائر أرجاء بلاد الشام طيلة مدة حكمه التي قاربت عشرين عامًا، ومن أبرز المعارك التي خاضها موقعة «الفرات» عام ٦٥٨هـ حيث طارد التتار حتى شاطئ الفرات، فلما عبروا النهر ظانِّين أنَّه سيحول دون وصوله إليهم، فوجئوا أنَّه ألقى بنفسه في الماء حتى خاض الفرات، فألقت العساكر بأنفسها خلفه، فأوقع بالتتار، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر قرابة مائتي نفس، وهي المعركة التي خلدها الشاعر «بدر الدين يوسف بن المِهْمِنْدَار» بقصيدته الرائيَّة التي مطلعها:

لَوْ عَايَــنَتْ عَـيْنَاكَ يَوْمَ نِـزَالِنَا ** وَالـخَيْلُ تَطْفَحُ في العَجَاجِ الأَكْدَرِ

وَقَدِ اطْلَخَمَّ الأَمْرُ وَاحْتَدَمَ الوَغَى ** وَوَهَى الجَبَانُ وَسَاءَ ظَنُّ الـمُـجْتَرِي [٢]

٢ـ المدائح النبوية:

بلغ فن المدائح النبوية في العصر المملوكي أقصى غاياته، حيث أقبل الشعراء على كتابة القصائد في مدح الرسول ﷺ، ولعل السبب في ذلك أنَّ الناس عانوا من ويلات الصليبيِّين والتتار الذين كانوا يقودون حروبًا دينية مقدسة، وشعروا أنَّهم لا حول لهم ولا قوة أمام قسوة هؤلاء الطغاة، فلاذوا بباب المصطفى ﷺ يمدحونه، ويذكُرون معجزاته، ويتوسلون به لإغاثتهم مما هم فيه من كرب دنيوي، وللشفاعة يوم العرض، وللرد على الرسائل التي كان يسوقها الصليبيون يومًا بعد يوم في ذمِّ النبيِّ ﷺ، وخير من يمثل هذا الاتجاه هو الإمام شرف الدين البوصيريُّ الذي انتشرت قصيدته: «الكواكب الدُّرِّيَّة في مدح خير البريَّة» المعروفة بالبردة، في الآفاق، ومطلعها:

(١) القصَّاب: الجزار. وفي البيت الأخير تورية، حيث جاءت كلمة (الكلابا) في آخر الأبيات بمعنيين أحدهما قريب غير مقصود وهو الحيوانات المعروفة، والثاني بعيد مقصود وهم حكام السوء الذين لا يعطون الشعراء.

(٢) نزالنا: حربنا. تطفح: تعدو. العجاج: غبار المعركة. اطلخمَّ الأمر: اشتدَّ. الوغى: الحرب. وَهَى: ضعف. المُجْتري: الشجاع الجريء، وأصلها المجترئ، فخففت الهمزة لضرورة القافية.

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِـيرانٍ بِذِي سَـلَمٍ ❁ مَزَجْتَ دَمْعاً جَرى مِنْ مُـقْلَةٍ بِدَمِ
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقاءِ كاظِمَةٍ ❁ وأَوْمَضَ البَرْقُ فِي الظَلْماءِ مِنْ إِضَمِ [١]

وله غير البردة مدائح عديدة تنمُّ عن محبَّة مُفْرطة، وعن فلسفة خاصة بالحقيقة المحمديَّة، حيث يقول:

مُـحَمَّدٌ حُجَّةُ اللهِ التي ظَهَرَتْ ❁ بِـسُنَّةٍ ما لها فِي الخَلقِ تَـحْوِيلُ
نَـجْلُ الأكارِمِ والقَومِ الَّذينَ لَهُمْ ❁ عَلَى جَمِيعِ الأَنَامِ الطَّوْلُ والطُّولُ [٢]

٣ـ الوصف:

لم يترك شعراء العصر المملوكي شيئًا مما وقعت عليه أعينهم إلا تفننوا في وصفه، فقد قدموا أوصافًا إنسانية عديدة للبشر، سواء أصحاب العاهات أو أصحاب الوظائف، كما وصفوا الأعضاء من رأس ولحية وشارب وغيرها، ووصفوا الحيوانات أليفة وغير أليفة كالكلاب والخيول والصقور والحمام والنعام، بالإضافة إلى مناظر الطبيعة من حدائق وأزهار وجداول وطيور ومبانٍ وأثاث... وغيرها مما نكاد نراه رأي العين من خلال ذلك الوصف الدقيق.

ولعل من أروع قصائد الوصف في العصر المملوكي قصيدة الشاعر «صفيّ الدين الحِليّ» في وصف الربيع، التى يقول في مطلعها:

خَلَعَ الرَبيـعُ عَلى غُصـونِ البانِ ❁ حُلَـلاً فَواضِلُهـا عَـلى الكُثْـبانِ
وَنَمَت فُروعُ الدَوحِ حَتّى صافَحَت ❁ كَفَلَ الكَثيـبِ ذَوائِـبُ الأَغصانِ
وَتَتَوَّجَت هامُ الغُصونِ وَضَرَّجَت ❁ خَـدَّ الرِّيـاضِ شَـقائِقُ النُعـمانِ
وَتَنَوَّعَت بُسُطُ الرياضِ فَزَهرُها ❁ مُتَبـايِـنُ الأَشْـكالِ وَالأَلْـوانِ
مِـن أَبيَـضٍ يَقَـقٍ وَأَصفَرَ فاقِـعٍ ❁ أَو أَزرَقٍ صـافٍ وَأَحـمَرَ قـاني [٣]

---

(١) ذي سلم: موضع بين مكة والمدينة. المقلة: العين. تلقاء: جهة. كاظمة وإضم: موضعان. أومض: لمع.
(٢) تحويل: تبديل. الأكارم: الكرام الأفاضل. الأنام: الناس. الطَوْل: التفضل والإنعام. الطُول: العلوّ والارتفاع.
(٣) خلع: ألبس. البان: شجر يوصف باللين والمرونة. حُللاً: جمع حُلَّة وهي الثوب الجديد. فواضلها: آثارها. الكثبان: جمع كثيب وهو التل من الرمال. الدَّوْح: جمع دوحة وهي الشجرة العظيمة ذات الفروع الممتدة. الكَفَل: عجز الإنسان أو الدابة. ذوائب: ضفائر. هام: جمع هامة وهي الرأس. ضرجت: صبغت باللون الأحمر. شقائق النعمان: ورد أحمر اللون. بُسُط: جمع بساط وهو ما يفرش على الأرض. متباين: مختلف. يقق: شديد البياض. فاقع: شديد الصفرة. قاني: شديد الحمرة.

٤ـ الغزل:

أفاض الشعراء في التغزل بالمرأة كما تغزلوا بالمذكر، ولعل معظم غزلهم كان تقليدًا للغزل في العصر العباسي؛ ربما لأن شواغل الحياة، وما ألمَّ بالعصر من نكَباتٍ وما شاع فيه من مُؤامراتٍ شغلهم عن حياتهم العاطفية.

ولعل أبرز شعراء الغزل في ذلك العصر شمس الدين محمد بن عفيف الدين التلمساني المعروف بالشاب الظريف الذي يقول في إحدى قصائده:

لا تُخْفِ مَا صَنَعَتْ بِكَ الأَشْوَاقُ ** وَاشْرَحْ هَوَاكَ فَكُلُّنَا عُشَّاقُ

قَدْ كَانَ يُخْفِي الحُبَّ لَوْلاَ دَمْعُكَ ** الجَارِي وَلَوْلا قَلْبُكَ الخَفَّاقُ

فَعَسَى يُعِينُكَ مَنْ شَكَوْتَ لَهُ الهَوَى ** فِي حَمْلِهِ فَالعَاشِقُونَ رِفَاقُ

لا تَجْزَعَنَّ فَلَسْتَ أَوَّلَ مُغْرَمٍ ** فَتَكَتْ بِهِ الوَجْنَاتُ وَالأَحْدَاقُ

وَاصْبِرْ عَلَى هَجْرِ الحَبِيبِ فَرُبَّمَا ** عَادَ الوِصَالُ وَلِلهَوَى أَخْلاقُ (١)

٥ـ الهجاء والسخرية:

لعل نزعة الفكاهة المغلفة بالسخرية المرَّة تعد من أبرز خصائص المصريين قديمًا وحديثًا؛ إذ تغلغلت في الوجدان المصري بسبب كثرة ما ألمَّ بهم من مصائب ونكبات على مرِّ التاريخ، وكثرة ما عانت الطبقة الكادحة من ظلم الحكام المترفين، وقد امتلأ الشعر في العصر المملوكي بنزعة الفكاهة والسخرية القائمة على نقد المجتمع والسخرية من الآخرين وربما من النفس، وتصوير كثير من مفارقات المجتمع، وألاعيب السياسة، وأعاجيب هيئات الجسم وما إلى ذلك، يقول صفي الدين الحلي في صديق له عظيم الأنف:

لَو غَدا أَنفُكَ العَظيمُ غَدًا وَهْـ ** ـوَ وَقودٌ لِلنارِ ذاتِ الوَقودِ

ثُمَّ قالوا: هَلِ امتَلَأتِ؟ لَقالَتْ: ** هُوَ حَسْبي وَلَم تُرِدْ مِن مَزيدِ (٢)

ويقول في السخرية من رائحة فم رجل يسمى «أبو علي»:

---

(١) الخفَّاق: المضطرب. رفاق: جمع رفيق وهو الصاحب المرافق. لا تجزعنَّ: لا تحزن. مغرم: عاشق. فتكت به: قتلته. الوجنات: جمع وجنة وهي الخد. الأحداق: جمع حدقة وهي العين.

(٢) ينظر الشاعر في معنى البيتين إلى قوله تعالى عن النار: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [سورة ق: ٣٠].

لَـوَ انَّ لِريـحِ نَكْهَتِهِ هُبوبُ ** لَأَوْشَكَتِ الجِبالُ لَها تَذوبُ
إِذا ما عابَ ضِرسُ أَبي عَلِيٍّ ** فَلَيْسَ يُطِيقُ يَقْلَعُهُ الطَبيبُ [١]

٦ـ الشكوى:

انقسم المجتمع فكان العصر المملوكي طبقتين: طبقة الأثرياء، وطبقة عامة الشعب، أما طبقة الأثرياء كان يمثلها السلاطين والأمراء والقادة والقضاة وكتاب الدواوين وكبار التجار، وهؤلاء يمتلكون جُلَّ الأرض الزراعية حيث يعمل عندهم الفلاحون كالعبيد دون مقابل إلا ما يمُنُّ به صاحبُ الأرض عليهم، كما كانوا يصادرون ما يشاءون من أموال العامة، أو يشترون ما يريدون بأبخس الأثمان. وفي المقابل كانت طبقة عامة الشعب هي التي تعاني من شظف العيش بسبب ما كثر من فتن ونزاعات، وما حاق بالأمة من نكبات نتيجة الأوبئة والزلازل، وما فرضه عليهم سلاطين المماليك من ضرائب باهظة بالإضافة إلى الإذلال النفسيّ بالتعذيب والضرب والقتل، فلا جرم أن يكتظ الشعر المملوكي بقصائد الشكوى من الحرمان، أو من المجاعات، ومن ذلك ما قاله سراج الدين الوراق شاكيًا الفقر الذي أبقى عليه ملابسه القديمة دهرًا طويلاً:

ياصاحبي جُوخَتِي الزرقاءُ تَحسبُها ** مِـنْ نسـجِ داودَ في سَرْدٍ وإتقـانِ
قلَّبْتُهـا فغَـدَتْ إذْ ذاكَ قائِلَـةً ** سُبْحانَ قلبِي بَلاَ قلبِي وأبلانِي
إنَّ النِّفـاقَ لَـشيءٌ لَسْـتُ أعرفُـهُ ** فكيـفَ يُطلَبُ منِّـي الآنَ وَجْهانِ؟ [٢]

ويقول الشاب الظريف في طاعونٍ آخر:

أَراكَ تَشُـمُّ الخَـلّ في زَمَـنِ الوَبَـا ** فَخَـلِّ حَديثًـا لِلأَطِبَّـاءِ يـا خِـلِّي
فَإِنْ يَكُ بِالطَّاعُونِ رَبُّكَ قَدْ قَضَى ** تَمـوتُ إِذاً رَغْمًا وأَنْفُـكَ فِي الخَلِّ [٣]

٧ـ الرثاء: قد فطرت النفس الإنسانية على الحزن على فقد الأهل والأحباب، فليس عجيبًا أن ترى الشعراء يرثون حاكمًا مات، أو عزيزًا رحل، أو بلدة دمِّرت، وليس بدعًا أن تراهم ينادون القبور، ويستمطرون على أهلها الرحمات.

---

(١) النكهة: رائحة الفم. هبوب: مصدر هبت الريح تهب هبوبًا إذا تحركت وثارت. يطيق: يتحمل.
(٢) الجوخة: نسيج من الصوف الغليظ. السَّرْد: نسج حلقات الدرع. داود: نبي الله الذي أمره ربه أن يحكم صناعة الدروع فقال: ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾. كلمة قلبي في البيت الثاني الأولى مصدر قلب الشيء قلبًا، والثانية القلب وهو ما بداخل الشيء.
(٣) الوبا: مقصور الوباء يعني الطاعون. خَلِّ: اترك، خِلِّي: صديقي. رغمًا: مُجْبرًا.

وغرض الرثاء من أبعد أغراض الشعر عن التكلف والنفاق، فلا جرم أن تشعر في أبيات الرثاء بصدق العاطفة والتهاب الشعور، وبخاصة عند رثاء ولد أو عزيز، وخير من يمثل لنا هذا الاتجاه «ابن نباتة المصري» الذي ذكر المؤرخون أنَّه دفن قريبًا من ستة عشر ولدًا من أولاده كلهم إذا ترعرع وبلغ خمسًا أو ستًّا أو سبعًا يتوفاه الله، وقد رثى هؤلاء الأبناء بكثير من القصائد والمقطوعات الدامعة، ومن روائع هذه المراثي رائيته الذائعة:

اللهُ جَـارُكَ إنَّ دَمْعِـيَ جَـارِي ❊ يـا مُوحِـشَ الأوْطـانِ والأوْطـارِ

لَمَّـا سَـكَنْتَ مِـنَ الـتُّرابِ حَدِيقةً ❊ فاضَـتْ علَيْـكَ العَـيْنُ بالأنْهـارِ

شَـتَّانَ ما حَـالي وحالُـكَ أنْتَ فِي ❊ غُـرَفِ الجِنَـانِ ومُهْجَتِـي فِي النَّارِ

خَفَّ النَّجا بِكَ يا بُنَيَّ إلى السُّرَى ❊ فَسَـبقْتَنِي وَثَقُلْـتُ بـالأوْزارِ

لَيْتَ الرَّدَى إذْ لَمْ يَدَعْكَ أَهَابَ بِي ❊ حَتَّـى نَـدُومَ مَعًـا عَـلَى مِضْـمَارِ [١]

وهي قصيدة طويلة تبلغ سبعة وخمسين بيتًا، وهي من روائع شعره الذي تحدث فيه الشاعر عن قلبه دون حجاب.

ثالثًا
أهم خصائص الشعر في العصر المملوكي

أولاً: من حيث الأغراض:

❊ كتب شعراء العصر المملوكي في الأغراض السابقة كافة من مدح ورثاء وهجاء ووصف وغزل، وتفوقوا في أدب المدائح النبوية الذي بلغ ذروته في ذلك العصر، بل تولد عنه فن جديد تمامًا في أدبنا العربي هو فن «البديعيات» وهي قصائد طويلة في مدح النبي ﷺ يتضمَّن كلُّ بيت من أبياتها نوعًا من أنواع البديع، يكون هذا البيت شاهدًا عليه، وفي الغالب يورِّي باسم النوع البديعيّ في البيت نفسه، على نحو ما نرى في مطلع بديعيَّة صفيِّ الدين الحليّ، وهي من أوائل البديعيَّات إن لم تكن أولها:

إن جِئتَ سَلعًا فَسَل عَن جيرَةِ العَلَمِ ❊ وَاقرَ السَـلامَ عَلى عُرْبٍ بِذي سَلَمِ

فَقَد ضَمِنتُ وُجودَ الدَّمعِ مِن عَدَمٍ ❊ لَهُم وَلَم أَستَطِعْ مَعْ ذاكَ مَنْعَ دَمي [٢]

---

(١) موحش: خالي. الأوطار: جمع وطر وهو الحاجة. المهجة: الروح والفؤاد. النجا: مقصور النجاء وهو سرعة الرحيل. السُّرى: السير ليلاً. الأوزار: جمع وزر وهو الحمل الثقيل. الردى: الموت. أهاب بي: دعاني. المضمار: طريق السباق.

(٢) سلع: جبل بالمدينة المنورة يقع إلى الغرب من المسجد النبوي الشريف. جيرة: جيران. العلم، ذي سلم: جبلان بالحجاز، اقرَ: مخفف اقرأ.

* لم يترك الأدب صغيرة ولا كبيرة من ظواهر المجتمع في العصر المملوكي إلا سجلها، وخير دليل على ذلك ازدهار فن «خيال الظلّ» في العصر المملوكي ازدهارًا كبيرًا، وفيه تقدم على المسرح دمى مصنوعة من الجلد، يحركها اللاعبون من وراء ستارة بيضاء بواسطة عصيٍّ خشبية، وكانت تعرض في مسارح مخصصة وفي المقاهي والأماكن العامة، وغالبًا ما تكون في حفلات الزواج والختان وغيرها من المناسبات الاجتماعية، وقد بلغ هذا الفن أوج ازدهاره على يد «ابن دانيال الموصلي» الذي فرَّ من العراق بسبب الهجمة التترية الوحشية على بلاد الرافدين.

ثانيًا: من حيث الألفاظ والأساليب:

* سهولة الألفاظ ووضوح المعاني، حتى إنَّ بعض الشعراء انحرف عن اللغة الفصحى العالية إلى التعبيرات العامية المبتذلة، من ذلك قول ابن الوردي:

وتاجرٍ شاهدتُ عُشَّاقَهُ ** والحربُ فيما بينهمْ سَائِرُ

قُلْتُ: علامَ اقْتَتَلُوا هَكَذا ** قال: «عَلَى عَيْنِكَ يا تَاجِرُ»

والتعبير «على عينك يا تاجر» ما زال شائعًا على ألسنة المصريين إلى يومنا هذا.

* الإسراف في حشد فنون البديع من طباق وجناس وسجع ومقابلة، وغيرها من الزخارف اللفظية، وأكثر الفنون البديعية انتشارًا في ذلك العصر فن «التورية»، وقد ألف صلاح الدين الصفدي كتابًا سمّاه « فض الختام عن التورية والاستخدام»، وفي التورية يستعمل الشاعر كلمة ذات معنيين أحدهما قريب غير مقصود، والثاني بعيد مقصود، كقول ناصر الدين بن النقيب:

أقولُ وقدْ شَنُّوا إلى الحرْبِ غارةً ** دَعُونِي فَإِنِّي آكلُ العَيْشَ بالجُبْنِ

فكلمة (الجبن) لها معنيان: أولهما قريب غير مقصود وهو الطعام المعروف المصنوع من اللبن، والثاني بعيد مقصود وهو مضاد الشجاعة.

كما شاعت الألغاز والأحاجي، كقول النابلسي مُلْغزًا في «السراج»:

مـا اسـمٌ تَـرَاهُ في النَّهـا ** رِ كَاسِـدًا إِذْ لا احْتِيـاجْ؟

وإِنْ طَرَحْـتَ الرُّبْعَ مِنْـ ** ـهُ فِي الدُّجَى تَلْقَاهُ «رَاجْ»

فنحن لا نحتاج إلى السراج في النهار فكأنَّه بضاعة كاسدة، ولو أزلنا الحرف الأول من حروفه الأربعة نكون في حاجة إليه ليلاً، فكأنَّه بضاعة رائجة.

ناهيك عن تحويل القصيدة إلى مثلثات ومربعات، وابتداع فنون هندسية لا علاقة لها بروح الشعر مثل قراءة القصيدة أفقيًا ورأسيًا، وقراءة البيت من الجهتين فيما يعرف بفن «ما لا يستحيل بالانعكاس»، تقليدًا لقول الشاعر «ناصح الدين الأرجاني» (ت٥٤٤هـ) من شعراء العصر العباسي الرابع:

مَوَدَّتُـهُ تـدومُ لِـكُلِّ هَوْلٍ ❊ وَهَـلْ كُلٌّ مَوَدَّتُـهُ تَدُومُ؟

ثالثًا: من حيث الصور والأخيلة:

❊ انطفأت جذوة العاطفة في الشعر المملوكي وبخاصة في العصر المملوكي الثاني، بسبب فتور الحمية للشعر، حيث هدأت العصبيات التي كانت وقودًا للشعر في العصرين الجاهلي والأموي، ناهيك عن قلة عطاء الأمراء للشعراء بالمقارنة مع العصر العباسي.

❊ مال معظم الشعراء إلى تقليد القدماء، وإعادة إنتاج الصور القديمة في ثوب جديد، وقد أدى هذا إلى كثرة الاقتباس من القرآن الكريم والسنة النبوية، وتضمين الأشعار القديمة، من ذلك قول ابن نُباتة المصري:

أَهْلاً وسَـهْلاً بِكَ مِـنْ قَادمٍ ❊ أَطْلَعَ أُنْسِي بَعْدَ طُولِ المَغِيبْ

وَكُنْـتُ مَخْذُولاً فقـال: الهَنَا ❊ «نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبْ»

رابعًا: من حيث الموسيقى:

❊ شاعت في العصر المملوكي فنون المعارضة والتشطير[1] والتخميس[2] والنظم على الأوزان الشعبية مثل: الموشحات والأزجال والدوبيت وغيرها، وليس أدل على ذلك من عشرات الشعراء الذين قاموا بتشطير بردة البوصيري وتخميسها وغيرها من القصائد المشهورة، من ذلك قول «صفيِّ الدين الحليّ» في تشطير معلقة امرئ القيس:

رَأى فَرَسي إِسطَبْلَ موسى فَقالَ لي: ❊ «قِفا نَبْكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ وَمَنْزِلِ»

بِـهِ لَمْ أَذُقْ طَعْـمَ الشَّـعيرِ كَأَنَّنـي ❊ «بِسِقْطِ اللِّوى بَيْنَ الدُخولِ فَحومَلِ»[3]

---

(١) التشطير: أن يعمد الشاعر إلى أبيات مشهورة لغيره فيقسم أبياتها إلى شطرين، ويضيف إلى كل منها شطرًا من عنده، مراعيًا تناسب اللفظ والمعنى بين الأصل والفرع.

(٢) التخميس: هو أن يأخذ الشاعر بيتًا لسواه، فيجعل صدره بعد ثلاثة أشطر ملائمة له في الوزن والقافية (أي يجعله عجز بيت ثانٍ)، ثم يأتي بعجز ذلك البيت بعد البيتين فيحصل على خمسة أشطر..

(٣) الإسطبل: حظيرة الخيل، أو مأوى الحيوانات عمومًا، وهي كلمة معرَّبة. وعجز البيتين هو مطلع معلقة امرئ القيس:

قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ وَمَنزِلِ ❊ بِسِقطِ اللِّوى بَينَ الدَخولِ فَحَومَلِ

تدريبات

السؤال الأول: أجب عن الأسئلة الآتية:

١ـ اذكر أبرز خصائص الشعر في العصر المملوكيّ من حيث الألفاظ والأساليب.

٢ـ ازدهر فن «المدائح النبوية» في العصر المملوكيّ ازدهارًا لم يسبق له مثيل. اشرح ذلك داعمًا إجابتك بالشاهد.

٣ـ صور الشعراء في العصر المملوكيّ المعارك الحربية الكبرى خير تصوير. اشرح ذلك مع الاستشهاد.

السؤال الثاني: علِّلْ لما يأتي:

١ـ ضعف الأدب في العراق بعد سقوط بغداد في يد التتار.

٢ـ ازدهار الأدب في مصر والشام في العصر المملوكيّ.

٣ـ انطفاء جذوة العاطفة في أغلب الشعر المملوكي.

٤ـ كثرة شعر الشكوى في العصر المملوكيّ.

٥ـ انصراف الشعراء عن الشعر في العصر المملوكيّ للعمل في مهن أخرى.

السؤال الثالث: اختر الإجابة الصحيحة من البدائل المطروحة بين القوسين:

١ـ ازدهر فن «خيال الظل» على يد (زرياب ـ ابن دانيال الموصلي ـ اليعقوبي).

٢ـ الفن البديعي في قول الشاعر:

مَوَدَّتُهُ تدومُ لِكُلِّ هَوْلٍ ** وَهَلْ كُلٌّ مَوَدَّتُهُ تَدُومُ؟

هو: (التورية ـ المقابلة ـ ما لا يستحيل بالانعكاس).

٣ـ استخدام جملة من القرآن الكريم في الشعر يسمى (اقتباس ـ معارضة ـ تحلية).

السؤال الرابع: ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (×) أمام العبارة غير الصحيحة فيما يأتي:

١ـ التورية: لفظ له معنيان، أحدهما قريب غير مقصود، والثاني بعيد مقصود. ( )

٢ـ اشتهر «ابن نباتة» بالرثاء؛ لكثرة وفاة أولاده. ( )

٣ـ أصبحت اللغة الرسمية في مصر هي اللغة التركية في العصر المملوكيّ. ( )

٤ـ يعتبر «الشاب الظريف» من أبرز شعراء الغزل في العصر المملوكي. ( )

السؤال الخامس: أكمل مكان النقط في الجمل الآتية:

١ـ من الأوزان الشعبية في الشعر المملوكي .....،........ ، ....،......

٢ـ انتصر الملك .... على الصليبيين في معركة عكا.

٣ـ من أشهر شعراء الشكوى في العصر المملوكي .... ، ....

٤ـ البديعيات هي: ....

❊ ❊ ❊

الدرس الحادي عشر

ترجمة موجزة لثلاثة من شعراء العصر المملوكيّ

أهداف الدرس:

بنهاية الدرس يتوقع أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يحدد أهم العوامل التى أثرت في اتجاه البوصيري إلى المديح النبوي.

٢ـ يذكر أهم فنون الشعر التى برع فيها ابن نُباتة المصري مع ضرب الأمثلة على ذلك.

٣ـ يوازن بين كل من البوصيري، وابن الوردي من حيث أغراض الشعر التى برع فيها كل منهما، والعوامل التي أثرت في ذلك .

٤ـ يميز الأبرع شعريًّا من بين الشعراء (البوصيري، ابن نُباتة، ابن الوردي)مع ذكر الأسباب.

١ـ البوصيري:

هو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري، ولد في «بوصير» وقيل في قرية أمه «دلاص» من أعمال بني سويف عام ٦٠٨هـ لأسرة ترجع جذورها إلى قبيلة صنهاجة إحدى أكبر القبائل الأمازيغية، المنتشرة في شمال إفريقيا، حفظ القرآن الكريم في قريته، ثم انتقل بعد ذلك إلى القاهرة كي يتلقى علوم العربية والأدب، فتتلمذ على عدد من أعلام عصره منهم: أبو حيان الأندلسي، وابن سيد الناس، وعُني بقراءة السيرة النبوية، كتب البوصيري الشعر في شتى الأغراض، ونقد كثيرًا من مظاهر الفساد في عصره، حيث يقول في موظفي الدولة المرتشين في عصره:

ثَكِلْتُ طوائِفَ المُسْتَخْدَمِينا ** فَلَمْ أَرَ فِيهِمُ رَجُلاً أَمِينا

فَخُذْ أَخْبَارَهُمْ مِنِّي شِفاهًا ** وَأَنْظِرْني لأُخبِرَكَ اليَقِينا

فَقَدْ عَاشَرْتُهُمْ وَلَبِثْتُ فِيهمْ ** مَعَ التَّجْرِيبِ مِنْ عُمْرِي سِنِينا [١]

(١) ثكلت: فقدت، وفي رواية نقدت. المستخدمين: موظفي الدولة الذين يجمعون الضرائب ونحوها. شفاهًا: مباشرة من فمي. أنظرني: أمهلني. لبثت فيهم: مكثت معهم.

وله لامية في الرد على اليهود والنصارى اسمها: المخرج والمردود على النصارى واليهود، لكنه اشتهر بمدائحه للرسول ﷺ، وأشهر قصائده في هذا الغرض قصيدته «الكواكب الدرية في مدح خير البرية» المعروفة بالبردة، والتي تعد من عيون المدائح النبوية، حيث طارت شهرتها في الآفاق، وأقبل الشعراء على تشطيرها وتخميسها ومعارضتها، ومما جاء فيها:

مُحمَّدٌ سيدُ الكونينِ والثقلَيْنِ ❊ والفريقينِ مِن عُرْبٍ ومِن عَجَمِ

نَبيُّنَا الآمِرُ النَّاهِي فلا أَحَدٌ ❊ أَبَرُّ في قَولِ (لا) مِنْه ولا (نَعَمِ)

هُو الحبيبُ الذي تُرجَى شفاعَتُهُ ❊ لكُلِّ هَوْلٍ مِن الأهوالِ مُقتَحَمِ

دَعَا إلى اللهِ فالمُستَمسِكُون بِهِ ❊ مُستَمسِكُونَ بِحبلٍ غيرِ مُنفَصِمِ

فاقَ النَّبيينَ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ ❊ ولم يُدَانُوهُ في عِلْمٍ ولا كَرَمِ

وكُلُّهُم مِن رسولِ اللهِ مُلتَمِسٌ ❊ غَرْفًا مِنَ البحرِ أو رَشْفًا مِنَ الدِّيَمِ [١]

تُوفِّي البوصيري بالإسكندرية سنة ٦٩٥هـ.

٢ـ ابن نُباتة المصري:

هو جمال الدين أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي الفارقي المصري، ولد في ربيع الأول عام ٦٨٦هـ، في زقاق القناديل بالقاهرة، في عهد السلطان المنصور قلاوون، وقد أخذ العلم عن عدد من علماء عصره منهم: والده شمس الدين بن نباتة المحدث، والعلامة المحدث ابن دقيق العيد، والشاعر سراج الدين الوراق، والكاتب البليغ محيي الدين محمد بن عبد الظاهر وغيرهم.

رحل ابن نُباتة عن مصر بسبب معاناته من الفقر، فذهب إلى دمشق، ثم رحل إلى حماة ليعيش في ظل الملك «المؤيَّد» الذي كان عالمًا مقرِّبًا للعلماء والأدباء، وقد مدحه بأربعين قصيدة تعرف بالمؤيَّديات، ثم عاش في ظل ولده الملك الأفضل، ولما انتهي ملك هذه الأسرة الأيوبية في حلب رحل ابن نباتة إلى دمشق، ثم عاد إلى مصر ليعيش في كنف السلطان حسن ابن محمد الناصر بن قلاوون، الذي أكرمه، ولما تقدمت به السن طلب الإعفاء من العمل في بلاط السلطان فأعفاه، وأجرى عليه راتبه، حتى توفي في السابع من صفر عام ٧٦٨هـ.

---

(١) مُقْتَحَم: مدخول فيه، يقال اقتحم الأَمر الْعَظِيم: رمى بِنَفسِهِ فِيهِ بِغَيْر رويَّة. منفصم: منقطع. يدانوه: يقاربوه. الرشْف: مصُّ الماء بالشفتين. الديم: جمع ديمة وهو المطر الذي يدوم وقتًا طويلاً في سكون أي غير مصحوب برعد أو برق.

ترك ابن نباتة تراثًا ضخمًا يتضمن ديوانه، وكتبًا عديدة منها: سَجْعُ المطوَّق، مطلع الفوائد ومجمع الفرائد، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، وهو شرح للرسالة الهزلية التي يسخر فيها من ابن عبدوس، وغيرها.

من رائع شعر ابن نباتة قوله في مدح السلطان حسن:

العيـدُ أنْـتَ وَهَـذا عيدُنـا الثاني ❊ ما لِلْهَنا عنْ قلوبِ الخلْقِ منْ ثَانِي

يا ناصرَ الدِّينِ والدُّنيا لقدْ نَفَذَتْ ❊ أقلامُ مدحِكَ في الدُّنيا بِسُلْطانِ

دَانَتْ لكَ الخلقُ مِنْ بَدْوٍ ومِنْ حَضَرٍ ❊ وَفَاضَ جودُكَ في قَاصٍ وفي دَانِي

هَذِي المدائنُ مِنْ أقْصَى مَشَارِقِها ❊ لِمُنْتَهَـى الغَرْبِ في طَـوْعٍ وَإذْعَانِ

كأنَّ جُـودَكَ قَـدْ قَالَـتْ سَـوابِقُهُ ❊ الأرضُ ظِلِّي وكُلُّ النَّاسِ ضِيفَانِي [١]

٣ـ ابن الوردي:

هو زين الدين أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر الوردي الشافعي، ولد في معرة النعمان غرب حلب عام ٦٩١هـ، أخذ عن خيرة علماء عصره منهم: شرف الدين البارزي وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهما، تولى قضاء حلب ثم قضاء منبج، ترك ابن الوردي عددًا كبيرًا من المصنفات في علوم مختلفة منها: نظم البهجة الوردية في الفقه، شرح ألفية ابن مالك، ضوء الدرة على ألفية ابن معطي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تتمة المختصر في أخبار البشر، وهو تلخيص لكتاب «المختصر في أخبار البشر للملك المؤيد أبي الفداء إسماعيل بن علي صاحب حلب، بالإضافة إلى ديوان شعره، وعدد من المقامات منها مقامة في الطاعون العام، ومقامة الصوفية، المقامة الدمشقية المسماة «صفوة الرحيق في وصف الحريق» أي حريق دمشق.

توفي ابن الوردي في السابع عشر من ذي الحجة عام ٧٤٩هـ بمرض الطاعون الذي نزل بحلب في تلك السنة بعد أن عمل فيه مقامة سماها «النبا عن الوبا».

تنسب إلى ابن الوردي القصيدة المعروفة بلامية ابن الوردي عرض الأخلاق والحكم، والتي يقول فيها:

اعْتَزِلْ ذِكْرَ الأغَانِي وَالغزَلْ ❊ وقُلِ الفَصْلَ وجانِبْ مَنْ هَزَلْ

ودَعِ الذِّكْـرَى لأَيَّـامِ الصِّبـا ❊ فلأَيَّـامِ الصِّبـا نَجْـمٌ أفَـلْ

---

(١) الهنا: مقصور الهناء وهو الفرح والسرور. ثاني (في آخر البيت الأول): صارف، يقال: ثناه عن الأمر إذا صرفه عنه. دانت: خضعت. قاصٍ: بعيد، ومضادها: دانٍ. إذعان: خضوع. ضيفان: جمع ضيف.

تدريبات

السؤال الأول: أجب عن الأسئلة الآتية:

١ـ اكتب مقالاً موجزًا عن حياة البوصيري موضحًا أبرز أغراض شعره.

٢ـ كانت مصر والشام دولة واحدة في زمن المماليك، وكان الأدباء يتنقلون بحرية بين دمشق والقاهرة. اشرح ذلك مطبقًا على ابن نباتة المصري.

٣ـ جمع ابن الوردي بين علم الفقه وعلم النحو والشعر والنثر. اشرح ذلك من خلال أسماء مؤلفاته.

السؤال الثاني: علِّلْ لما يأتي:

١ـ انتقال البوصيري من بني سويف إلى القاهرة.

٢ـ رحيل ابن نباتة عن القاهرة إلى دمشق.

٣ـ تسمية مجموعة من قصائد ابن نباتة بالمؤيَّديات.

السؤال الثالث: اختر الإجابة الصحيحة من البدائل المطروحة بين القوسين:

١ـ توفي ابن الوردي (شهيدًا في المعركة ـ مقتولاً في ثأر ـ بالطاعون).

٢ـ طلب ابن نباتة الإعفاء من العمل في بلاط السلطان حسن بسبب

(تقدمه في السن ـ بغضه للسلطان ـ منافسة كتاب آخرين له).

٣ـ يرجع نسب البوصيري إلى أصول (عربية ـ أمازيغية ـ فارسية).

السؤال الرابع: ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (×) أمام العبارة غير الصحيحة فيما يأتي:

١ـ كان شيخ الإسلام ابن تيمية من شيوخ ابن الوردي. ( )

٢ـ اقتصر شعر البوصيري على مدح الرسول ﷺ. ( )

٣ـ شرح ابن نباتة الرسالة الجدية لابن زيدون. ( )

السؤال الخامس: أكمل مكان النقط في الجمل الآتية:

١ـ من شيوخ ابن نباتة .... ، .... ، ....

٢ـ كتب البوصيري لامية في الرد على اليهود والنصارى اسمها: ....

٣ـ من مقامات ابن الوردي .... ، .... ، ....

❋ ❋ ❋

الدرس الثاني عشر

النثر في العصر المملوكي

أهداف الدرس:

بنهاية الدرس يتوقع أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يذكر الدور الذي قام به ديوان الإنشاء في نهضة النثر في العصر المملوكي.

٢ـ يحدد أهم عوامل ازدهار النثر في أوائل العصر المملوكي.

٣ـ يحدد أسباب انحدار مكانة ديوان الإنشاء في أواخر العصر المملوكي.

٤ـ يذكر أسباب ضعف الخطابة في العصر المملوكي.

٥ـ يكتب ترجمة موجزة لصلاح الدين الصفدي.

٦ـ يُعدِّد أهم المجالات التي برع فيها الصفدي.

نستطيع أن نقول: إنَّ النثر الأدبي ازدهر في أوائل العصر المملوكي واتسع نطاقه، وكاد يسبق الشعر لعدة أسباب:

١ـ تعاظم مكانة ديوان الإنشاء؛ فقد أنشئ هذا الديوان في زمن الدولة الطولونية في مصر، وبقي حتى زمن المماليك، لكنَّ مكانته ازدادت، حيث كانوا يختارون لهذه المهمة الخطيرة كاتبًا مبرزًا في الأدب وسائر العلوم، وسموا القائم على الكتابة فيه «كاتب السر»، وكان عالمًا بكل أسرار الدولة، ويستشار في الأمور كافة، وينوب عن السلطان في التوقيع أحيانًا، ويشارك في اختيار أصحاب الوظائف المختلفة.

٢ـ التنافس بين الأدباء للوصول إلى هذا المنصب الرفيع (منصب كاتب السرّ)، لضمان راتب جزيل، ومنزلة اجتماعية سامية، وقد وضع أبو العباس القلقشندي موسوعته «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» ليكون منارة لناشئة الأدباء الراغبين في هذه المكانة العالية.

٣ـ حفل العصر المملوكي بعدد كبير من الأدباء المبرزين في فنون النثر، بل شارك كثير من الشعراء كابن الوردي وابن نباتة والصفدي وغيرهم في الكتابة النثرية.

٤ـ ظهور أسر متميزة في فن الكتابة مثل أسرة بني عبد الظاهر، وبني الأثير، وبني فضل الله العمري.

* وفي نهاية العصر المملوكي بدأت تخمد جذوة ديوان الإنشاء، بسبب ضعف الملكات، وانحدار المكانة السياسية والأدبية لكاتب السرِّ، فتولى أمر الديوان كتَّابٌ ليس عندهم موهبة الكتابة المتدفقة، فغلبت المحسنات البديعية على نتاجهم؛ مما أدَّى إلى نزول النثر الفني عن المكانة العالية التي تبوأها في صدر ذلك العصر.

من فنون النثر في العصر المملوكي

١ـ فن الخطابة

اقتصرت الخطابة في العصر المملوكي على الخطابة الدينية، وبعض المناسبات الاجتماعية من زواج وختان وافتتاح مدرسة وتولي القضاء، حيث فقدت الخطابة وقود الصراع السياسي الذي عمل على ازدهارها في العصر الأموي، والصراع العقدي والمذهبي الذي ملأ الساحة في صدر العصر العباسي، كما أن سلاطين المماليك لم تكن لهم قدرات متميزة في فن الخطابة لأنَّهم يرجعون إلى أصول غير عربية.

وقد احتفظت الخطابة في العصر المملوكي بهيكلها الخارجي مثل البدء بحمد الله، ثم الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، ثم الانتقال إلى موضوع الخطبة، والاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، لكن الخطباء أسرفوا في تحلية الخطبة بفنون البديع من جناس وطباق ومقابلة واقتباس وتضمين.

* من نماذج الخطابة في العصر المملوكي خطبة زين الدين ابن الوردي الذي تقدمت ترجمته في الشعراء ـ في حفل زواج أحد شباب بني النصيبي من ابنة عمه: «الحمدُ لله الذي أطْلَعَ في منازلِ الشَّرَفِ شَمْسًا مَصُونَةَ البهاءِ والضياءِ، وأبْدَعَ لِشَرَفِ تاجِهِ البديعِ دُرَّةً مَكْنُونَةً في بحر الحَيَا والحياءِ، ومَنَحَهُ عِقْدًا زانَ به جِيدَ الوجودِ، وجَمَعَ الشمسَ والقمرَ في سُعودِ الطَّالِعِ وطالِعِ السُّعودِ.

وبعد، فإنَّ أولى ما بادر إليه أولو الأحْلامِ، وتنافَسَ فيه كِرامُ الأبناءِ وأبناءُ الكِرامِ، ما كانَ لتكْثيرِ الأمَّةِ مُتَضَمِّنًا، ولِفَضِيلةِ العاجِلِ والآجِلِ نافعًا نَفْعًا بَيِّنًا، وهي سنَّةُ النِّكاحِ التي عَظُمَتْ بِها المِنَّةُ، وأثْنَى عليها لسانُ الكِتابِ وأشارَتْ إليها يدُ السُّنَّةِ، وخصوصًا بناتُ العَمِّ التي أرشَدَتْ قصةُ «البتولِ» عليها

السلام إليها، وحَسُنَ أنْ يُتْلَى لها بطريقِ الأَوْلَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ فإنَّ بناتِ العمِّ أجْدَى بالصُّحْبَةِ وأجْدَرُ، وأوفى بالمودَّةِ وأوْفَرُ، وأصْبَى إلى العَهْدِ وأصْبَرُ، ولا سيَّما مَنْ حَازَتْ كَرَمَ الأوائلِ والأواخرِ، وَجَمَعَتْ عناصِرَ الكَرَمِ وكَرَمَ العَناصِرِ، وأصْبَحَتْ سَليلةَ الأعْيانِ والأكابِرِ...الخ»[١].

وواضح أن الخطبة قائمة على حشد المحسنات البديعية من سجع وجناس وطباق ومقابلة وغيرها؛ مما يجعلها رَتِيبةً مُمِلَّةً، وكان هذا دأب جُلِّ الخطباء في العصر المملوكي إلا ما ندر من خطابة قوية إصلاحية تقوم على نقد الحكام ومقارعة الظالمين، على نحو ما كان يقوم به سلطان العلماء «العزّ بن عبد السلام»، وشيخ الإسلام «ابن تيميَّة» رحمهما الله تعالى.

٢ـ فن الكتابة

تنوعت فنون الكتابة في العصر المملوكي ما بين كتابة ديوانية يقوم بها العاملون في ديوان الإنشاء، وإخوانية يقوم بها جل الأدباء في مراسلاتهم مع أصدقائهم للتهنئة أو التعزية أو العتاب أو غير ذلك، وكتابة دينية تتمثل في النصائح والمواعظ والوصايا والحكم، بالإضافة إلى التوقيعات والمقامات والرسائل الوصفية والإجازات والتقاليد، ناهيك عن الكتابة العلمية التي أثرى فيها العلماء حركة التأليف بموسوعات في شتى المجالات.

وسنختار للتمثيل ثلاثة من هذه المجالات هي: الرسائل الديوانية والإخوانية والمواعظ الدينية:

* فأما الرسائل الديوانية، فقد عمل ديوان الإنشاء على ازدهارها، وأثرى كتاب الإنشاء الحياة الأدبية بكثير من المؤلفات التي قام بها رجال وقفوا حياتهم على الكتابة بلسان السلاطين بما يوجهونه إلى نظرائهم من الملوك سواء كانوا من الأصدقاء أو الأعداء، تهديدًا ووعيدًا، أو تهنئة وبشارة بالفتح أو تحريضًا للأمة وتحميسًا للجند وتثبيتًا للمقاتلين... الخ.

* من نماذج الرسائل الديوانية في العصر المملوكي ما كتبه «شهاب الدين محمود» (وستأتي ترجمته) على لسان الملك المنصور «قلاوون» إلى نوابه ومقدَّمِي جيوشه: «أصدرناها إليه نحثُّه على الركوبِ بطليعةٍ أعْجَلَ من السَّيْلِ، وأهْولَ من الليْلِ، وأيْمَنَ منْ نَواصِي الخَيْلِ، وليَكُنْ كالنَّجْمِ في سُرَاهُ وبُعْدِ

---

(١) مصونة: محفوظة. درَّة: جوهرة. مكنونة: مستورة عن الأعين. الحيا: الخصب والمطر. البهاء: الحسن والجمال. جِيد: عُنُق. الأحلام: العقول. متضمِّنًا: مشتملاً. بيِّنًا: واضحًا. أصبى: أكثر ميلاً وحنانًا. سليلة: ابنة.

ذَرَاهُ، إنْ جَرَى فَكَسَهْمٍ، وإنْ خَطَرَ فَكَوَهْمٍ، وإنْ طَلَبَ فَكَاللَّيْلِ الذي هو مُدْرِكٌ، وإنْ طُلِبَ فكالجَنَّةِ التي لا يَجِدُ رِيحَها مُشْرِكٌ، حتَّى يأتِي على عَدُوِّ الدِّينِ مِنْ كُلِّ شَرَفٍ، ويَرَى جَمْعَهُمْ مِنْ كُلِّ طَرَفٍ، ولا يُسْرِفَ فِي الإقامَةِ عليْهِ إلاَّ إذَا عَلِمَ أنَّ الخَيْرَ فِي السَّرَفِ»⁽¹⁾.

وواضح أنَّ شهاب الدين محمود متمسك إلى أبعد مدى بالطريقة الفاضليَّة⁽²⁾ التي تقوم على الإيجاز والجزالة وقصر الجمل مع المحافظة على السجع وغيره من فنون البديع، وتلك سمة عامة في نثر ذلك العصر.

* وأما الرسائل الإخوانية، فقد ازدهرت كثيرًا في ذلك العصر، حيث كانت المطارحات والمراسلات بين الأدباء حول المعاني كافة عظيمها وحقيرها من السمات البارزة في أدب ذلك العصر، حتى ألفت كتب كاملة تحمل الرسائل المتبادلة بين الأدباء مثل كتاب «سجع المطوَّق» لابن نباتة، وكتاب «ألحان السواجع بين البادي والمراجع» لصلاح الدين الصفدي.

ولن يعدم الناظر في أدب ذلك العصر مئات النماذج لكل موضوع من موضوعات الرسائل الإخوانية من تهنئة وتعزية وعتاب وشكوى واستعطاف وغيرها.

* من نماذج الرسائل الإخوانية في العصر المملوكي ما كتبه «شهاب الدين محمود» لأحد أصدقائه مُعَزِّيًا له في وفاة ولده جاء فيها: «رَزَقَهُ الله تعالى ثَبَاتًا على رَزِيَّتِه وصَبْرًا، وجَعَلَ لهُ مع كُلِّ عُسْرٍ يُسْرًا، وأبقاه مُفَدًّى بالأَنْفُسِ والنَّفَائِسِ، وكانَ لهُ أعظَمَ حافظٍ مِنْ نُوَبِ الدَّهْرِ وأَجَلَّ حَارِسٍ.

المَمْلوكُ⁽³⁾ يُنْهِي عِلْمَهُ بهذهِ النَّازِلَةِ التي فتَّتَتِ القلوبَ والأكبادَ، وكادتْ أنْ تُفَرِّقَ بين الأرواحِ والأجْسادِ، وأذالتْ ذَخائرَ العُيونِ، وابْتَذَلَتْ منَ المَدامِعِ كُلَّ مَصُونٍ، وأذَابَتِ المُهَجَ تَحَرُّقًا وتَلَهُّبًا، وَجَعَلَتْ كُلَّ قلبٍ في نَارَيِ الأَسَى والأَسَفِ مُتَقَلِّبًا، وهِيَ وفاةُ ولدِهِ الذي صَغُرَ سِنُّهُ، وتَزايدَ لِفَقْدِهِ هَمُّ المَمْلُوكِ وَحُزْنُهُ:

وَنَـــجْلُكَ لا يُبْكَى عَلَى قَدْرِ سِنِّهِ ** وَلَكِنْ على قَدْرِ الـمَخِيلَةِ وَالأَصْلِ⁽⁴⁾

---

(١) نحثُّه: نأمره. الطليعة: مقدمة الجيش. أعجل: أسرع. أهول: أخوف. أيمن: أسعد. نواصي: جمع ناصية وهي الشعر في مقدم الرأس. السُّرى: السير ليلاً. ذراه: قمته. فَكَسَهْم: أي يشبه السهم في سرعة الانطلاق. فَكَوَهْمٍ: يشبه الخيال المتوهم في حضوره على الخاطر. مدرك: يصل إلى كل مكان. شرف: مكان عالٍ. السرف: مجاوزة الحد.

(٢) تنسب إلى القاضي الفاضل (عبد الرحيم بن علي بن محمد اللخمي ت٥٩٦هـ)، كاتب صلاح الدين الأيوبي، وكان من أمهر الكتاب وأنبههم ذكرًا.

(٣) المملوك: الخادم، ويعني نفسه.

(٤) الرزيَّة: المصيبة. مفدًّى: يفتديه الناس. النفائس: الأشياء الثمينة. نُوَب: جمع نائبة وهي المصيبة. أجلّ: أعظم. النازلة: المصيبة. أذالت: أهانت. ذخائر: جمع ذخيرة وهي الشيء النفيس المدَّخر. ابتذلت: أهانت. المدامع: جمع مدمع وهو مكان الدمع (العين).=

* **وأما المواعظ الدينية**، فقد حفل العصر المملوكي بجماعة من الوعَّاظ والمصلحين، الذين أسْدَوا نصائحهم للعامَّة والخاصَّة لا يخافون في الله لومة لائم، على رأس هؤلاء سلطان العلماء «العز بن عبد السلام» الذي كانت له مواقف مشهودة في مواجهة السلاطين، ومنهم أيضًا القاضي «محيي الدين النووي»، والقاضي «تقي الدين ابن دقيق العيد»، وشيخ الإسلام «تقي الدين بن تيمية»، وتلميذه الإمام «شمس الدين بن القيم»، والإمام «تاج الدين السبكي»، والإمام «بدر الدين ابن جماعة»... وغيرهم ممن سجَّل التاريخ أسماءهم بحروف من نور.

وأشهر مؤلفات الحِكَم والمواعظ في العصر المملوكي، حكم «ابن عطاء الله السكندري»، فقد بلغت شهرتها الآفاق، وشرحها عدد كبير من العلماء، وترجمت إلى كثير من لغات العالم، وتتضمن ٢٦٤ حكمة من المواعظ الرقيقة، والأخلاق المثالية، كقوله: «ليس المُحِبُّ الذي يرجو من محبوبه عِوَضًا، أو يطلبُ منه غرضًا، فإنَّ المُحِبَّ مَنْ يَبْذُلُ لك، ليس المُحِبُّ مَنْ تَبْذُلُ له»، وقوله: «معصيةٌ أورثتْ ذُلًّا وافْتِقارًا خيرٌ مِنْ طَاعةٍ أورثتْ عِزًّا واستكبارًا».

ومن كتبه النفيسة في مقام المواعظ كتابه «تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس»، ويتضمن كثيرًا من النصائح التي تمس أوتار القلوب، وفيه فصول من المناجاة يستشعر فيها القارئ معاني التذلل والخضوع، حيث يقول في إحدى مناجاته: «إلهي، أنا الفقيرُ في غِنَاي، فكيف لا أكونُ فقيرًا في فقري؟ وأنا الجهولُ في علمي، فكيفَ لا أكونُ جَهولاً في جَهْلي؟

إلهي، منِّي ما يليقُ بلُؤْمي، ومنكَ ما يليقُ بِكَرَمِك، إنْ ظهرتْ المحاسنُ منِّي فَبِفَضْلِكَ، ولكَ المِنَّةُ عَلَيَّ، وإنْ ظَهَرَتِ المَسَاوِئُ مِنِّي فَبِعَدْلِكَ ولكَ الحُجَّةُ عَلَيَّ.

إلهي، كيفَ أَضِيعُ وقدْ توكلْتُ عليكَ، وكيفَ أُضَامُ وأنتَ الناصرُ لي، أمْ كيفَ أخيبُ وأنتَ الحَفِيُّ بِي، وكيفَ أَشْكُو إليكَ حالِي وهُو لا يَخْفَى عليكَ، أمْ كيفَ تُخَيَّب آمالِي وهِي قدْ وفَدَتْ عَلَيْكَ، أمْ كيْفَ لا تَطِيبُ أحْوالِي وبكَ قامتْ وإليْكَ؟

إلهي، ما أَلْطَفَكَ بِي مَعَ جَهْلِي، وما أرْحَمَكَ بِي مَعَ قَبيحِ فِعْلِي، وما أَقْرَبَكَ مِنِّي وما أَبْعَدَنِي عَنْك، وما أَرْأَفَـكَ بِي فما الذي يَحْجُبُنِي عَنْكَ؟

إلهي، كلَّما أَخْرَسَنِي لُؤْمِي أَنْطَقَنِي كَرَمُكَ، وكلَّما أيْأَسَتْنِي أوْصافِي أطْمَعَنِي عَفْوُكَ».[١]

= المهج: جمع مهجة وهي الروح. الأسى: الحزن. المخيلة: دلائل الذكاء والنجابة.

(١) اللؤم: البخل والمهانة ودناءة النسب. المنة: الإحسان والإنعام. أضام: أذل، أو أظلم، أو ينتقص حقي. الحفي: المبالغ في الاهتمام.

وهذه المناجاة على سهولة مبانيها ورقَّة معانيها صورة واضحة من صور الكتابة غير المتكلفة، فهي ترجمان عن خاطر رجل صالح يصور ما في قلبه بلسان الصدق، مع ذلك وجدت فيها صور من المحسنات البديعية أبرزها المقابلتان في السطر الأخير.

* * *

أهمُّ سمات النثر في العصر المملوكي

١ـ من حيث البناء الفني تبدأ الرسائل عادة بالبسملة ثم الحمدلة ثم الصلاة على الرسول ﷺ ، ثم يتخلَّص الكاتب من هذه المقدمات إلى موضوعه، ثم يختمها بكلمات موجزة تشبه فن التوقيعات، وتكون منسجمة مع الموضوع، فختام رسائل التهديد يختلف يقينًا عن ختام رسائل التهنئة.

٢ـ الإكثار من ذكر الألقاب الخاصة بمن توجه إليه الرسالة، وبخاصة إذا كان سلطانًا أو أميرًا، وقد استقرت في أدبيات العصر المملوكي ألقاب خاصة بالأمراء وثانية بالوزراء، وثالثة بالقواد... وهكذا بحيث لا يجوز للكاتب أن يتجاوز ألقاب المخاطب إلى غيرها.

٣ـ الإكثار من ذكر الجمل الدعائية، فالكاتب إذا خاطب أميرًا لا يتوقف عن الدعاء له بالنصر والتمكين والعزة والتأييد، واستمرار البشائر... الخ.

٤ـ الإطناب، ليس فقط بذكر الألقاب والأدعية السابقة، ولكن بذكر التفاصيل الدقيقة من زمان ومكان وأشخاص، وإعادة المعنى الواحد في عدة جمل متقاربة في المعنى، مما جعل الرسائل المملوكية أطول كثيرًا من رسائل الأمويين على سبيل المثال.

٥ـ استخدام اللغة التصويرية المشحونة بفنون التصوير البياني من تشبيهات واستعارات وكنايات ومجازات، حيث كان جل الكتاب من الشعراء المجيدين.

٦ـ الإسراف في حشد فنون البديع من جناس وطباق ومقابلة وتورية، وقد بالغ الكتاب في التورية بمصطلحات العلوم والفنون في العصر المملوكي.

٧ـ الإكثار من النصوص القرآنية والحديثية والأمثال والأشعار داخل الرسالة أو الخطبة، سواء على سبيل الاستشهاد أم على سبيل الاقتباس والتضمين.

* * *

ترجمة موجزة لثلاثة من كتاب النثر في العصر المملوكي

١ـ محيي الدين بن عبد الظاهر:

هو محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر السعدي المصري، ولد بالقاهرة في التاسع من المحرم عام ٦٢٠هـ، لأسرة عربية عرفت بالقضاء والفقه فأخذ عن علماء عصره حتى برع في الكتابة، وصار رئيسًا لديوان الإنشاء في عهد المنصور قلاوون، فكان السلطان يصدر عن رأيه ومشورته كثيرًا.

أَلَّف عددًا كبيرًا من الكتب منها: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ونظم سيرة الظاهر بيبرس شعرًا، وله: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، وهو من أهم مصادر المقريزي في كتابه «الخطط المقريزية»، وله ديوان شعر، وعدد من كتب الرسائل منها «تمائم الحمائم».

توفي بالقاهرة عام ٦٩٢هـ.

٢ـ شهاب الدين محمود:

هو شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سلمان بن فهد الحلبي ثمَّ الدمشقيّ الحنبلي، ولد في حلب عام ٦٤٤هـ، ثم انتقل إلى دمشق، وفيها أخذ الحديث عن ابن البرهان، وأخذ الفقه عن ابن المنجّى الحنبلي، ودرس النحو على يد ابن مالك صاحب الألفية ، وتأدب على يد الشاعر البارع مجد الدين بن الظهير الإربلي، مما أهَّله للعمل بديوان الإنشاء في دمشق عام ٦٧٥هـ وهو في الثلاثين من عمره تقريبًا، ولما توفي محيي الدين بن عبد الظاهر استدعي إلى القاهرة للعمل في ديوان الإنشاء، فأمضى فيه خمسًا وعشرين سنة، ثم عاد ليتولى كتابة السر في دمشق خلفًا لشرف الدين بن فضل الله العمري، فبقي هناك حتى الوفاة.

تتلمذ على يديه عدد من الفضلاء منهم: شمس الدين الذهبي، وشهاب الدين أحمد بن يحيى ابن فضل الله العمري، وصلاح الدين الصفدي، وقد ترك عددًا من المؤلفات منها: حسن التوسل إلى صناعة الترسُّل، ومنازل الأحباب ومنازه الألباب، ومقامات العشاق، وذيل على كامل ابن الأثير، بالإضافة إلى ديوانه.

توفي في دمشق ليلة السبت الثاني والعشرين من شهر شعبان سنة ٧٢٥هـ.

٢ـ صلاح الدين الصفدي:

هو صلاح الدين أبو الصفاء خليل بن أيبك الصفدي، ولد في صفد بفلسطين عـام ٦٩٦هـ، نشأ في أُسـرة ثريَّـة نشأةً مرفَّهة، فحفظ القـرآن الكريم في صغـره، ثُمَّ طلب العلم، وبرع في النَّحو واللُّغة والأدب والإنشاء، وكان بارع الخط، وتعلم صناعة الرَّسم على القماش، ثُمَّ حُبِّب إليه الأدب فولِعَ به وبتراجم الأعيان، وقال الشعر الحسن ثُمَّ أكثر جدًّا من النَّظم والنثر والتأليف. تولى ديوان الإنشاء في صفد ومصر وحلب، ثم وكالة بيت المال في دمشق، وبقي بها حتى وفاته سنة ٧٦٤هـ.

ترك الصفدي أكثر من مئتي كتاب منها: الوافي بالوفيات (وهو من أوسع كتب التراجم في التراث العربي ويزيد على ثلاثين مجلدًا)، أعيان العصر وأعوان النصر، الشعور بالعُور (وهو من نوادر الكتب في تراجم العور وأخبارهم)، نكت الهميان في نكت العميان (وهو من نوادر الكتب في تراجم فضلاء العميان)، ألحان السواجع بين البادي والمراجع (ويتضمن مراسلاته مع أهل عصره من الأدباء والفضلاء)، تصحيح التصحيف وتحرير التحريف (وهو في الأخطاء الشائعة)، الغيث المُسْجم في شرح لامية العجم ... وغيرها.

❊ ❊ ❊

تدريبات

السؤال الأول: أجب عن الأسئلة الآتية:

١ـ كان لديوان الإنشاء دور مهم في نهضة النثر في العصر المملوكي. اشرح ذلك.

٢ـ اكتب ترجمة موجزة لصلاح الدين الصفدي توضح فيها جوانب التأليف عنده.

٣ـ اذكر أهم السمات الفنية للنثر في العصر المملوكي.

السؤال الثاني: علِّلْ لما يأتي:

١ـ تفوق النثر على الشعر في العصر المملوكي.

٢ـ تأليف القلقشندي موسوعته «صبح الأعشى في صناعة الإنشا».

٣ـ ضعف الخطابة في العصر المملوكي.

٤ـ انحدار مكانة ديوان الإنشاء في أواخر العصر المملوكي.

السؤال الثالث: اختر الإجابة الصحيحة من البدائل المطروحة بين القوسين:

١ـ أهم المجالات التي برع فيها الصفدي

(الشعر ـ الخطابة ـ الترجمة الأدبية للمشاهير).

٢ـ كان محيي الدين بن عبد الظاهر رئيسًا لديوان الإنشاء في عهد السلطان

(المنصور قلاوون ـ الظاهر برقوق ـ الظاهر بيبرس).

٣ـ تتضمن حكم ابن عطاء الله السكندري

(٢٦٤ حكمة ـ ٢٤٦ حكمة ـ ٦٤٤ حكمة).

٤ـ سلطان العلماء هو (ابن تيمية ـ محيي الدين النووي ـ العز بن عبد السلام).

السؤال الرابع: ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (×) أمام العبارة غير الصحيحة فيما يأتي:

١ـ من مؤلفات الصفدي «حسن التوسل إلى صناعة الترسل». (   )

٢ـ تنسب الطريقة الفاضلية في الكتابة إلى الملك الأفضل. ( )

٣ـ أمضى شهاب الدين محمود خمسًا وعشرين سنة يعمل في ديوان الإنشاء بالقاهرة. ( )

٤ـ كان كاتب السر مقصورًا على كتابة رسائل السلطان فقط. ( )

٥ـ عانى صلاح الدين الصفدي من الحرمان في صدر شبابه. ( )

السؤال الخامس: أكمل مكان النقط في الجمل الآتية:

١ـ من الكتب التي تجمع الرسائل الإخوانية بين مؤلفها وأصدقائه .... ، ....

٢ـ من الأسر المتميزة في فن الكتابة في العصر المملوكي .... ، .... ، ....

٣ـ من مؤلفات ابن عطاء الله السكندري في الحكم والمواعظ .... ، ....

❊ ❊ ❊

إثراءات

*** تذكر ما يلي:**

- استعانة بعض الخلفاء والأمراء بالمماليك ـ وأغلبهم من تركيا ـ لقوة أجسامهم، وشدة بأسهم، وشجاعتهم في القتال.
- تنقسم دولة المماليك حسب العنصر الذي ينتمي إليه السلاطين إلى: دولة الأتراك، ودولة الشراكسة، وحسب المكان الذي اتخذه جنودهم في مصر إلى: المماليك البحرية والمماليك البرجية، وحسب الزمن إلى: العصر المملوكي الأول، والعصر المملوكي الثاني، وكلُّ عصر من العصرين استمر أكثر من مائة وثلاثين عامًا.
- استمرت دولة المماليك قرابة ٢٧٥ عامًا، ما بين عاميْ (٦٤٨- ٩٢٣هـ).
- شنق العثمانيون «طومان باي» آخر سلاطين المماليك على باب زويلة بعد أن أبلى بلاء حسنًا في قتالهم، وقتل «سنان باشا» الصدر الأعظم بيده، وأبدى شجاعة نادرة وثباتًا عجيبًا حتى آخر أنفاس حياته.
- انتصر «سيف الدين قطز» على التتار في موقعة عين جالوت، وتعقبهم الظاهر بيبرس في الشام والعراق، كما طهَّر بلاد الشام من الصليبيين نهائيًّا.
- وصْفُ العصر المملوكي بأنَّه عصر الانحطاط الأدبي وصف لا يقوم على استقراء علمي، والصحيح أنَّه عصر الموسوعات العلمية والقمم الشامخة، ولعل الأعداء المغتاظين من خروجهم مهزومين من بلاد الشام وراء ترويج هذه الفكرة السلبيَّة.
- معظم الموسوعات العلمية التي نعيش على زادها الفكري الآن من نتاج العصر المملوكي، وهل يستغني أحد عن لسان العرب لابن منظور، أو ألفية ابن مالك، أو الشاطبية في القراءات، أو فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، أو كتب ابن القيم وابن حجر والسيوطي؟
- بلغ ديوان الإنشاء ذروة عطائه الإبداعي في العصر المملوكي، ولا عجب فقد كان كاتب الإنشاء الملقب بكاتب السرِّ هو المستشار الأول للسلطان، ويشبه الآن رئيس ديوان رئاسة الجمهورية.

- اشتهرت أسر بصناعة الكتابة في العصر المملوكي، بحيث كان يتولى الكتابة الأب والابن والإخوة منها: بنو فضل الله العمري، وبنو عبد الظاهر، وبنو الأثير.
- معظم أدباء العصر المملوكي جمعوا بين مواهب الشعر والنثر والنقد والتأليف، منهم: ابن نباتة، وابن الوردي، وشهاب الدين محمود، وصلاح الدين الصفدي.
- لكل عصر سماته الفنية وخصائصه الأدبية التي يحكم من خلالها النقاد، ولا يصح أن نحاكم عصرًا بمقاييس أدبية مختلفة.
- حظيت قصيدة «الكواكب الدُرِّيَّة في مدح خير البريَّة» المعروفة ببردة البوصيري بحظ عظيم من الشهرة منذ تأليفها حتى يومنا هذا.
- تعرف لامية ابن الوردي بنصيحة الإخوان، وقد شرحها عدد من العلماء منهم مسعود بن حسن القناوي في كتابه: فتح الرحيم الرحمن في شرح نصيحة الإخوان.

❋ ❋ ❋

الدرس الثالث عشر

في المديح والحكم لصفي الدين الحليّ

أهداف الدرس:

بنهاية الدرس يتوقع أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يذكر ترجمة موجزة لصفي الدين الحلي.

٢ـ يذكر مناسبة قصيدة صفيّ الدين الحليّ في المديح والحكم.

٣ـ يشرح الأبيات المختارة من القصيدة بأسلوبه الخاص.

٤ـ يحدد أهم سمات شخصية صفيّ الدين الحليّ وخصائص أسلوبه.

٥ـ يذكر أثر البيئة في النص.

٦ـ يستخرج مظاهر الجمال من الأبيات المختارة.

٧ـ يحفظ خمسة أبيات من القصيدة.

لا يَمْتَطي المَجدَ مَن لَم يَركَبِ الخَطَرا ** وَلا يَنالُ العُلا مَن قَدَّمَ الحَذَرا [١]

وَمَن أَرادَ العُلا عَفوًا بِلا تَعَبٍ ** قَضى وَلَم يَقضِ مِن إِدراكِها وَطَرا [٢]

لا بُدَّ لِلشَّهدِ مِن نَحلٍ يُمَنِّعُهُ ** لا يَجتَني النَّفعَ مَن لَم يَعمَلِ الضَّرَرا [٣]

لا يُبْلَغُ السُّؤْلُ إِلاّ بَعدَ مُؤْلَمَةٍ ** وَلا يَتِمُّ المُنى إِلاّ لِمَن صَبَرا [٤]

وَأَحزَمُ الناسِ مَن لَو ماتَ مِن ظَمَإٍ ** لا يَقرَبُ الوِرْدَ حَتّى يَعرِفَ الصَّدَرا [٥]

---

(١) يمتطي: يركب. ينال: يحصل على. العُلا: الرفعة والشرف، مفردها: عُليا. الحذر: الخوف والترقب.

(٢) عفوًا: بلا كلفة أو مزاحمة. قضى: مات. الوطر: الحاجة.

(٣) الشهد: العسل. يمنّعه: يحصنه ويحميه. يجتني: يحصل على.

(٤) السؤل: المطلوب. مؤلمة: صفة لموصوف محذوف أي بعد عملية مؤلمة وموجعة. المُنى: جمع مُنْيَة وهي الأمنية.

(٥) أحزم الناس: أعقلهم وأشدهم ضبطًا للأمور. الظمأ: العطش. الوِرد: القدوم لشرب الماء. الصدر: الانصراف عن الماء. أي لا يقدم على مكان الشرب إلا إذا عرف طريقه للخروج.

وَأَغزَرُ الناسِ عَقلاً مَن إذا نَظَرَت *** عَيناهُ أَمرًا غَدا بِالغَيرِ مُعتَبِرا [١]

فَقَد يُقالُ عِثارُ الرِّجْلِ إِن عَثَرَت *** وَلا يُقالُ عِثارُ الرَّأْيِ إِن عَثَرا [٢]

مَن دَبَّرَ العَيشَ بِالآراءِ دامَ لَهُ *** صَفوًا وَجاءَ إِلَيهِ الخَطْبُ مُعْتَذِرا [٣]

يَهونُ بِالرَّأيِ ما يَجري القَضاءُ بِهِ *** مَن أَخطَأَ الرَّأيَ لا يَسْتَذنِبُ القَدَرا [٤]

لا يَحْسُنُ الحِلْمُ إِلاّ في مَواطِنِهِ *** وَلا يَليقُ الوَفا إِلاّ لِمَنْ شَكَرا [٥]

وَلا يَنالُ العُلا إِلاّ فَتىً شَرُفَتْ *** خِلالُهُ فَأَطاعَ الدَّهرُ ما أَمَرا [٦]

* التعريف بالشاعر:

هو عبد العزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم الطائي، ولد ونشأ في الحلة (بين الكوفة وبغداد) واشتغل بالتجارة، فكان يرحل إلى الشام ومصر وماردين وغيرها في تجارته، ويعود إلى العراق، وفي سفر له إلى «ماردين» مدح حكامها من ملوك الدولة الأُرْتُقِية الذين كانوا يحكمون ديار بكر، فأجزلوا له العطاء وأقام عندهم مدة، وهناك نظم «الأُرْتُقيات»، وهو ديوان يتكون من ٢٩ قصيدة، في كل قصيدة ٢٩ بيتًا، يبدأ كل بيت من القصيدة بحرف الرويّ نفسه فإذا كانت القافية ميمًا مثلاً بدأت جميع الأبيات بحرف الميم وهكذا، ثم رحل إلى القاهرة فمدح السلطان الملك الناصر بعدة قصائد تسمى «المنصوريات»، ثم عاد إلى العراق، وتوفي ببغداد عام ٧٥٠هـ.

ترك صفي الدين الحلي عددًا من المؤلفات إلى جوار ديوانه الشعري الضخم، منها: العاطل الحالي والمرخص الغالي (في فنون الشعر الملحون)، درر النحور (وهي قصائده المعروفة بالأرتقيات)، صفوة الشعراء وخلاصة البلغاء وغيرها.

يذهب كثير من النقاد إلى أنَّه أول من أدخل فنَّ «البديعيات» في الأدب العربي، بقصيدته «الكافية البديعية في المدائح النبوية»، وتتكون من ١٤٥ بيتًا في كل بيت منها أحد فنون البديع، ومطلع القصيدة:

إِن جِئتَ سَلْعًا فَسَل عَن جيرَةِ العَلَمِ *** وَاقْرَ السَلامَ عَلى عُرْبٍ بِذي سَلَمِ [٧]

(١) أغزر: أكثر. مُعْتبِرًا: متعظًا.
(٢) العثار: الخطأ والزلل. وإقالة العثار: العفو عن الخطأ ومسامحة مرتكبه. الرِّجْل: القدم.
(٣) الخَطْب: الأمر الشديد، وجمعه خطوب.
(٤) يستذنب القدر: ينسب إليه الذنوب، ليبرئ نفسه.
(٥) الحِلم: العفو والصفح. مواطنه: مواضعه. الوفا: مقصور الوفاء.
(٦) شرفت: عظمت. خلاله: خصاله، مفردها خَلَّة.
(٧) سلع: جبل بالمدينة المنورة يقع إلى الغرب من المسجد النبوي الشريف. جيرة: جيران. العلم، ذي سلم: جبلان بالحجاز، اقرَ: مخفف اقرأ.

ومن قصائده المشهورة نونيته التي يفتخر فيها بقومه الذين أخذوا ثأر خاله «صفي الدين بن محاسن» ممن قتلوه غدرًا، ومطلع القصيدة:

سَلِي الرِّماحَ العَوالِـي عَنْ مَعَالِينا ** وَاسْتَشْهِدِي البِيْضَ هَلْ خَابَ الرَّجا فينا [١]

*** مناسبة القصيدة:**

وجه «صفيُّ الدين الحليّ» هذه القصيدة إلى السلطان الملك الصالح «شمس الدين أبو المكارم ابن السلطان الملك المنصور» ينصحه بأخذ الحذر من المغول الذين ما زالت بقاياهم في بلاد الشام والعراق، ويوصيه بالهجوم عليهم عند اختلافهم واضطراب أحوالهم، ويهنئه بعيد النحر، مقدِّمًا بين يدي ذلك كله جملة من النصائح الغالية والحكم الخالدة.

*** المعنى العام:**

يؤكد الشاعر أنَّه لا يصل إلى غاية المجد والرفعة إلا الرجل الشجاع الذي لا يبالي بالأخطار، ولا يتمتع بالوصول إلى سماء العلا والعزة ذلك الخائف المتردد الذي يقدم رجلاً ويؤخر أخرى. ذلك أنّ الذي يريد معالي الأمور دون تعب ومزاحمة عليها سيموت حتمًا دون أن يصل إلى غايته، أو يحقق حاجته. فالنحل يحمي العسل، ويهاجم باللدغ كل من يحاول الوصول إلى ما ادخره من العسل، فكل نفع لا بد من معاناة ضرر قبله. إن كل غاية وهدف دونها آلام ومشقات، والذي يصبر عليها ويتحمل مرارتها هو الذي يحقق أمانيه.

والرجل الحازم هو الذي لا يقدم على أمر إلا إذا عرف كيفية الخروج منه، فقبل أن تقدم على بئر الماء للشرب عليك أن تعرف طريق الخروج أولاً. والعاقل كذلك هو مَنْ يتعظ بغيره، فيتجنب أخطاءه بعدما رأى عواقبها.

إن زَلَّة القدم يمكن أن تغتفر، لكن زَلَّة اللسان وسَقْطة الرأي لا يمكن أن تغتفر؛ لأن آثارها تبقى مدة طويلة. والعاقل هو الذي يحكم التدبير، ويزن الأمور بحكمة، وساعتها لن تصيبه الشدائد بل ستأتيه معتذرة، فالله جعل لكل شيء سببًا، وأمرنا أن نأخذ بالأسباب، لكن هناك أناسًا لا يأخذون بالأسباب فيفشلون، ثم يلومون الأقدار.

إن الحلم والصفح لا يحسن إلا مع من يستحق، والوفاء لا يجمل إلا مع الشاكرين المقدرين لحسن الصنيع. ولن يصل إلى معالي الأمور إلا رجل كريم الأخلاق، شريف الخصال، فيدعو الله فيستجيب دعاءه ويحقق رجاءه.

(١) الرماح العوالي: الحادة المستقيمة. معالينا: مفاخرنا. البيض: السيوف. الرجا: مقصور الرجاء.

*** مظاهر الجمال :**

١ـ في قوله: (يمتطي المجد)، وقوله: (يركب الخطرا)، وقوله: (ينال العلا): استعارات مكنية حيث شَبَّة المجد بدابَّة تُمْتَطى، وشَبَّة الخطر بدابَّة تُركَب، وشبه العُلا بشئ يُنَال باليد. وفائدة الاستعارة التجسيم والتشخيص، حيث صور الشاعر الشيء المعنوى بشيء مادي محسوس، وهو مما يقرب الصورة إلى الذهن، ويسهل إدراكها. وفي قوله: (الخطرا ـ الحذرا) تصريع، وهو اتفاق آخر الشطر الأول مع آخر الشطر الثاني، يعطي الكلام جرسًا موسيقيًّا متميزًا، ويلفت الذهن إلى موسيقى الوزن والقافية من أول وهلة.

٢ـ وفي قوله: (وَلَم يَقضِ مِن إِدراكِها وَطَرا): كناية عن عدم حصول المطلوب، والفشل في تحقيق الأماني.

٣ـ وفي قوله: (يجتني النفع): استعارة مكنية حيث صور النفع بثمرة تجنى، وفي ذلك تجسيم للمعنوي وتشخيص له. وبين (النفع ـ الضرر): طباق يبرز المعنى ويوضحه، ويلفت الذهن إلى ضرورة الاستهانة بالمخاطر للحصول على المنفعة.

٤ـ وفي قوله: (لا يُبْلَغُ السُؤْلُ إلاَّ بَعدَ مُؤْلِمَةٍ):قصر،وطريقه: النفي والاستثناء، يفيد تقوية المعنى وتوكيده؛ لأنه حكمة خالدة ثابتة. وفي قوله: (لا يُبلغ السؤل) وبناء الفعل المضارع للمجهول يفيد العموم والشمول، فكل من استهان بالمصاعب أيًّا كان لونه أو جنسه أو دينه يحقق الله له مراده.

٥ـ وبين قوله : (الورد والصدر): طباق، يبرز المعنى ويوضحه، ويلفت الذهن إلى ضرورة معرفة النهايات قبل البدايات، والمخارج قبل المداخل.

٦ـ وفي قوله: (إِذا نَظَرَت عَيناهُ أَمرًا غَدا بِالغَيرِ مُعتَبِرا): شرط يلفت النظر إلى التلازم بين النتائج والمقدمات، مما يدل على ضرورة أخذ العبرة والاتعاظ بالغير.

٧ـ وفي قوله: (يقال عثار الرِّجل ـ ولا يقال عثار الرأي): مقابلة بين المعنيين تلفت النظر إلى الفرق الواسع بين زلة القدم، وزلة الرأي.

٨ـ وفي قوله: (جاء إليه الخطب): استعارة مكنية، حيث صور الأمر الشديد بصورة رجل يأتي معتذرًا، وفي هذا تجسيم للمعنوي مما يثبّت الصورة في الذهن.

٩ـ وقوله: (مَن أَخطَأَ الرَّأيَ لا يَسْتَذنِبُ القَدَرا): أسلوب خبري غير مؤكد للدلالة على ثبوت هذه الحقيقة ورسوخها، وأنها ليست في حاجة إلى تأكيد كما لا تحتاج الشمس في الظهيرة إلى من يؤكد سطوعها.

١٠ـوفي قوله: (لا يَحْسُنُ الحِلْمُ إلاّ في مَواطِنِهِ): قصر، وطريقه، النفي والاستثناء، وغرضه التأكيد على ضرورة مراعاة التصرف لمقتضى الحال، فهناك مواقف تحتاج إلى الحلم، ومواقف تقتضي القسوة.

١١ـوفي قوله: (وَلا يَنالُ العُلا إلاّ فَتًى شرفت خلاله): قصر، وطريقه، النفي والاستثناء، وغرضه التأكيد على ضرورة اكتمال معاني القوة في من يريد الوصول إلى المعالي وجاءت كلمة "فتى" نكرة للتفخيم والتعظيم، فالذي ينال العلا هو الفتى الكامل الفتوَّة.

١٢ـوفي قوله: (فَأَطاعَ الدَّهْرُ ما أَمَرا): استعارة مكنية صور فيها الدهر بإنسان يُؤمَر فيطيع، وفائدتها تجسيد المعني كأن الدهر خادم مطيع، وفيها إشارة إلى أنَّ كل عناصر الطبيعة من زمان ومكان وغيرهما تكون في خدمة أصحاب الشرف والمروءة.

❊ ❊ ❊

التعليق على النص

أولاً: شخصية الشاعر من خلال النص:

١ـ شاعر غيور على وطنه.

٢ـ لديه القدرة على مواجهة الصعاب.

٣ـ مثقف واسع الثقافة، كثير الاطلاع.

٤ـ حكيم في نصائحه.

٥ـ عزيز النفس، عالي الهمة.

ثانيًا: خصائص أسلوب الشاعر من خلال النص:

١ـ الاعتماد على المحسنات البديعية غير المتكلفة غالبًا.

٢ـ الاعتماد على الأسلوب الخبري للتقرير والتوكيد.

٣ـ البراعة في التصوير، والدقة في التعبير.

٤ـ الاهتمام بتوضيح الفكرة باستخدام التضاد.

ثالثًا: الموسيقى في النص:

١ـ موسيقى ظاهرة: وتتمثل في الوزن (بحر البسيط) والقافية (روي الراء) والتصريع والجناس وحسن التقسيم.

٢ـ موسيقى داخلية: وتتمثل في حسن اختيار الألفاظ وملاءمتها للمعاني.

رابعًا: أثر البيئة في النص:

١ـ وجود الحروب بين المسلمين والتتار في ذلك الوقت.

٢ـ وجود بعض الشعراء في بلاط الحكام.

٣ـ وجود بعض الحكماء الذين يوجهون النصح لغيرهم.

* * *

تدريبات

السؤال الأول:

لا يَمْتَطي المَجدَ مَن لَم يَركَبِ الخَطرَا ** وَلا يَنالُ العُلا مَن قَدَّمَ الحَذَرا

وَمَن أَرادَ العُلا عَفوًا بِلا تَعَبٍ ** قَضى وَلَم يَقضِ مِن إِدراكِها وَطَرا

لا بُدَّ لِلشَّهْدِ مِن نَحلٍ يُمَنِّعُهُ ** لا يَجتَني النَّفعَ مَن لَم يَعمَلِ الضَّرَرا

لا يُبْلَغُ السُّؤْلُ إِلاَّ بَعدَ مُؤْلَمَةٍ ** وَلا يَتِمُّ المُنى إِلاّ لِمَن صَبَرا

(أ) من قائل النص؟ وما عنوانه؟ وما مناسبته؟

(ب) اشرح الأبيات شرحًا أدبيًّا بأسلوبك.

(ج) هات معنى ما تحته خط في الأبيات السابقة.

(د) اكتب بيتين بعد الأبيات السابقة.

(هـ) اختر الصواب مما بين القوسين فيما يأتي:

- «العلا» مفردها: (عليا - عالية - علياء).
- «قضى» مرادفها: (أنهى - أخذ - مات).
- «وطرًا» مرادفها: (سببًا - تعبًا - حاجةً).

(و) بين مصدر الموسيقى في البيت الأول، واستخرج من البيت الثالث كلمتين بينهما تضاد، واذكر أثره في المعنى.

(ز) بين الجمال في قوله: (يمتطى المجد، ويركب الخطرا).

السؤال الثاني:

وَأَحزَمُ الناسِ مَن لَو ماتَ مِن ظَمَإٍ ** لا يَقرَبُ الوِرْدَ حَتّى يَعرِفَ الصَّدَرا

وَأَغزَرُ الناسِ عَقلاً مَن إِذا نَظَرَت ** عَيناهُ أَمرًا غَدا بِالغَيْرِ مُعتَبِرا

فَقَد يُقالُ عِثارُ الرِّجْلِ إِن عَثَرَت ** وَلا يُقالُ عِثارُ الرَّأْيِ إِن عَثَرا

(أ) ضع عنوانًا مناسبًا للأبيات السابقة.

(ب) اكتب نبذة عن قائل النص فيما لا يزيد عن ثلاثة أسطر.

(جـ) اشرح الأبيات شرحًا أدبيًّا بأسلوبك.

(د) ضع علامة (√) أمام الصواب وعلامة (×) أمام الخطأ فيما يأتي:

١ـ من مؤلفات صفي الدين الحلي «درر النحور». ( )

٢ـ من قصائده المشهورة لاميته التي يفتخر فيها بقومه. ( )

٣ـ هذه القصيدة تحذير للسلطان من خطر المغول. ( )

٤ـ «الأرتقيات» ديوان شعر يتكون من ٢٩ قصيدة، في كل قصيدة ٢٩ بيتًا. ( )

(هـ) اختر الصواب مما بين القوسين فيما يأتي:

١ـ بين كلمتي «الورد والصدر» (طباق ـ جناس ـ سجع).

٢ـ بين «يقال عثار الرِّجل، ولا يقال عثار الرأي» (طباق ـ مقابلة ـ جناس).

٣ـ «الوِرْد» هو (القدوم لشرب الماء ـ الزهر ـ الذهاب).

٤ـ «الصَدَرَ» هو (المقدمة ـ الانصراف عن الماء ـ المجيء).

السؤال الثالث:

مَـن دَبَّـرَ العَيـشَ بِـالآراءِ دامَ لَهُ ** صَفوًا وَجاءَ إِلَيهِ الخَطْبُ مُعْتَذِرا

يَهونُ بِالرَّأيِ ما يَجري القَضاءُ بِهِ ** مَن أَخطَأَ الرَّأيَ لا يَسْتَذنِبُ القَدَرا

(أ) ضع عنوانًا مناسبًا للبيتين السابقين.

(ب) اشرح الأبيات شرحًا أدبيًّا بأسلوبك.

(جـ) هات معنى ما تحته خط في الأبيات السابقة.

(د) اختر الصواب مما بين القوسين فيما يأتي:

- مضاد كلمة «صفوًا» (عكرًا ـ ثائرًا ـ سيئًا).
- جمع كلمة «الخَطْب» (خواطب ـ خطباء ـ خطوب).

- معنى كلمة «معتذرًا» (معترفاً بالخطأ ـ مصراً عليه ـ مقبلاً عليه).

(هـ) هات من الأبيات استعارة ووضحها.

السؤال الرابع:

لا يَحْسُنُ الحِلْمُ إلاّ في مَواطِنِهِ ⁂ وَلا يَليقُ الوَفا إِلاّ لِمَنْ شَكَرا

وَلا يَنالُ العُلا إِلاّ فَتىً شَرُفَتْ ⁂ خِلالُهُ فَأَطاعَ الدَّهْرُ ما أَمَرا

(أ) استخرج من البيتين أسلوب قصر، واذكر طريقه وغرضه.

(ب) اشرح البيتين شرحًا أدبيًّا بأسلوبك.

(جـ) (الحلم ـ خلاله ـ العلا) هات معنى الأولى والثانية، ومفرد الثالثة.

(د) ما الجمال في قوله: «فأطاع الدهر ما أمرا» مع التوضيح؟

❋ ❋ ❋

الدرس الرابع عشر

من لامية ابن الوردي في الحكم والمواعظ

أهداف الدرس:

بنهاية الدرس يتوقع أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يذكر ترجمة موجزة لابن الوردي.

٢ـ يذكر مناسبة النص.

٣ـ يشرح الأبيات المختارة من القصيدة بأسلوبه الخاص.

٤ـ يحدد سمات شخصية ابن الورديّ وخصائص أسلوبه .

٥ـ يذكر أثر البيئة في النص.

٦ـ يستخرج مظاهر الجمال من الأبيات المختارة.

٧ـ يحفظ سبعة أبيات من القصيدة.

أيْ بنيَّ اسمعْ وصايا جَمَعَتْ ⁂ حِكَـماً خُصَّتْ بها خَـيْرُ المللْ (١)

اطلـبِ العلمَ ولا تَكْسَـلْ فما ⁂ أبعدَ الخيرَ على أهلِ الكسـلْ (٢)

واحتفلْ للفقـهِ في الدينِ ولا ⁂ تَشْـتغلْ عنـهُ بـمالٍ أوْ خِـوَلْ (٣)

واهجُرِ النومَ وحصِّلْهُ فَمَنْ ⁂ يعرفِ المطلوبَ يحقرْ ما بذلْ (٤)

لا تقـلْ قـدْ ذهبَـتْ أربابُـهُ ⁂ كلُّ مَنْ سارَ على الدربِ وصلْ (٥)

في ازديادِ العلمِ إرغامُ العِدى ⁂ وجمالُ العلمِ يا صاحِ العملْ (٦)

---

(١) وصايا: جمع وصية وهي ما يوصى به من أمور مادية أو معنوية، والمقصود هنا: نصائح. حكم: جمع حكمة، وهي الكلام الذي يحمل معاني كثيرة في ألفاظ قليلة. خُصَّت بها: انفردت بها. الملل: جمع ملة وهي الدين، وخير الملل: الإسلام.

(٢) الكسل: الفتور والتثاقل عن العمل، ومضاده: الهمة والنشاط.

(٣) احتفل: اهتمّ. خول: عطية الله من النعم المختلفة (تطلق على المفرد والجمع، والمذكر والمؤنث).

(٤) حصِّله: اجمعه. والضمير يعود على العلم. يحقر: يستحقر ويستصغر. بذل: أعطي وقدَّم.

(٥) أربابه: أصحابه والقائمون عليه، مفردها: ربّ. الدرب: الطريق. جمعه: دروب.

(٦) إرغام: إذلال. العدى: الأعداء، مفردها: العدو. يا صاح: منادى مرخَّم أي يا صاحبي.

جمِّلِ المنطقَ بالنَّحوِ فَمَنْ ※ يُحرمِ الإعرابَ في النُّطقِ اختبلْ[١]

وانظمِ الشعرَ ولازمْ مذهبي ※ فاطِّراحُ الرِّفْدِ في الدنيا أقَلّْ[٢]

فهْوَ عنوانٌ على الفضلِ وما ※ أحسنَ الشِّعرَ إذا لمْ يُبتذلْ[٣]

ماتَ أهلُ الجودِ لم يبقَ سوى ※ مُقْرِفٍ أوْ مَنْ على الأصلِ اتَّكَلْ[٤]

أنا لا أختارُ تقبيلَ يدٍ ※ قطعُها أجملُ مِنْ تلكَ القُبَلْ[٥]

واتركِ الدُّنيا فمِنْ عاداتِها ※ تَخْفضُ العالي وتُعْلي مَنْ سَفلْ[٦]

كمْ جهولٍ وهْوَ مُثْرٍ مُكْثِرٌ ※ وحكيمٍ ماتَ منها بالعللْ[٧]

كم شجاعٍ لم ينلْ منها غنىً ※ وجبانٍ نالَ غاياتِ الأملْ[٨]

لا تقُلْ أصْلِي وفصْلِي أبدًا ※ إنَّما أصْلُ الفتى ما قدْ حَصَلْ[٩]

※ التعريف بالشاعر: سبقت ترجمته ضمن أعلام الشعر في العصر المملوكي[١٠].

※ **المعنى العام:**

أيها الولد العزيز استمع إلى هذه الوصايا الغالية، والحكم الخالدة التي خصت بها ملة الإسلام من بين سائر الملل. لتكن همتك عالية في طلب العلم عمومًا؛ فإنَّه لا ينال العلم كسلان، واهتم بالفقه على وجه الخصوص، ولا تنشغل عنه بمال أو متاع دنيوي. والطالب الحقيقي هو الذي يهجر النوم من أجل تحصيل العلم؛ لأن غايته الشريفة تجعل كل شيء يبذل في سبيله رخيصًا. وإياك إياك أن تقول: لقد مات أهل العلم الكبار، فإنَّ كل من سار في طريق العلم وأخلص النية وصل إلى مكانتهم، ولتعلم أن في تحصيلك للعلم إذلال لأعدائك، ولكن العلم وحده لا يكفي فلا بد من أن يقترن العلم بالعمل.

(١) جمِّل: زيِّن. اختبل: أصابه الجنون، وهو فساد العقل.
(٢) لازمْ: الزم واثبت. اطراح: الابتعاد عن الشيء. الرفد: العطاء.
(٣) يبتذل: يمتهن، أي يصبح مهينًا رخيصًا بالسعي به على أبواب الملوك والأمراء.
(٤) الجود: الكرم والعطاء. مُقْرِف: هجين ليس أصيلاً في الكرم. اتكل: اعتمد.
(٥) القُبَل: جمع قُبلة، وهي لثم العضو بالفم حبًّا أو احترامًا.
(٦) سَفَل: انحط مكانه أو مكانته.
(٧) كمْ: خبرية بمعنى كثير. جهول: صيغة مبالغة من الجهل. مُثْرٍ: غني. حكيم: طبيب، والجمع حكماء. العلل: جمع علة وهي المرض.
(٨) ينل: يحصل. غايات: نهايات. مفردها غاية.
(٩) الأصل والفصل: قال ثعلب الأصل: الوالد، والفصل: الولد. أي لا تفتخر بوالد ولا ولد. وقال الكسائي: الأصل: الحسب، والفصل: اللسان يعني النطق. (والأول أقرب).
(١٠) انظر ص١٢٨.

واهتم بعلم النحو كذلك؛ فإن النحو يُصْلح الكلام كما يُصْلح الملح الطعام، واهتم بنظم الشعر فإنه عنوان على الفضل، ولكن إذا نظمت الشعر فلا تطرق به أبواب الملوك، ولا تجعله رخيصًا بمدح من لا يستحق، فقد مات أهل الجود ومن يستحقون المدح، وأصبحنا أمام أناس لا يستحقون أن تقبل أيديهم، بل يستحقون قطع الأيادي.

وعليك أيها الولد الكريم أن تزهد في الدنيا، وفيما في أيدي الناس، فالدنيا غدارة، كم رفعت من جاهل، وكم خفضت من عالم، كم أعطت الجبان وحرمت الشجاع، فليكن اعتمادك على جهدك، لا على أصلك وفصلك. فالعاقل من يفتخر بعمله لا بعمل الآخرين له، ولله درُّ من قال:

إِنَّ الفَتى مَن يُقولُ ها أَنا ذا ❊❊ لَيسَ الفَتى مَن يُقولُ كانَ أَبي

❊ مظاهر الجمال:

١ـ في قوله: (أَيْ بُنَيّ): إنشاء، نوعه نداء، يفيد القرب بين الناصح والمنصوح له، وتصغير كلمة (بُنَيَ) يشير إلى قربه منه كقرب الولد الصغير من قلب والده. وقوله: (اسمع وصايا): إنشاء، نوعه أمر، غرضه النصح والإرشاد، ويدل على أهمية الوصايا التي ستأتي، وضرورة العمل بها. وجاءت كلمة: (حكمًا) جمعًا؛ لتدل على تنوع أصناف الحكمة التي سيسوقها، وتنكيرها يدل على تفخيمها وتعظيم شأنها. وفي قوله: (خير الملل) كناية عن دين الإسلام، وفيها إشارة إلى عظمة هذا الدين، وهيمنته على كل ما عداه.

٢ـ وفي قوله: (لا تكسلْ): إنشاء، نوعه نهي، وغرضه النصح والإرشاد، ويوحي بقبح الكسل وضرورة الابتعاد عنه. وقوله: (ما أبعدَ الخيرَ على أهلِ الكسلْ): إنشاء غير طلبي، نوعه تعجب يدل على وضوح البعد في المسافة بين الخير والكسالى، ويجسم الخير المعنوي بصورة حسية كأنَّه في مكان بعيد كل البعد عن كل كسلان.

٣ـ وفي قوله: (احتفل للفقه): إنشاء، نوعه أمر، يدل على النصح والإرشاد، ويصور الاهتمام بأمر الفقه كالاهتمام بضيف عزيز أو مسئول كبير تقام الاحتفالات بقدومه.

٤ـ وفي قوله: (مَنْ يعرفِ المطلوبَ يحقرْ ما بذلْ): شرط يدل على التلازم بين الجواب والشرط، مما يحمل العاقل على بذل غاية ما في وسعه.

٥ـ وفى قوله: (كلُّ مَنْ سارَ على الدربِ وصلْ): أسلوب خبري غير مؤكد مما يـدل على أنها حكمة خالدة لا تتغير باختـلاف الزمـان والمكـان، ولا يختلف في ثبوتها اثنان.

٦ـ وفى قوله: (يا صاحِ): إنشاء، نوعه نداء أصله يا صاحبي، والترخيم (حذف آخر المنادى) يدل على الحُب وقرب المسافة بين المنادِي والمنادَى.

٧ـ وفى قوله: (جمِّل المنطق بالنحو): استعارة مكنية، صور فيها الكلام بأنه عروس تزيَّن، والنحو بأنه زينة جميلة، وفيها تجسيم للمعنويات، مما يقربها من الأذهان. وقوله: (مَنْ يُحرمِ الإعرابَ في النُّطْقِ اختبلْ): شرط يدل على التلازم بين الجواب والشرط، وغرضه تشويه صورة من يلحن في الكلام بأنه يبدو كالمجنون.

٨ـ وفى قوله: (ولازمْ مذهبي): استعارة مكنية صوَّر فيها مذهبه في البعد عن أرباب السلطة والزهد فيما في أيديهم بإنسان فاضل ينبغي أن يُلازَم.

٩ـ وقوله: (ما أحسنَ الشِّعرَ إذا لمْ يُبتذلْ): إنشاء، نوعه تعجب ، يدل على وضوح صفة الجمال في الشعر إذا لم يمتهن بالتسول به على أبواب أرباب السلطان.

١٠ـوفى قوله: (لم يبقَ سوى مُقْرِفٍ): قصر، وطريقه: النفي والاستثناء، وغرضه التأكيد على وفاة جميع الأفاضل، وبقاء الحثالة والأراذل.

١١ـوفى قوله: (أنا لا أختارُ تقبيلَ يدٍ...): أسلوب خبري، يدل على الاعتزاز بالمنهج الذي اختاره الرجل في حياته من البعد عن أصحاب الجاه والسلطان، وجاءت كلمة (يد) نكرة للتحقير ، ولا عجب فهي يد تستحق التقطيع لا التقبيل.

١٢ـوفى قوله: (تَخْفِضُ العالي وتُعْلي مَنْ سَفلْ): مقابلة تبرز المعنى وتوضحه، ويصور التناقض بين أقدار الناس وأحوالهم في الدنيا.

١٣ـوقوله: (كمْ جهولٍ وهْوَ مُثْرٍ مُكْثرُ...) أسلوب خبري غير مؤكد يدل على استقرار حقيقة التفاوت بين العلم والمال. و(كم) هنا خبرية، وهى تفيد التكثير للدلاله على أن ما بعدها ظاهرة شائعة واستخدام صيغة المبالغة (جهول) يدل على شدة جهل بعض الأغنياء. وفى قوله: (كم شجاعٍ لم ينلْ منها غنًى، وجبانٍ نالَ غاياتِ الأملْ): مقابلة تبرز المعنى وتوضحه، وتصور التفاوت الكبير بين أقدار الناس الحقيقية وحظوظهم الدنيوية. وتنكير كلمة (غنًى) يدل على

التحقير، فالشجاع لم ينل أدنى حظ من حظوظ الدنيا، وجمع كلمة (غايات) يدل على تنوع المنافع التي يحصل عليها أولئك الجبناء.

١٤ـ وفي قوله: (أصلي وفصلي): جناس يعطي الكلام جرسًا موسيقيًّا عذبًا، وفيه طباق في المعنى، يؤكد ضرورة الاعتماد على النفس لا على الآباء أو الأبناء. وقوله: (أبدًا): تأكيد للنهي عن التفاخر بالحسب القديم أو الفرع الجديد، وتنبيه على استمرار ذلك النهي أبد الدهر. وقوله: (إنَّما أصْلُ الفتى ما قدْ حَصَلْ): قصر، طريقه: إنَّما، يدل على انحصار القيمة الحقيقة في الإنجاز على أرض الواقع.

* * *

التعليق على النص

أولاً: شخصية الشاعر من خلال النص:

١ـ رجل حكيم صقلته التجارب، وعلمته الأيام.

٢ـ رقيق في نصحه حتى لا ينفر منه المخاطَب.

٣ـ شديد الاعتزاز بنفسه.

٤ـ محب للعلوم والآداب.

ثانيًا: خصائص أسلوب الشاعر:

١ـ كثرة الأساليب الإنشائية للتشويق وإثارة الذهن.

٢ـ كثرة المحسنات البديعية غير المتكلفة.

٣ـ سهولة الألفاظ ووضوح المعاني.

ثالثًا: أثر البيئة في النص:

١ـ النصائح من الآباء للأبناء.

٢ـ وجود أماكن للعلم.

٣ـ بيئة يكثر فيها العلماء.

* * *

تدريبات

السؤال الأول:

أيْ بنيَّ اسمعْ وصايا جَمَعَتْ ** حِكَمًا خُصَّتْ بها خَيْرُ المللْ

اطلبِ العلمَ ولا تَكْسَلْ فما ** أبعدَ الخيرَ على أهلِ الكسلْ

واحتفلْ للفقهِ في الدينِ ولا ** تَشْتغلْ عنهُ بمالٍ أوْ خِوَلْ

(أ) اختر الصواب مما بين الأقواس:

١ـ قائل النص هو (ابن الوردي ـ ابن هانئ الأندلسي ـ صفي الدين الحلي).

٢ـ النص ينتمي إلى العصر (العباسي ـ المملوكي ـ العثماني).

٣ـ «أي بني» نداء يفيد (القرب ـ البعد ـ التصغير).

٤ـ «حكماً» نكرة لتفيد (التفخيم والتعظيم ـ العموم والشمول ـ التحقير).

٥ـ «لا تكسل» نهي ـ غرضه (التحذير ـ النصح والإرشاد ـ التشويق).

(ب) اشرح الأبيات السابقة شرحًا أدبيًّا بأسلوبك.

(ج) هات معنى ما تحته خط في الأبيات السابقة.

(د) هات من الأبيات (أسلوب نداء ـ أمر ـ نهي ـ تعجب)، وبين الغرض منه.

السؤال الثاني:

واهجُرِ النومَ وحصِّلْهُ فَمَنْ ** يعرفِ المطلوبَ يحقرْ ما بذلْ

لا تقلْ قدْ ذهبَتْ أربابُهُ ** كلُّ مَنْ سارَ على الدربِ وصل

في ازديادِ العلمِ إرغامُ العِدى ** وجمالُ العلمِ يا صاحِ العملْ

(أ) من قائل النص؟ وما مناسبته؟

(ب) اشرح الأبيات شرحًا أدبيًّا بأسلوبك.

(ج) هات معني ما تحته خط من الأبيات.

السؤال الثالث:

جمِّـلِ المنطـقَ بالنَّحـوِ فَمَـنْ ** يُحرمِ الإعرابَ في النُّطْقِ اختبلْ

وانظمِ الشعرَ ولازمْ مذهبي ** فاطِّـراحُ الرِّفْـدِ في الدنيا أقَلْ

فهْوَ عنوانٌ على الفضلِ وما ** أحسـنَ الشِّـعرَ إذا لمْ يُبتـذلْ

(أ) ضع عنوانًا مناسبًا للأبيات.

(ب) اشرح الأبيات شرحًا أدبيًّا بأسلوبك.

(ج) ضع علامة (√) أمام الصواب وعلامة (×) أمام الخطأ فيما يأتي:

١ـ في قوله «جمل المنطق بالنحو» استعارة مكنية. ( )

٢ـ في قوله «لازم مذهبي» تشبيه. ( )

السؤال الرابع:

ماتَ أهلُ الجودِ لم يبقَ سوى ** مُقْرِفٍ أوْ مَنْ على الأصلِ اتَّكَلْ

أنـا لا أختـارُ تقبيـلَ يـدٍ ** قطعُها أجْملُ مِنْ تلكَ القُبَلْ

واتـركِ الدُّنيـا فمِـنْ عاداتِها ** تَخْفضُ العالي وتُعْلي مَنْ سَفلْ

(أ) ضع عنوانًا مناسبًا للأبيات.

(ب) اشرح الأبيات شرحًا أدبيًّا بأسلوبك.

(ج) هات معنى ما تحته خط في الأبيات السابقة.

(د) اذكر أثر البيئة في النص.

***

الدرس الخامسَ عشَرَ
من رسالة ديوانية تتضمن تهنئة بفتح حصن الأكراد
لمحيي الدين بن عبد الظاهر

أهداف الدرس:

بنهاية الدرس يتوقع أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يذكر ترجمة موجزة لمحيي الدين بن عبد الظاهر.

٢ـ يذكر مناسبة رسالة محيي الدين بن عبد الظاهر.

٣ـ يشرح الرسالة بأسلوبه الخاص.

٤ـ يحدد سماتِ شخصية الكاتب وخصائصَ أسلوبه.

٥ـ يذكر أثر البيئة في النص.

٦ـ يستخرج مظاهر الجمال من النص المختار.

« ... سَطَّرَ المَمْلُوكُ هذهِ البُشْرَى والسَّيْفُ والقلمُ يَسْتَمِدَّانِ: هَذا مِنْ دَمٍ وَهَذا مِنْ نَقْسٍ، وَيَمْضِيانِ: هَذا فِي رَأْسٍ وَهَذا فِي طِرْسٍ؛ وَيَتَجاوَبانِ: هَذا بِالصَّلِيلِ وَهَذا بِالصَّرِيرِ، وَيَتَناوَبانِ: هَذا يَسْتَمِيلُ وَهَذا يَسْتَمِيرُ؛ وَكُلٌّ مِنْهُما يُنَافِسُ الآخَرَ عَلى الْمُشَافَهَةِ بِخَبَرِ هَذا الفَتْحِ الذي ما سَمَتْ إليْهِ هِمَمُ الْمُلُوكِ الأَوَائِلِ، وَلا وُسِمَتْ بِهِ سِيَرُهُمُ التِي بَدَتْ أَجْيادُها مِنْ حُلاهُ عَواطِلَ؛ وَلا دَارَ فِي خَلَدٍ أَنَّ مِثْلَهُ يَتَهَيَّأُ فِي الْمُدَدِ الطَّوِيلَةِ، وَلا تَشَكَّلَ فِي ذِهْنٍ أَنَّهُ سَيُدْرَكُ بِحَوْلٍ وَلا حِيلَةٍ ....

فَمِنْ ذَلِكَ حِصْنُ الأَكْرَادِ الذِي تَاهَ بِعِطْفِهِ عَلَى المَمَالِكِ وَالْحُصُونِ، وَشَمَخَ بِأَنْفِهِ عَنْ أَنْ تَمْتَدَّ إلى مِثْلِهِ يَدُ الْحَرْبِ الزَّبُونِ؛ وَغَدا جَاذِبًا بِضِبْعِ الشَّامِ، وَآخِذًا بِمَخَانِقِ بِلادِ الإِسْلامِ؛ وَشَلَلاً فِي يَدِ البِلادِ، وَشَجًا فِي صَدْرِ العِبادِ؛ تَنْقَضُّ مِنْ عُشِّهِ صُقُورُ الأَعْداءِ الكاسِرَةِ، وَتَرْتَاعُ مِنْ سَطْوَتِها قُلُوبُ الْجُيوشِ الطَّائِرَةِ؛

وَتَرْبُضُ بِأَرْبَاضِهِ آسادٌ تَحْمِي تِلكَ الآجامَ، وَتُفَوِّقُ مِنْ قِسِيِّهِ سِهامٌ تُصْمِي مُفَوَّقَاتُ السِّهامِ؛ تُعْطِيهِ المُلوكُ الجِزْيَةَ عنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ، وَيَصْطَفِي كِرَامَ أَمْوالِهِمْ وَهُمْ صَابِرُونَ لا مُصَابِرُونَ»[١].

*** التعريف بالكاتب: سبقت ترجمته ضمن أعلام النثر في العصر المملوكي[٢].**

*** مناسبة الرسالة:**

هي رسالة ديوانية كتبها ابن عبد الظاهر (ت. ٦٩٢ هـ) على لسان الملك المنصور قلاوون (ت. ٦٨٩ هـ)، ووجهها إلى صاحب اليمن، يبشره بفتح الملك المنصور بن قلاوون مجموعة من الحصون على الساحل في طرابلس وصافيتا وأَنْطَرَسُوس وَمَرَقيَّة والمَرْقَب[٣]، وقد تهيَّأ لهم فتح حصن «صافيتا».

وكانت اليمن تحت سلطان الأيوبيين حكام مصر، عندما أرسل صلاح الدين أخاه «توران شاه» لضمها إلى المملكة تأمينًا لطرق المواصلات، فدامت المراسلات بينهما، ثم تواصلت في زمان الدولة المملوكية في مصر (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ)، والرسولية في اليمن (٦٢٦ ـ ٨٤٥ هـ) التي تعد من أعظم الدول التي حكمت اليمن منذ زوال مملكة حمير.

*** المعنى العام:**

لقد كتبت هذه الرسالة وأنا أنظر إلى السيف والقلم، فكلاهما يجاهد في سبيل الله، لكن مداد القلم من الحبر، ومداد السيف من الدم، وصوت القلم هو الصرير على صفحات الأوراق، وصوت السيف هو الصليل في ساحات المعركة، وكل منهما يتنافس على إذاعة هذا الخبر العظيم الذي لم يحلم به ملك من قبل، ولا تخيَّل أنَّ هناك حيلة أو وسيلة توصِّل إلى تحريره.

---

(١) سطَّر: كتب. المملوك: الخادم ويعني نفسه. يستمدان: يأخذان المداد وهو الحِبر. النَّقْس: الحِبْر. الطرس: الكتاب. الصليل: صوت السيف. الصرير: صوت القلم. يستمير: يطلب الميرة وهي الطعام. سمت: ارتفعت. هِمم: جمع همة وهي العزيمة. وُسمت: وُصفت. سيرهم: أخبارهم مفردها: سيرة، أجيادها: أعناقها. حلاه: زينته مفردها: حلية. عواطل: خاليات من الزينة. الخَلَد: البال والنفس، جمعها: أخلاد. يتهيَّأ: يتيسَّر. الحَوْل: القدرة على التصرف في الأمور. الحيلة: الخديعة، جمعها: حِيَل. تاه: افتخر. العِطْف: الجانب، يقال فلان يتيه بعطفه ويثني عطفه أي يميل بجانبه افتخارًا وإعجابًا بنفسه. شمخ بأنفه: تكبَّر. حرب زبون: أي شديدة لأنها تزبن الناس أي تصدمهم وتدفعهم. الضِّبع: ما بين الإبط إلى نصف العضد. أي ممسكًا ومسيطرًا على بلاد الشام. المخانق: جمع مَخْنق وهو الرقبة حيث يوضع حبل الخنق. الشجى: ما يقف في الحلق بحيث يكاد يختنق به المرء. تنقضُّ: تهوي بسرعة. ترتاع: تخاف وتفزع. سطوتها: بطشها. تربض: تقيم وتثبت. الأرباض: جمع ربض وهو المأوى. آساد: جمع أسد. الآجام: جمع أجمة وهي الغابة بها شجر كثير ملتف. فوَّق السهم جعل له وترًا يرمي به. القسيّ: جمع قوس. تُصْمي: تصيب. الجزية: ما يؤخذ من أهل الذمة. صاغرون: أذلاء. يصطفي: يختار. كرام أموالهم: أفضلها. مصابرون: ثابتون وصامدون في مواجهة العدو.

(٢) انظر صـ ١٣١.

(٣) هي من (القلاع والحصون) الشامية.

كيف لا وقد فتح الملك المنصور قلاوون حصن الأكراد، ذلك الحصن المنيع الذي أحدث شللاً في البلاد، وعطل مصالح العباد، بل كان بمثابة الحبل المربوط على رقاب الناس في الشام، والشيء المعترض في الحلق مما يعرض المرء للهلاك.

لقد تباهى هؤلاء الغاصبون بقوتهم، وأجبروا من حولهم على أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وعلى أن يخضعوا لابتزازهم مُكْرَهين مُسْتسلمين غير صامدين في المعركة ولا ثابتين.

*** مظاهر الجمال:**

- الرسالة قائمة على السجع وتوازن الجمل والفقرات، مما يعطي الكلام جرسًا موسيقيًّا عذبًا، وبخاصة إذا صدر من كاتب متمكِّن بعيد عن التكلف كابن عبد الظاهر، تجد هذا في قوله: (نقس، طرس)، (صرير، يستمير)، (الأوائل، عواطل)، (الطويلة، حيلة)، (الحصون، الزبون)، (الشام ، الإسلام)، (البلاد ، العباد) ... وهكذا من أول الرسالة إلى آخرها.
- في قوله: (صليل، صرير)، (يتجاوبان، يتناوبان)، (يستميل، يستمير)، (سمت، وسمت)، (صَابِرُونَ ، مُصَابِرُونَ) تعاون الجناس مع السجع لزيادة الجرس الموسيقي الصادر عن اتحاد أو تقارب الألفاظ في النطق، واختلافها في المعنى.
- وفي قوله : "السيف والقلم" استعارة مكنية حيث صور شخصين متنافسين كل منهما يحاول أن يفوز بشرف السبق إلى إذاعة هذا الخبر، وتصوير ذلك بأوصاف للبشر مثل: "يستمدان، يمضيان، يتجاوبان، يتناوبان..."فيه تشخيص للسيف والقلم، مما يثبت الصورة الخيالية في ذهن المتلقي، ويرسم مشهدًا سينمائيًّا مليئًا بالصوت والحركة.
- وفي قوله: (ما سَمَتْ)، (وَلا وُسِمَتْ)، (وَلا دَارَ)، (وَلا تَشَكَّلَ) تتوالى أساليب النفى لتدل على تعدد الصعوبات وتنوع العقبات في سبيل الوصول إلى هذا الحصن المنيع.
- وفي قوله: (خَلَدَ ـ ذِهن) جاءت الكلمتان نكرتين لإفادة العموم والشمول، فحلم الوصول إلى هذا الحصن المنيع كان بعيدًا عن الأذهان كافة بلا استثناء.
- وفي قوله: (تَاهَ بِعِطْفِهِ)، وقوله: (شَمَخَ بِأَنْفِهِ) استعارة مكنية، حيث شَبَّهَ الحصن بإنسان يستكبر ويستعلى تم حذف المشبه به ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو العِطْف والأنف وهما تصوران الحصن بصورة رجل متغطرس يحتقر كل من أمامه.

- وفي قوله: "حصن الأكراد" استعارة مكنية حيث صوره بصورة إنسان قوي متغطرس يمسك ببلاد الشام من كتفها، ويخنقها من رقبتها في قوله: (جَاذِبًا بِضِبْعِ الشَّامِ، وَآخِذًا بِمَخَانِقِ بِلادِ الإِسْلامِ) وفيها تجسيم وتشخيص، مما يبرز المعنى في صورة حسية واضحة، ويصور مدى الغطرسة لدى المحتلين لهذا الحصن، ومدى المعاناة التي يعانيها المسلمون من حوله.

- وفي قوله: (وغدا... شَلَلاً فِي يَدِ البِلادِ، وَشَجًا فِي صَدْرِ العِبادِ) تشبيهان حيث شَبَّه وجود ذلك الحصن في بلاد الشام بأنه كالشلل في عضو من أعضاء الجسم يعوق حركته، وكالشوكة المؤلمة في الصدر، يوشك المرء معها على الهلاك أو الاختناق، والتشبيهان يصوران الألم الشديد الذي يعاني منه المسلمون هناك.

- وفي قوله (صُقُورِ الأَعْداءِ الكاسرة) تشبيه من إضافة المشبه به إلى المشبه، حيث شبَّه الأعداء بالصقور الكاسرة التي تنقضُّ من أعلى على فريستها، والتشبيه يجسم المعنى بصورة معروفة تبرز مدى المعاناة التي يكابدها المسلمون، فقد كانوا كالطائر الوديع الذي ينقضُّ عليه صقر جارح أو عُقاب كاسر.

- وفي قوله: (قُلُوبُ الجُيوشِ الطَائِرة) كناية عن الخوف والفزع، حيث تكاد القلوب تطير من الصدور من هول الموقف.

- وفي قوله: (وَتَرْبُضُ بِأَرْبَاضِهِ آسادٌ) استعارة تصريحية، حيث صور مقاتلي الأعداء بالأُسود التي تقف في الغابة متأهبة للانقضاض على فريستها.

- وفي قوله: (عنْ يَدٍ) كناية عن الذل والانقياد، فهم يدفعونها بأيديهم دون وساطة أحد تجسيدًا لمعاني الخضوع والانكسار.

- وفي قوله: (وَهُمْ صَابِرُونَ لا مُصَابِرُونَ) قصر، طريقه العطف بلا، للدلالة على انحصار حالهم في ذل الصابر على الذل مكرهًا، لا المصابر الثابت في الميدان.

❊ ❊ ❊

التعليق على النص

أولاً: شخصية الكاتب من خلال النص:

١- رجل ذو مكانة اجتماعية في قومه.

٢- معتزٌّ بجيوش الخليفة وانتصاراته.

٣- لديه القدرة على التحليل والتصوير.

ثانيًا: خصائص أسلوب الكاتب من خلال النص:

١- الاعتماد على المحسنات البديعية، وخاصةً السجع.

٢- البراعة في التصوير، والدقة في التعبير.

٣- تأثره بالطريقة الفاضلية في الكتابة.

ثالثًا: أثر البيئة في النص:

١- تهنئة الملوك بعضهم بعضاً بالنصر.

٢- وجود أدباء كبار بديوان الإنشاء.

٣- السهام والقسي من أدوات الحرب في ذلك الوقت.

* * *

تدريبات

السؤال الأول:

(أ) من قائل النص؟ وما عنوانه؟ وما مناسبته؟

(ب) ما أبرز خصائص أسلوب الكاتب كما فهمت من النص؟

(جـ) هات من النص ما يدل على اعتماد الكاتب على السجع، وعلام يدل ذلك؟

(د) حفل النص ببعض الاستعارات الجميلة، اذكر اثنتين منها، وبين ما توحي به كل منهما.

السؤال الثاني:

قال محيي الدين بن عبد الظاهر في رسالة ديوانية:

«فَمِنْ ذَلِكَ حِصْنُ الأَكْرَادِ الذِي تَاهَ بِعِطْفِهِ عَلَى المَمَالِكِ وَالحُصُونِ، وَشَمَخَ بِأَنْفِهِ عَنْ أَنْ تَمْتَدَّ إلى مِثْلِهِ يَدُ الحَرْبِ الزَّبُونِ؛ وَغَدا جَاذِبًا بِضِبْعِ الشَّامِ، وَآخِذًا بِمَخَانِقِ بِلادِ الإِسْلامِ؛ وَشَلَلاً فِي يَدِ البِلادِ، وَشَجًا فِي صَدْرِ العِبادِ...».

(أ) اشرح الفقرة السابقة شرحًا أدبيًا.

(ب) استخرج من النص كنايتين وبين بلاغتهما.

(ج) ما الصورة البيانية في قوله: «وَشَلَلاً فِي يَدِ البِلادِ، وَشَجًا فِي صَدْرِ العِبادِ».

(د) اشرح كيف يبدو النص مرآة لعصره.

(هـ) (عِطْفه ـ الزَّبون ـ مخانق) ما جمع الكلمة الأولى، وما مرادف الثانية، وما مفرد الثالثة؟

* * *

الوحدة الثالثة
الأدب العربي في الأندلس

أهداف الوحدة:

بعد الانتهاء من هذه الوحدة ينبغي أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يتعرف على تأثير كل من الحياة السياسية والاجتماعية، والعلمية في النتاج الأدبي الأندلسي.

٢ـ يبين أثر الطبيعة في النتاج الأدبي الأندلسي.

٣ـ يحدد العوامل التي أدت إلى انتشار بعض الفنون الشعرية والنثرية في الأندلس.

٤ـ يسرد ترجمة لبعض الأدباء النابهين في الأندلس.

٥ـ يحفظ بعضًا من نصوص هذا العصر، ويمتلك القدرة على شرحها.

٦ـ يحدد أهم خصائص الشعر والنثر في الأدب الأندلسي.

الدرس السادس عشر

لمحة عن دولة الإسلام في الأندلس

أهداف الدرس:

بنهاية الدرس يتوقع أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يعلل تسمية الأندلس بهذا الاسم.

٢ـ يشرح كيف أثرت الحياة السياسية في الأندلس في النتاج الأدبي .

٣ـ يبين كيف أثرت الحياة الاجتماعية في الأندلس في النتاج الأدبي.

٤ـ يوضح كيف أثرت الحياة العلمية في الأندلس في النتاج الأدبي.

أولاً: التسمية:

سُمِّيت الأندلس بهذا الاسم نسبة إلى قبائل هَمَجِيَّة وّحْشِيَّة تسمى الوندال أو الفاندال احتلتها منذ القرن الخامس الميلادي، وسمتها باسمها فانْدَلُوسيا، أي بلاد الوندال، ولما دخلها العرب سموها (وَنْدَلُس)، ثم قلبوا الواو همزة فصارت أَنْدَلُس.

ثانيًا: الجغرافيا:

تقع الأَنْدَلُس (إسبانيا والبرتغال حاليًا) في الجنوب الغربي من قارة أوربا، وهي شبه جزيرة؛ حيث يحيط بها البحر المتوسط، والمحيط الأطلنطي من الشرق والجنوب والغرب، ولا يصلها بأوروبا إلا سلسلة جبلية وعرة هي جبال البرانس، ويفصلها عن قارة أفريقيا مضيق جبل طارق، وتبلغ مساحتها ٦٠٠ ألف كيلو متر مربعًا تقريبًا، وهي أرض سهلية بها بعض الجبال، وتجري فيها أنهار عديدة تجعل منها جنة خضراء.

ثالثًا: الحياة السياسية:

اصطلح المؤرخون على تقسيم أطوار دولة الإسلام في الأَنْدَلُس إلى العصور التالية:

١ـ عصر الولاة الفاتحين (٩٢ ـ ١٣٨هـ = ٧١١ ـ ٧٥٦م)، وقد تعاقب فيه على ولاية الأندلس ٢٢ واليًا، وقد فتح خلاله المسلمون جنوب فرنسا، ولكنهم توقفوا بعد هزيمتهم في معركة «بلاط الشهداء».

٢ـ عصر الدولة الأموية بالأَنْدَلُس (١٣٨ ـ ٤٢٢هـ = ٧٥٦ـ ١٠٣١م)، ويبدأ بتأسيس عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) دولة لبني أمية في الغرب بعد سقوطها في الشرق، وفيه بلغت الدولة أقصى مجدها وبخاصة في زمن عبد الرحمن الناصر والحكم المُسْتَنْصر.

٣ـ عصر ملوك الطوائف (٤٢٢ ـ ٤٨٤هـ = ١٠٣١ ـ ١٠٩١م)، وفيه استقل كل زعيم بالإمارة التي تحت يده، ودخلوا في صراعات مريرة فيما بينهم، واستعان بعضهم بالأعداء على جيرانه المسلمين، وكادت الدولة تنتهي لولا تدخل يوسف ابن تاشفين وانتصاره على النصارى في معركة «الزلاقة» عام ٤٧٩هـ.

٤ـ عصر المرابطين (٤٨٤ ـ ٥٤١هـ = ١٠٩١ ـ ١١٤٧م)، وفيه عبر يوسف ابن تاشَفِين المضيق بعد استشارة الفقهاء، وضمَّ الأندلس إلى دولته بالمغرب، واستعاد بعض المدن التي احتلها النصارى في زمن ملوك الطوائف.

٥ـ عصر الموحدين (٥٤١ ـ ٦٦٤هـ = ١١٤٧ ـ ١٢٦٥م)، وفيه قامت دولة الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي بضم أملاك المرابطين في المغرب والأندلس إليها، وحققوا انتصارًا كبيرًا على النصارى في معركة (الأَرَك)، لكنَّهم انهزموا بعدها في معركة (العِقَاب) مما أدى إلى انفراط عقد الدولة، وضياع معظم المدن الأندلسية.

٦ـ عصر بني الأحمر (٦٣٥ ـ ٨٩٧هـ = ١٢٣٧ ـ ١٤٩٢م)، وفيه انحصر ملك المسلمين في مملكة غَرناطة (الحمراء) التي كان يحكمها بنو الأحمر، حتى سلَّم «أبو عبد الله الصغير» مفاتيح (الحمراء) في ٢ ربيع الأول ٨٩٧هـ = ٢ يناير ١٤٩٢م، ولما رأته أمه يبكي ساعة الرحيل قالت له:

ابْكِ مثلَ النساءِ مُلْكًا مُضَاعًا ❊❊ لَمْ تُـحَافِظْ عليْهِ مثلَ الرِّجَالِ[١]

رابعًا: الحياة الاجتماعية:

تعددت الأجناس والأعراق التي سكنت الأندلس مما أدى إلى ظواهر اجتماعية خطيرة منها:

---

(١) مضاعًا: مضيَّعًا ومفرَّطًا فيه.

١ـ أدى التزاوج بين العناصر المختلفة، وبخاصة بين الجنس العربيّ والجنس الأوربي الأشقر إلى نشأة جيل من (المُولَّدين)، وقد وصل بعضهم إلى كرسيّ الحكم، مما كان له آثار خطيرة على مستقبل دولة الإسلام بالأندلس.

٢ـ أدى الصراع بين الأجناس المختلفة، وبخاصة بين العرب والبربر إلى فتن داخلية وحروب أهلية كثيرة.

٣ـ أدَّى التسامح الديني الذي أبداه المسلمون تجاه اليهود والنصارى في الأندلس إلى وصول نفر من غير المسلمين إلى مراتب عالية كالوزارة والولاية على بعض الأقاليم، وقد أغرى ذلك بعضهم بالثورة على الدولة.

٤ـ أدَّى الاحتكاك اللغوي بين اللغة العربية والبربرية واللاتينية إلى نشوء لهجة محلية هي العامية الأندلسية التي ضمت خليطًا من هذه اللغات المختلفة.

٥ـ ارتقت الحضارة الإسلامية بالمجتمع الأندلسي، فاعتنوا ببناء القصور، وعمارة المساجد، وتنسيق الحدائق، والتفنن في المآكل والملابس إلى حد بعيد.

٦ـ انتشرت في المجتمع الأندلسي مجالس الغناء التي تدار فيها كؤوس الخمر، مما ساعد على فتور الهمم، وعجَّل بسقوط الأندلس.

٧ـ حظيت المرأة في المجتمع الأندلسي بقدر من الحرية، فكانت تخرج سافرة، وتركب مع الأمير في موكبه، بل تتولى الكتابة لبعض الأمراء، وتتصدر في بعض المجالس.

خامسًا: الحياة العلمية:

ازدهرت الحياة العلمية في الأندلس؛ حتى صارت قرطبة عاصمة العلم والثقافةفي أوروبا، وكان كل الشباب الأوربيين الراغبين في العلم يتعلمون اللغة العربية ويأتون إلى معاهدها العلمية للدراسة فيها، ويمكن أن نعزو هذا الازدهار إلى عدة عوامل:

١ـ تشجيع الخلفاء والأمراء للعلم والعلماء ولا سيما في مُدّة الخلافة الأموية، حيث كان الخلفاء يجزلون العطاء للعلماء، فقد أعطى الحكم المُسْتنصر ابن عبد الرحمن الناصر لأبي الفرج الأصفهانيّ مؤلف كتاب الأغاني ألف دينار[1] مقابل أول نسخة من كتاب الأغاني ليظهر هذا الكتاب في قرطبة قبل أن يظهر في بغداد.

(١) يعادل هذا المبلغ أكثر من مليون جنيه مصري الآن؛ لأن الدينار وزنه أربعة جرامات وربع من الذهب، فكأنَّه أعطاه أربعة كليو جرامات وربع من الذهب الخالص.

٢ـ الاهتمام بالمكتبات وتزويدها بنفائس الكتب، فقد كان للحكم المستنصر مكتبة مليئة بكنوز العلم والمعرفة، وقد بلغ عدد مجلداتها أربعمائة ألف مجلد.

٣ـ إقبال الناس في الأندلس على العلم والعلماء وتقديرهم واحترامهم، مما دفع عددًا من علماء المشرق كأبي علي القاليّ وصاعد البغدادي إلى الرحلة للإقامة في الأندلس.

٤ـ التواصل بين علماء المشرق والمغرب، فقد كانت الحدود مفتوحة، وكان أهل الأندلس يرحلون لطلب العلم من المشرق، وقد رحل «بَقِيّ بن مَخْلَد» لطلب الحديث من بغداد إلى قرطبة ماشيًا، كما كانت الكتب التي تؤلف في المشرق تصل إلى الأندلس بسرعة خارقة، والعكس.

* * *

تدريبات

السؤال الأول: أجب عن الأسئلة الآتية:

١ـ اتسم المجتمع في الأندلس بسمات فريدة. اشرح ذلك مبينًا أهم تلك السمات.

٢ـ مرَّت دولة الإسلام في الأندلس بست مراحل. اشرح ذلك.

٣ـ صفْ الأندلس من حيث الطبيعة الجغرافية.

السؤال الثاني: علِّلْ لما يأتي:

١ـ تسمية الأندلس بهذا الاسم.

٢ـ ازدهار الحياة العلمية في الأندلس.

٣ـ وصول بعض النصارى واليهود إلى مناصب مهمة في الأندلس.

السؤال الثالث: اختر الإجابة الصحيحة من البدائل المطروحة بين القوسين:

١ـ من أعظم المكتبات في الأندلس المكتبة التي أنشأها

(عبد الرحمن الداخل ـ الحكم المستنصر ـ المعتمد بن عباد).

٢ـ تبلغ مساحة الأندلس

(٥٠٠ ألف كيلومتر مربع ـ ٦٠٠ ألف كيلومتر مربع ـ مليون كيلومتر مربع).

٣ـ قائل البيت:

ابْكِ مثلَ النساءِ مُلْكًا مُضَاعًا ** لَمْ تُـحَافِظْ عليْهِ مثلَ الرِّجَالِ

هو (لسان الدين بن الخطيب ـ المعتمد بن عباد ـ والدة أبي عبد الله الصغير).

السؤال الرابع: ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (×) أمام العبارة غير الصحيحة فيما يأتي:

١ـ تشمل الأندلس الآن معظم أراضي دولتي أسبانيا والبرتغال حاليًا. ( )

٢ـ ظهرت أول نسخة من كتاب الأغاني في بغداد. ( )

٣ـ حافظت اللغة العربية في الأندلس على عروبتها الصافية. ( )

٤ـ آخر حكام غرناطة أبو عبد الله الصغير. ( )

السؤال الخامس: أكمل مكان النقط في الجمل الآتية:

١ـ رحل .... من قرطبة إلى بغداد ماشيًا.

٢ـ من علماء المشرق الذين رحلوا إلى الأندلس .... ، ....

٣ـ المولَّدون هم ....

❊ ❊ ❊

الدرس السابع عشر
الشعر العربي في الأندلس

أهداف الدرس:

بنهاية الدرس يتوقع أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يحدد أهم عوامل ازدهار الشعر الأندلسي.

٢ـ يذكر الأغراض التي نافس فيها الأندلسيون المشارقة.

٣ـ يذكر أسباب ازدهار شعر الطبيعة في الأندلس.

٤ـ يذكر أهم خصائص الشعر في الأندلس.

٥ـ يشرح المقصود بفن الموشحات وأسباب ظهورها.

* عوامل ازدهار الشعر:

ازدهر الشعر العربي في هذه البقعة النائية التي تعرَّبت سريعًا، وأسهم أهلها في تحقيق نهضة أدبية قليلة النظير، ويرجع هذا الازدهار إلى عدة أسباب:

١ـ كثرة العرب الوافدين إلى الأندلس، سواء في الجيش الفاتح، أو في موجات الرحلة التي توالت إلى هناك، والحنين إلى الشعر متأصل في نفس العربي، ويجري في وجدانه جريان الدم في العروق.

٢ـ طبيعة البيئة الأندلسية الساحرة، وما فيها من جمال خَلَّاب يحمل الساكنين بها على قرض الشعر، ويدفعهم إليه دفعًا.

٣ـ إقبال الخلفاء والأمراء والوزراء على كتابة الشعر وتسابقهم في ذلك؛ مما حمل الشعب جميعه علي الإقبال عليه، والتنافس فيه.

٤ـ تشجيع القائمين على أمر البلاد للشعر والشعراء، إذا آثروهم بأسمى المناصب ومنها الوزارة، وأغدقوا عليهم العطايا، واتخذ بعضهم ناديًا يجتمع فيه بالشعراء مرة كل أسبوع، ليستمع إلى أشعارهم، كالمُعْتَضد بن عباد، والمنصور بن أبي عامر.

شيوع الرغبة في الغناء بسبب غنى البلاد، وترف أهلها، وميلهم إلي ضروب التسلية المختلفة، وعلى رأسها الاستماع والاستمتاع بقصائد الشعر التي تغنَّى.

٥ـ المنافسة الشديدة بين الأندلسيين والمشارقة، مما حمل أهل الأندلس على تجويد الشعر إثباتًا لقدرتهم على المنافسة، وجدارتهم بالتميز.

*** أهم أغراض الشعر:**

كتب الأندلسيون في جُلِّ الأغراض الشعرية التي عالجها المشارقة، ونافسوهم في أغراض منها المدح والهجاء والرثاء والغزل، وتفوقوا عليهم في أغراض منها شعر الطبيعة ورثاء المدن والممالك الزائلة، وقصروا عنهم في أغراض منها الحكم والأمثال والشعر الفلسفي، على نحو ما سيتجلى في عرض الأغراض الآتية:

أولاً: الأغراض التي نافس فيها الأندلسيون المشارقة:

هناك مجموعة من الأغراض المرتبطة بالنفس الإنسانية، والتي لا يظهر فيها أثر البيئة كثيرًا، فكل إنسان سَوِيّ يفرح بالنصر والعطاء فيمدح، ويعتزُّ بنعم الله عليه فيفخر، ويحزن على الفراق فيرثِي، ويغضب من الإساءة فيهجو، ويميل إلى الجمال فيتغزل، ويحتاج إلى تسهيل مبادئ علم للناشئة فينظم لهم قواعده... وهكذا، وقد شارك الأندلسيون المشارقة في معالجة هذه الأغراض على النحو التالي:

١ـ المدح:

تكاثر المدَّاحون في الأندلس، وبخاصة في عصر الدولة الأموية؛ لأن أمراء الأمويين كانوا يجزلون العطاء للشعراء من ناحية، وحققوا انتصارات مهمَّة تحمل الشعراء على امتداحهم، ومن أبرز شعراء المدح هناك: ابن عبد ربه، وابن هانئ الأندلسي، وابن درَّاج القَسْطَلِّي، وعُبادة بنُ ماءِ السماء، وابن اللبَّانَة... وغيرهم.

* من أروع نماذج شعر المديح في الأندلس قصيدة أبي بكر محمد بن عمَّار في مدح المعتضد، التي مطلعها:

أدِرِ الزُّجاجَةَ فالنّسيمُ قَدِ انبرَى ⁂ والنَّجْمُ قدصَرَفَ العِنَانَ عن السُّرَى [١]

وقد استحسنها الخليفة المُعْتَضِد، وأمر له بمال وثياب ومركب، وأن يكتب في دواوين الشعراء، وتوثقت الصلة بينه وبين ولي العهد «المعتمد»، وأصبح لا يستغني عنه في ساعة من ليل أو نهار.

---

(١) انبرى: عرض، العِنان: لجام الدابة، السُّرى: السير من أول الليل.

وسترد أبيات من هذه القصيدة العصماء مشروحة في قسم النصوص الأدبية.

وقد مدح شعراء الأندلس الرسول ﷺ بقصائد عديدة، لعل أشهرهم ابن جابر الأندلسيّ الضرير الذي كتب عددًا من القصائد في المديح النبوي، منها قصيدة ضمَّنها أسماء جميع السور القرآنية بترتيب المصحف الشريف، وله قصيدة بديعية في مدح الرسول ﷺ على نمط بديعية صفي الدين الحلي السابقة الذكر في العصر المملوكي، يقول فيها:

بِطَيْبَةَ انـزِلْ، وَيَمِّمْ سَيِّدَ الأُمَمِ ** وَانشُر لَهُ المَدحَ وَانثُرْ أَطيبَ الكَلِمِ [١]

٢ـ الفخر:

ما برِح الشعراء يتغنون بمحامدهم على مرِّ العصور، مُجَسِّدين ما يرونه من أخلاق مثالية تمثَّلت فيهم من وفاء ومروءة وشجاعة ومعرفة... إلخ، وقد بدا لشعراء الأندلس أن يعلنوا عن مفاخرهم في مواجهة المشارقة الذين كانوا يحتقرونهم، من هؤلاء الفقيه الكبير ابن حَزْم الذي أعلن عن مفاخِره أمام الذين يعرضون عن علومه، ويبحثون عن علوم الشرق قائلاً:

أنـا الشَّـمْسُ في جَـوِّ العلـومِ مُنيرةٌ ** ولكـنَّ عَيْبـي أنَّ مَطْلَعِـيَ الغَـرْبُ

ولوْ أنَّني مِـنْ جَانِبِ الـشَّرْقِ طَالِعٌ ** لجَدَّ عـلى ما ضاعَ مِنْ ذِكْرِيَ النَّهْبُ

ولِي نَحْـو أكْنـافِ العِـراقِ صَبابـةٌ ** ولا غَرْوَ أنْ يَسْتَوْحِشَ الكَلِفُ الصَّبُّ

فـإنْ يُنْـزِلِ الرحمـنُ رَحْـلِي بينهـمْ ** فَحَينئـذٍ يَبْـدو التأسُّـفُ والكَـرْبُ [٢]

وليس هذا من باب الفخر الكاذب، فقد كان الرجل شمسًا منيرة في دنيا العلوم، والشرق والغرب الآن عيال على مؤلفاته النفيسة، لكنَّ الناس في عصره كانوا يتطلعون إلى الغريب الوافد من المشرق؛ لأنَّ زامر الحيِّ لا يُطْرِب.

٣ـ الهجاء:

تعوَّد الشعراء في كل زمان ومكان على صبِّ اللعنات على أعدائهم، والسخرية من خصومهم، والتهوين من شأن منافسيهم، وقد كانت هناك صراعات عديدة في الأندلس، بين أصحاب الديانات المختلفة، والأعراق المتباينة؛ مما أشعل نار الهجاء بين الفريقين، وقد برع في هذا الغرض شعراء كثيرون

(١) طَيْبَة: اسم من أسماء المدينة المنورة، يمِّمْ: اقصد. سيد الأمم: الرسول ﷺ، الكلم: الكلام.

(٢) النهب: الغارة والسلب. أكناف: جوانب ونواحي مفردها: كنف. صبابة: شوق. لا غرو: لا عجب. يستوحش: يشعر بالوحدة. الكَلِف الصبُّ: المحبُّ المشتاق. نزول الرحل: كناية عن الإقامة والاستقرار.

في الأندلس مثل: القِلْفَاط، وابن سارة، والأبيض، واليَكِّي، والسُّمَيْسِر، وهذا الأخير كان حادَّ اللسان في الهجاء، وقد جمع هجاءه في كتاب سماه: «شفاء الأمراض في أخذ الأعراض»

ومن نماذج الهجاء لابن سهل اليكى فى هجاء بعض البلاد:

يا أهل مكرٍ لقد ساءتْ ضمائرُكم ** فأصبحت فيكم الأراء متفقةْ

كل امرئ منكم قد حاز منقصةً ** بها أحاطَ كدور العين بالحدقة

٤ـ الغزل:

ازدهر فنُّ الغزل في الأندلس بسبب نهضة فن الغناء هناك، والغزل أقرب الأغراض إلى الغناء، بالإضافة إلى حالة الترف والفراغ التي عاشها الأندلسيون زمن قوة الدولة وامتلاء خزائنها.

ونحن لا نكاد نجد شاعرًا بارزًا إلا وله سهم في باب الغزل، ولكنَّ أشهرهم على الإطلاق ابن زيدون الذي اشتهر بحب ولاَّدة بنت الخليفة المُسْتكفي، وكانت شاعرة متحرِّرة بارعة الجمال، وستأتي ترجمته مع شيء من نونيته.

ومن روائع شعر الغزل هناك قصيدة ابن سَهْل الأندلسي التي يقول فيها:

يا حُسنَهُ وَالحُسنُ بَعضُ صِفاتِهِ ** وَالسِّحْرُ مَقصورٌ عَلى حَرَكاتِهِ

عَبَثَتْ بِقَتلِ مُحِبِّهِ لَحَظاتُهُ ** يا رَبِّ لا تَعْتَبْ عَلى لَحَظاتِهِ

صافَحتُهُ وَاللَيلُ يُذكي تَحْتَنا ** نارَيْنِ مِن نَفسي وَمِن وَجَناتِهِ

وَضَمَمْتُهُ ضَمَّ البَخيلِ لِمالِهِ ** يَحنو عَلَيهِ مِن جَميعِ جِهاتِهِ

أَوثَقْتُهُ في سَاعِدَيَّ لِأَنَّهُ ** ظَبيٌ خَشِيتُ عَلَيهِ مِن نَفَراتِهِ (١)

٥ـ الشعر التعليمي:

اقتضت نهضة الحياة العقلية، واتساع دائرة العلوم والفنون وجود الشعر التعليمي لتسهيل السبيل أمام الناشئة للحصول على ضوابط العلم وأصوله.

وقد نهض في الأندلس عدد كبير من الشعراء بهذه المهمة، فنظموا النحو والصرف والعروض والفقه والفرائض وغيرها، واتجه كثير منهم إلى نظم أحداث التاريخ منهم يحيى ابن الحَكَم الغَزَال الذي نظم

(١) عبثت: لعبت. لحظاته: نظراته. يذكي: يُشعل. وجناته: جمع وجنة وهي أعلى الخدّ. يحنو: يعطف. أوثقته: قيدته. خشيت: خفت. نفراته: محاولته الهرب والفرار.

أرجوزة طويلة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، وجاء من بعده ابن عبد ربِّه صاحب العقد الفريد ونظم قصيدة من ٤٥٠ بيتًا سجَّل فيها انتصارات عبد الرحمن الناصر، وجاء من بعده أبو طالب عبد الجبَّار ونظم قصيدة في تاريخ الأندلس حتى عصر المرابطين.

* من نماذج الشعر التعليمي في الأندلس منظومة ابن عبد ربِّه في العروض، منها قوله في باب الزحافات والعلل:

فـكُلُّ جـزءٍ زالَ منـهُ الثـاني ** من كُلِّ ما يَبدو على اللِّسـانِ

وكانَ حرفاً شـأْنُهُ السُّـكونُ ** فإنَّـه عنـدي اسْـمُهُ مَخْبـونُ

وإنْ وجدتَ الثانيَ المنْقوصا ** مُحـرَّكاً سَـمَّيْتَهُ المَوْقُوصـا

وإن يَكُـنْ مُحـرَّكاً فَسُـكِّنا ** فذلـكَ المُضْمَـرُ حَقًّـا بَيِّنـا

والرابـعُ السـاكِنُ إذْ يـزُولُ ** فذلـكَ المَطْـويُّ لا يَحُـولُ

وإنْ يـزُلْ خامسُـهُ المسـكَّنُ ** فذلكَ المَقبوضُ فهو يَحسُـنُ

وإنْ يكُـن هـذا الـذي يَزولُ ** مُحـرَّكًا فإنَّـهُ المَعْقـولُ

وإنْ يكُـنْ مُحـرَّكاً سَـكَّنْتَهُ ** فَسـمِّهِ المَعصوبَ إنْ سَـمَّيْتَهُ

وإنْ أزَلْـتَ سـابعَ الحُـروفِ ** سَـمَّيْتَهُ إذ ذاكَ بالمَكْفُـوفِ (١)

ثانيًا: الأغراض التي تفوّق فيها الأندلسيون على المشارقة:

١ـ شعر الطبيعة:

تفوق الأندلسيون على المشارقة في شعر الطبيعة بسبب ما حبا الله به أرض الأندلس من طبيعة ساحرة تنطق حدائقها بالجمال، وتفيض أنهارها بالبهاء، وقد تعلق الشعراء ببلدهم، وأحبوها إلى حد العشق، وظلوا يتذكرونها في كل وطن يرحلون إليه، ولا عجب فهي الأرض التي وصفها ابن خَفاجَة بقوله:

يَـا أَهْـلَ أَنْدَلُـسٍ للهِ دَرُّكُـمُ ** مـاءٌ وَظِـلٌّ وَأَنْهارٌ وَأَشْـجارُ

---

(١) من مصطلحات علم العروض: الخبن: وهو حذف الثاني الساكن. والوقص: وهو حذف الثاني المتحرك. والإضمار: وهو تسكين الثاني المتحرك. والطيّ: وهو حذف الرابع الساكن. والقبض: وهو حذف الخامس الساكن. والعقْل: وهو حذف الخامس المتحرك. والعصب: وهو تسكين الخامس المتحرك. والكفّ: وهو حذف السابع الساكن.

مـا جَنَّـةُ الخُلْـدِ إلَّا في دِيارِكُمُ ٭٭ وَلَو تَخَيَّرتُ هَذى كُنتُ أَختارُ
لا تَتَّقُوا بَعدَها أَنْ تَدخُلوا سَقَرًا ٭٭ فَلَيْـسَ تُدخَلُ بَعدَ الجَنَّةِ النارُ[١]

وقد نجح الأندلسيون في تشخيص مفردات الطبيعة، فرأينا ابن خفاجة يخاطب الجبل، ويبث همومه أمامه، كأنَّه إنسان يسمع شكواه، وستأتي بعض أبياتها مشروحة في ترجمته، ومطلعها:

وأرعـنَ طَمّاحِ الذُّؤابـةِ بَاذخٍ ٭٭ يُطاولُ أعنانَ السماءِ بغاربِ[٢]

كما نجحوا في مزج شعر الغزل بوصف الطبيعة فأخرجوا لنا صورًا فائقة الجمال، من ذلك قول ابن زيدون وقد تذكر محبوبته ولاّدة وهو في مدينة الزهراء بضواحي قرطبة:

إنِّي ذَكَرْتُـكِ بالزَّهْـراءِ مُشْـتاقا ٭٭ والأفْقُ طَلْقٌ ووجْهُ الأرْضِ قدْ راقا
وللنَّسـيمِ اعْتـلالٌ فِي أصائِلِـهِ ٭٭ كأنَّـما رَقَّ لِي فاعْتَـلَّ إشْـفاقا
والروضُ عنْ مائِهِ الفِضِيّ مُبْتَسِمٌ ٭٭ كَـما شَقَقْتِ عَـنِ اللَّبّـاتِ أطْواقَا[٣]

ولا شكَّ أنَّ الأندلسيين بهذا التشخيص لمفردات الطبيعة، والتفاعل الحي معها، وصبغ قصائد الغزل بأصباغها قد سبقوا المذهب الرومانسيَّ الذي شاع في أوربا منذ أكثر من قرنين؛ لأنَّ قصيدة ابن خفاجة وقصيدة ابن زيدون أسبق من هذا المذهب بعدَّة قرون.

٢ـ رثاء المدن والممالك الزائلة:

الأندلس هي البقعة الوحيدة التي فتحها المسلمون وخرجوا منها نهائيًّا، بسبب ما وقعوا فيه من حب للدنيا، وترك للجهاد، وتفرق ممقوت أدى في زمن ملوك الطوائف إلى أن يستعين الأخ بأعدائه على أخيه، ومن ثم بدأت المدن الأندلسية تتساقط مدينة إثر مدينة، وكانت مدينة «طُلَيْطِلة» في وسط الأندلس أولى المدن سقوطًا، عام ٤٧٨ هـ، وعندما سقطت قال الشاعر ابن العَسَّال الطُلَيْطِلي:

يا أهلَ أنْدلسٍ شُدُّوا رِحالكمُ ٭٭ فَـما المقـامُ بهـا إلاّ مـن الغَلَـطِ
السِّلكُ يُنْثَرُ من أطرافِهِ، وأرى ٭٭ سِلْكَ الجزيرةِ مَنْثُورًا مِنَ الوَسَطِ

---

(١) لله دركم: تعبير يدل على التعجب والمدح. هذي: هذه. تتقوا: تخافوا. سقر: اسم من أسماء النار.

(٢) أرعن: مرتفع. طمَّاح: مرتفع. الذؤابة: من كل شيء أعلاه، جمعها: ذوائب. باذخ: عالٍ. أعنان: جمع عنان وهو السحاب. غارب: أعلى كل شيء.

(٣) الأفق: الفضاء، الجو. طلق: خال من الحر أو البرد. راق: أعجب الناظرين. نسيم عليل: هادئ جميل. أصائل: جمع أصيل وهو الوقت من العصر إلى المغرب. الروض: الأرض المخضرة. اللبات: جمع لبة وهي موضع القلادة من الصدر.

مَنْ جَاوِرَ الشَّرَّ لا يأمنْ بوائِقَهُ ⁂ كيف الحياةُ مع الحيَّاتِ في سَفَطِ؟[١]

وعندما أزال المرابطون ملك بني عباد في مدينة إشبيلية، واقتادوا المُعْتَمِد بن عبَّاد أسيرًا إلى سجنه في «أغمَات» ببلاد المغرب جعل شاعرهم أبو بكر بن اللبَّانَة يرثي دولة بني عبَّاد بداليَّته الرائعة:

تبكـي السـماءُ بِمُـزْنٍ رائِـحٍ غادِ ⁂ عـلى البهاليـلِ مـن أبنـاء عبّـادِ

على الجبالِ التي هُدَّتْ قواعِدُها ⁂ وكانتِ الأرضُ منهمْ ذاتَ أوْتادِ

ياضيفُ أقْفَرَبَيْتُ المَكْرُماتِ فخُذْ ⁂ في ضَمِّ رَحْلِكَ واجْمَعْ فَضْلَةَ الزَّادِ

ويـا مُؤَمِّـلَ واديِهِـمْ لِيَسْـكُنَهُ ⁂ خَفَّ القَطينُ وجَفَّ الزرعُ بالوادِي[٢]

وأشهر القصائد في هذا المقام نونية أبي الطيِّب الرُّنْدِي في رثاء الأندلس، وهي قصيدة بلغت شهرتها الآفاق.

ثالثًا: الأغراض التي قصَّر فيها الأندلسيون عن المشارقة:

قصر الأندلسيون عن المشارقة في الحكم والزهد والفلسفة والتصوف، وذلك يرجع إلى عدة أسباب أهمها:

أ ـ أنَّ الفلسفة والتصوف كانت من العلوم التي حاربها الفقهاء في الأندلس، حيث اتهموا بعض الفلاسفة بالزندقة، وأحرقوا كتبهم وذلك في حقبة غير طويلة من الزمن.

ب ـ أنَّ البلاد كانت تعيش في غنى، وأهلها يميلون إلى الترف، فغرض الزهد بعيد عن حياتهم الواقعية.

ج ـ أنَّ علومهم كانت مستمدة من علوم الشرق خاصة، ولم تنشأ عندهم حركة ترجمة واسعة للفلسفة غير الإسلامية كما حدث في بغداد.

وليس معنى ذلك أن الأدب الأندلسي خلا من هذه الأغراض، فقد وُجِد هناك فلاسفة كبار مثل ابن باجَة، وابن طُفَيْل، وابن رُشْد، ومتصوِّفة مشهورون مثل ابن عَرَبي والشَّشْتَرِي وابن سَبْعِين، وشعراء حكماء، ودعاة إلى الزهد والورع، من ذلك قول ابن عبد ربِّه صاحب كتاب «العقد الفريد»:

---

(١) ينثر: تتناثر حباته عند انقطاعه. بوائقه: شروره. الحيات: الثعابين. سفط: وعاء.

(٢) المزن: جمع مزنة وهي السحابة. البهاليل: جمع بهلول وهو السيد الكريم الجامع لصفات الخير. أقفر: خلا وأوحش. الرحل: متاع المسافر. مؤمل: راغب. القطين: السكان.

إنَّ الذيـن اشْـتروا دنْيـا بآخِـرةٍ ✽✽ وَشِـقْوَةً بنعِيـمٍ، سَـاءَ مـا تَجِرُوا

يا مَنْ تَلَهَّى وشَيْبُ الرأسِ يَنْدُبُهُ ✽✽ ماذاالذي بعدَوَخْطِ الشَّيْبِ تنتظرُ

لو لم يكنْ لك غيرَ الموتِ موعظةٌ ✽✽ لـكانَ فيهِ عـنِ اللَّـذاتِ مُزْدَجَرُ[1]

المُوَشَّحات الأندلسيَّة

✽ تعريف المُوَشَّحات:

الموشحات لغة: مشتقة من الوشاح وهو: خَيْطان متباينان من لؤلؤ وجوهر يعطف أحدهما على الآخر تتزين بهما المرأة.

واصطلاحًا: عرفها ابن سَناء المُلْك في كتابه «دار الطراز في عمل الموشحات» بأنَّها: «كلام منظوم على وزن مخصوص».

✽ مُبْتكر فن الموشحات: اختلف الباحثون في أول من ابتكر فن الموشحات، فقيل: الأمير الشاعر عبد الله بن المعتزّ، وقيل: ابن عبد ربِّه صاحب العقد الفريد، وقيل عُبادة بن ماء السماء، والصواب الذي عليه جمهور المؤرخين والباحثين أنَّه مُقَدَّم بن مُعَافَى القُبَّرِيّ من شعراء الأميرعبد الله بن محمد المرواني، وقد عاش في القرن الثالث الهجري.

✽ أسباب نشأة الموشحات بالأندلس:

١ـ انتشار الغناء في الأندلس، وبخاصة بعد أن وفد المغنِّي «زِرْياب» من بغداد إليها، وأصبح الملحنون في حاجة إلى قالب شعري جديد.

٢ـ تعدد اللغات في الأندلس، ووجود عامية محلية هي خليط من العربية والبربرية واللاتينية، وأصبح العامة الذين يتكلمون بها في حاجة إلى فنٍّ تستخدم فيه هذه اللغة لمخاطبتهم والتعبير عنهم.

٣ـ الإحساس بالملل من الأوزان التقليدية والرغبة في قالب شعري جديد يعبر عن هذه البيئة وعن أهلها.

---

(١) شقوة: الشقاء والتعاسة، ومضادها: النعيم. ما تجروا: ما اشتغلوا به من تجارة خاسرة. يندبه: يدعوه. وخط الشيب: انتشاره في الرأس. مزدجر: مانع ورادع.

*** بناء الموشحات:**

تتكون الموشحة من عنصرين رئيسين يشبهان خيطي الوشاح هما:

١ـ الأقفال (جمع قُفْل) وهي مجموعة الأشطار التي تبدأ بها الموشحة، وتتكرر بعد كل دور من أدوارها، ولا بدَّ أن تتفق جميعًا في الوزن والقافية والعدد، ويسمى القفل الأول «المطلع»، ويسمى القفل الأخير «الخَرْجَة».

٢ـ الأدوار (جمع دوْر): وهي مجموعة الأشطار التي تلي الأقفال، وتكون ثلاثة غالبًا، وقد تزيد إلى خمسة أو أكثر، وتختلف قافية كل دور عن الذي يليه، ولكن الأدوار تتفق جميعًا في عدد الأشطار.

والموشحة غالبًا تتكون من ستة أقفال (حيث يكون القفل في البداية والنهاية)،وخمسة أدوار.

*** نموذج للموشحات:** موشحة أبي بكر محمد بن زُهْر الإشْبِيليّ:

أَيُّها السَّـاقي إِلَيكَ المُشْـتكَى *** قَـدْ دَعَونـاكَ وَإِن لَمْ تَسـمَعِ

وَنَديــمٌ هِمْــتُ فِي غُرَّتِــهِ

وَشَرِبـتُ الـراحَ مِـنْ رَاحَتِـهِ

كُلَّـمَا اسْـتَيقَظَ مِـنْ سَـكْرَتِهِ

جَـذَبَ الـزِقَّ إِلَيـهِ وَاتَّـكَا *** وَسَــقَانِي أَرْبَعًــا فِي أَرْبَـعِ

غُصْنُ بَانٍ مَالَ مِنْ حَيْثُ اسْتَوَى

بَاتَ مَنْ يَهْوَاهُ مِنْ فَرْطِ الجَوَى

خَافِقَ الأَحْشَاءِ مَوْهُونَ القُوَى

كُلَّـمَا فَكَّـرَ فِي البَـيْنِ بَكَـى *** مَـا لَـهُ يَبْكِـي لِمَـا لَمْ يَقَـعِ

مَـا لِعَيْنِـي عَشِـيَتْ بِالنَظَـرِ

أَنْكَـرَت بَعـدَكَ ضَـوْءَ القَمَـرِ

فَـإِذَا مَـا شِـئْتَ فَاسْـمَعْ خَبَرِي

عَشِيَتْ عَيْنَايَ مِنْ طُولِ البُكَا ** وَبَكَى بَعْضِي عَلَى بَعْضِي مَعِي

لَيْسَ لِي صَبْرٌ وَلاَ لِي جَلَدُ

يَا لَقَوْمِي عَذَلُوا وَاجْتَهَدُوا

أَنْكَرُوا شَكْوَايَ مِمَّا أَجِدُ

مِثْلُ حَالِي حَقُّهَا أَنْ تُشْتَكِي ** كَمَدُ اليَأْسِ وَذُلُّ الطَمَعِ

كَبِدٌ حَرَّى وَدَمْعٌ يَكِفُ

يَعْرِفُ الذَنْبَ وَلاَ يَعْتَرِفُ

أَيُّهَا المُعْرِضُ عَمَّا أَصِفُ

قَدْ نَمَا حُبُّكَ عِنْدِي وَزَكَا ** لا تَقُلْ فِي الحُبِّ إِنِّي مُدَّعِي [1]

أهم خصائص الشعر الأندلسي

أولاً: من حيث الفنون والأغراض:

- كتب الأندلسيون في كلِّ أغراض الشعر العربي دون استثناء.
- تفوق الأندلسيون على المشارقة في وصف الطبيعة، ورثاء المدن والممالك الزائلة.
- لم يكن للأندلسيين حضور قوي في الشعر الفلسفي أو شعر الحكمة والزهد.
- ابتكر الأندلسيون فن الموشحات تلبية لحاجة المجتمع المتعلق بالغناء.

ثانيًا: من حيث الألفاظ والأساليب:

- رقة الألفاظ ودماثة الأسلوب، وذلك راجع إلى رقة طباعهم، وحياتهم المترفة، وشيوع الغناء عندهم.
- حافظ الأندلسيون على عروبة الألفاظ، واقتصر دخول الألفاظ الأعجمية على الموشحات

---

(١) الساقي: من يقدم الشراب. دعوناك: ناديناك. النديم: الصاحب على الشرب. همتُ: شغفت به حبًّا. غرته: وجهه. الراح: الخمر. راحته: يده. الزق: وعاء من جلد توضع فيه الخمر ونحوها. اتكا: اتكأ أي جلس متمكنًا. البان: نوع من الشجر يتصف باللين والجمال. فرط: زيادة. الجوى: الحب. خافق: مضطرب. الأحشاء: جمع حشا وهو ما في البطن من أعضاء، ويعني القلب. موهون: ضعيف. القوى: جمع قوَّة. البين: الفراق. عشيت: ضعف بصرها. الجلد: الصبر والتحمل. عذلوا: لاموا. الكمد: الحزن الشديد. حرَّى: يابسة من شدة العطش (ويعني هنا الشوق). يكف: ينزل بغزارة. زكا: نما وزاد. مدعي: كاذب فيما أقول.

والأزجال في أغلب الأمر.

- البعد عن التعقيد في الأسلوب وعن التكلف في تحلية الأسلوب بالمحسنات البديعية.

ثالثًا: من حيث المعاني والصور:

- قرب المعاني وخلوها من التعمق الفلسفي، أو التأمل الوجودي بسبب اضطهاد المشتغلين بعلوم المنطق والفلسفة في فترة معينة.
- ظهور الخيال الابتكاري القائم على تشخيص الجمادات، وتراسل الحواس.
- امتزاج الصور الخيالية بالطبيعة بسبب تعلقهم بطبيعة بلادهم الساحرة.

رابعًا: من حيث الأوزان والقوافي:

- حافظ الأندلسيون على قواعد الوزن والقافية التي أرساها «الخليل بن أحمد» في معظم شعرهم.
- ابتكر الأندلسيون فن الموشحات التي تتنوع فيها الأوزان والقوافي بنظام مخصوص.
- اهتم الأندلسيون بفن الزَّجَل القائم على اللغة العامية الأندلسية التي هي خليط من العربية والبربرية واللاتينية.

* * *

تدريبات

السؤال الأول: أجب عن الأسئلة الآتية:

١ـ ازدهر شعر الطبيعة في الأندلس ازدهارًا باهرًا. اشرح ذلك مستشهدًا بنموذج مما تحفظ.

٢ـ تتكون الموشحة من عنصرين رئيسين. اشرح ذلك مطبقًا على إحدى الموشحات.

٣ـ ما أهم الخصائص الموسيقية للشعر العربي في الأندلس؟

السؤال الثاني: علِّلْ لما يأتي:

١ـ ازدهار الشعر العربي في الأندلس.

٢ـ تفوق الأندلسيين على المشارقة في رثاء المدن والممالك الزائلة.

٣ـ تقصير الأندلسيين عن المشارقة في شعر الحكمة والزهد والفلسفة.

٤ـ ظهور فن الموشحات في الأندلس.

السؤال الثالث: اختر الإجابة الصحيحة من البدائل المطروحة بين القوسين:

١ـ مبتكر الموشحات الأندلسية هو

(ابن عبد ربه ـ ابن المعتز ـ مُقَدَّم بن مُعَافَى القُـــبَّرِيّ).

٢ـ الشاعر الملقَّب ببحتري الأندلس هو (ابن دراج ـ ابن خفاجة ـ ابن زيدون).

٣ـ المُغَنِّي الذي وفد من المشرق إلى الأندلس هو (إسحاق الموصلي ـ زرياب ـ الغريض).

٤ـ سُجِن المعتمد ابن عباد في (أغمات بالمغرب ـ قرطبة ـ إشبيلية).

٥ـ أشهر شعراء المديح النبوي بالأندلس (ابن عمار ـ ابن جابر الضرير ـ ابن هانئ).

السؤال الرابع: ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (×) أمام العبارة غير الصحيحة فيما يأتي:

١ـ تتكون الموشحة غالبًا من ستة أقفال وخمسة أدوار. ( )

٢ـ خرج المسلمون من الأندلس بعد الهزيمة في معركة العقاب مباشرة. ( )

٣ـ اشتهر ابن زيدون بحب ولادة بنت المستكفي. ( )

٤ـ ذهب ابن الأَبَّار إلى سلاطين المماليك بمصر يستغيث بهم لنجدة الأندلس. ( )

السؤال الخامس: أكمل مكان النقط في الجمل الآتية:

١ـ الشاعر الذي حاور الجبل في قصيدته هو ....

٢ـ مؤلف كتاب «العقد الفريد» هو ....

٣ـ من شعراء التصوف في الأندلس .... ، .... ، ....

٤ـ من شعراء الهجاء في الأندلس .... ، .... ، ....

❊ ❊ ❊

الدرس الثامن عشر
ترجمة ثلاثة من أشهر شعراء الأندلس

أهداف الدرس:

بنهاية الدرس يتوقع أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يحدد أهم العوامل التي أثَّرت في شعر ابن عبد ربِّه.

٢ـ يذكر أهم فنون الشعر التي برع فيها ابن زيدون مع ضرب الأمثلة على ذلك.

٣ـ يوازن بين كل من ابن عبد ربِّه وابن زيدون من حيث أغراض الشعر التي برع فيها كل منهما، والعوامل التي أثرت في ذلك.

٤ـ يذكر أهم فنون الشعر التى برع فيها ابن خفاجة مع ضرب الأمثلة على ذلك.

١ـ ابن عبد ربِّه:

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حُدَير بن سالم القرطبي، ولد في قرطبة عام ٢٤٦هـ، درس الفقه واللغة والتاريخ على يد شيوخ عصره، ويعتقد كثير من الباحثين أنَّه رحل إلى المشرق لتلقي العلم، نبغ في الشعر مبكرًا، وكتب في شتى الأغراض، لكنَّه في أواخر حياته ندم على ما وقع في شعره من تجاوزات فأنشأ قصائد سماها (المُمَحِّصات) وهي قصائد ومقاطيع في المواعظ والزهد، نقض بها كل ما قاله في صباه من شعر اللهو والغزل. أصيب ابن عبد ربه في أواخر حياته بالفالج (الشلل النصفي)، ومات متأثرًا بمرضه عام ٣٢٨هـ، ودفن بمقبرة بني العباس بقرطبة.

* اشتهر ابن عبد ربه بكتابه «العقد الفريد» وهو كتاب يتكون من خمسين جوهرة، لكل جوهرة اسم خاص وموضوع متميز، فهو يبدأ باللؤلؤة في السلطان، ثم الفريدة في الحروب، ثم الزبرْجَدة في الأجواد، ثم الجُمَانة في الوفود، ثم المرجانة في مخاطبة الملوك، ثم الياقوتة في العلم والأدب، ثم الجوهرة في الأمثال ... وهكذا.

* من روائع شعر ابن عبد ربه مقطوعته في الغزل التي يقول فيها:

يا لؤلؤًا يَسْبي العقولَ أَنِيقا ** وَرَشًا بتقطيعِ القُلوبِ رَفيقا

ما إِنْ رأَيْتُ ولا سَمْعتُ بِمِثْلِهِ ** دُرًّا يعودُ مِنَ الحياءِ عَقيقا

وإذا نَظرتَ إِلى محاسنِ وجهِهِ ** أبصَرْتَ وجْهَكَ في سَناهُ غَريقا

يَا منْ تَقطعَ خَصْرُهُ مِنْ رِقَّةٍ ** مَا بالُ قَلْبِكَ لا يَكُونُ رَقِيقا؟ (١)

٢ـ ابن زيدون:

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون، المخزومي الأندلسي، ولد في الرصافة من ضواحي مدينة قرطبة عام ٣٩٤هـ لأسرة مشهورة بالعلم والأدب، فقد كان والده من فقهاء قرطبة المعدودين، فتلقى العلم عن خيرة علماء عصره، حتى برع، وقد عاصر نهاية الدولة الأموية بالأندلس، فعيَّنه أبو الحزم بن جهور أمير قرطبة في عصر ملوك الطوائف وزيرًا، واستعان به في السفارة بينه وبين أمراء الأندلس، لكنَّ حُسَّاد ابن زيدون ـ وبخاصة ابن عبدوس الذي كان ينافسه في حب ولادة بنت المستكفي ـ أوغروا صدر ابن جهور عليه، فاتهموه بكثير من التهم الباطلة، مما أدى إلى سجنه، وقد كتب له وهو في السجن رسالة استعطاف تسمى «الرسالة الجدِّية»، كما كتب رسالة في السخرية من خصمه ابن عبدوس تسمى «الرسالة الهزلية»، تمكَّن ابن زيدون من الفرار من السجن بعد سبعة عشر شهرًا من الحبس، فرحل عن قرطبة إلى «بني عباد» في إشبيلية، فأكرموه، وتوفي سنة ٤٦٣هـ.

* من روائع شعر ابن زيدون نونيته التي كتبها في محبوبته ولادة بنت الخليفة المُسْتكفي ومطلعها:

أَضحى التَنائي بَديلًا مِن تَدانينا ** وَنابَ عَن طيبِ لُقيانا تَجافينا(٢)

وفيها يقول:

يا سارِيَ البَرقِ غادِ القَصرَ وَاسقِ بِهِ ** مَن كانَ صِرْفَ الهَوى وَالوُدِّ يَسقينا

وَاسأَل هُنالِكَ هَل عَنّى تَذَكُّرُنا ** إِلفاً تَذَكُّرُهُ أَمسى يُعَنّينا

---

(١) يسبي: يأسر. أنيق: رائع الحسن. رشًا: ولد الظبية إذا بدا يتحرك مع أمه. الدرُّ: اللؤلؤ. العقيق: حجر كريم أحمر اللون. السنا: الضياء. الخصْر: وسط الجسم (البطن وما حولها).

(٢) التنائي: التباعد، ومضاده: التداني. ناب عنه: قام مقامه. التجافي: الهجر والبعد. الساري: السائر ليلاً. غادِ: أمطره في وقت الغدوة وهو الصباح. صِرْف: خالص. عنَّى: آلمَ وأتعب. إلفًا: صديقًا. يعنينا: يؤلمنا. نسيم الصبا: ريح تهبُّ من الشرق. حيَّا: سلَّم (وهو فعل ماض من التحية). ربيب ملك: مربًّى في بيوت الملوك.

وَيـا نَسـيمَ الصَّبـا بَلِّـغْ تَحِيَّتَنـا ** مَن لَو عَلى البُعْدِ حَيّا كانَ يُحْيِينا

رَبيـبُ مُلْـكٍ كَأَنَّ اللهَ أَنْشَـأَهُ ** مِسكًا وَقَدَّرَ إِنشاءَ الـوَرى طِينا

أَو صاغَـهُ وَرِقـاً مَحْضـاً وَتَوَّجَـهُ ** مِن ناصِعِ التِـبْرِ إِبداعاً وَتَحسـينا[١]

٣ـ ابن خَفاجة:

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسي، ولد في جزيرة «شقر» بين شاطبة وبلنسية عام ٤٥٠هـ ، في أسرة ثرية معروفة بالعلم والأدب، فتلقى العلم عن علماء عصره، وقرأ شعر المتنبي والشريف الرضيّ ومِهْيار الديْلَمِي وتأثر بهم، كان شعره في البداية مقصورًا على الغزل واللهو، حتى شاهد استيلاء «السيد القَمْبِيطور» وهو من فرسان النصارى المتعصبين على مدينة بلنسية، ثم رأى تحريرها على يد يوسف بن تاشفين، فمدحه، وسافر إلى بلاد المغرب، ثم عاد ليموت في مسقط رأسه عام ٥٣٣هـ.

* من روائع شعر ابن خفاجة قصيدته في وصف الجبل، التي شخَّص فيها الجبل وجعله إنسانًا يخاطبه، ويبث إليه همومه وشكواه، وفيها:

وأرعـنَ طـمّاحِ الذُّؤابـةِ بَـاذخٍ ** يُطـاولُ أعنـانَ السـماءِ بغـاربِ

يَسدُّ مهبَّ الريحِ من كلّ وجهةٍ ** ويزحـمُ ليـلاً شُـهبهُ بالمناكـبِ

وقُـورٍ عـلى ظَهـرِ الفـلاةِ كأنـهُ ** طـوالَ الليـالي مُفكِـرٌ بالعواقِبِ

يلُـوثُ عليـهِ الغيمُ سُـودَ عمائمٍ ** لها منْ وميضِ البرقِ حُمرُ ذوائبِ

أصختُ إليهِ وهوَ أخرسُ صَامتٌ ** فحدثني ليلَ السُّرَى بالعَجائبِ

وقـالَ ألا كـم كنتُ ملجـأ قاتلٍ ** ومَوطـنَ أوّاهٍ تبتّـلَ تائـبِ

وكم مـرَّ بي من مُدْلـجٍ ومؤوّبٍ ** وقَـالَ بظلِّي مـن مَطـيٍّ وراكبِ

فـما كان إلا أن طوتهم يدُ الردى ** وطارت بهم ريح النوى والنوائبِ[٢]

---

(١) الورِق: الفضَّة. محْضًا: خالصًا. ناصع: الخاص الصافي. التبر: الذهب. (يعني أنها بيضاء اللون كالفضة، ذهبية الشعر).

(٢) أرعن: مرتفع. طمّاح: مرتفع. الذؤابة: من كل شيء أعلاه، جمعها: ذوائب. باذخ: عالٍ. أعنان: جمع عنان وهو السحاب. غارب: أعلى كل شيء. مهب الريح: موضع هبوبها. المناكب: جمع منكب وهو هنا الموضع المرتفع من الأرض. وقور: هادئ رزين. الفلاة: الصحراء. العواقب: جمع عاقبة وهي نهاية الأمر. يلوث: يلفُّ: عمائم: جمع عمامة وهي ما يلفُّ على الرأس. وميض: ضوء. ذوائب: ضفائر، مفردها ذؤابة. أصخت: استمعت. السرى: السير ليلاً. الأواه: العابد الرقيق القلب. تبتل: انقطع للعبادة. مُدلج: من يسير بالليل في الظلام. مؤوب: راجع. قال: نزل في وقت القيلولة. الردى: الموت. النوى: الفراق. طوتهم يد النوى: كناية عن الموت.

تدريبات

السؤال الأول: أجب عن الأسئلة الآتية:

١ـ اكتب مقالاً موجزًا عن ابن خفاجة الأندلسي مُبْرِزًا تفوقه في شعر الطبيعة.

٢ـ اشتهر ابن زيدون بحب ولادة بنت المستكفي. اشرح ذلك مستشهدًا بنموذج مما تحفظ من شعره فيها.

٣ـ يعتبر كتاب «العقد الفريد» من أبرز مصادر الأدب العربي. اشرح ذلك.

السؤال الثاني: علِّلْ لما يأتي:

١ـ تسمية ابن عبد ربه مجموعة من قصائده بالمُمحِّصات.

٢ـ سجن ابن زيدون.

٣ـ مدح ابن خفاجة ليوسف بن تاشفين.

السؤال الثالث: اختر الإجابة الصحيحة من البدائل المطروحة بين القوسين:

١ـ يتكون كتاب «العقد الفريد» من (ثلاثين جوهرة ـ خمسين جوهرة ـ مائة جوهرة).

٢ـ استولى «السيد القمبيطور» على مدينة (قرطبة ـ بلنسية ـ طليطلة).

٣ـ عين ابن زيدون وزيرًا إبان حكم

(المعتمد بن عباد ـ يوسف بن تاشفين ـ أبي الحزم بن جهور).

السؤال الرابع: ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (×) أمام العبارة غير الصحيحة فيما يأتي:

١ـ أصيب ابن عبد ربه بالشلل النصفي قبل وفاته. ( )

٢ـ عانى ابن خفاجة من الفقر والحرمان في شبابه. ( )

٣ـ قضى ابن زيدون في السجن سنة واحدة. ( )

السؤال الخامس: أكمل مكان النقط في الجمل الآتية:

١ـ عاش ابن عبد ربه في القرنين ....

٢ـ موضوع «الرسالة الهزلية» هو ....

٣ـ قرأ ابن خفاجة شعر ....، ....، ....

الدرس التاسع عشر

فنون النثر الأندلسي

أهداف الدرس:

بنهاية الدرس يتوقع أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يذكر عوامل نهضة النثر الفني في الأندلس.

٢ـ يحدد أهم فنون النثر الفني في الأندلس.

٣ـ يذكر الأسباب التى أدت لانتشار الفن القصصي في الأندلس.

٤ـ يذكر أبرز سمات النثر الأندلسي.

٥ـ يذكر ترجمة لأهم كتاب النثر الأدبي في الأندلس.

لم يترك أدباء الأندلس فنًّا من فنون النثر الأدبي إلا عالجوه، فقد شاركوا في الخطابة والرسائل الديوانية، والرسائل الإخوانية، والرسائل الوصفية، والمفاخرات، والرسائل الموجهة إلى المقام النبوي، والمواعظ، والقصص، والمقامات، والرحلات، والتوقيعات، فضلًا عن التأليف في ضروب العلم والمعرفة كافةً.

* عوامل نهضة النثر الفني في الأندلس:

١ـ وجود عرب فصحاء من ذوي الملكات العالية ضمن الجيش الفاتح، وفي موجات الهجرة التي أعقبت الفتح، مما شكل قاعدة صلبة للغة العربية وفنونها في الأندلس.

٢ـ كانت الأندلس أرض جهاد من أول يوم حتى آخر يوم، مما يستلزم وجود خطباء فصحاء يعملون على تحميس الجنود على البسالة في مواجهة الأعداء، ويستلزم وجود كُتَّاب يقومون بمراسلة الأعداء.

٣ـ كثرة الصراعات الداخلية سواء بين العرب والبربر، أو بين أصحاب المذاهب المختلفة، فكان كل فريق يستعين بالخطباء المفوَّهين لإثبات حجته، أو العلماء الفاهمين القادرين على الجدل والمناظرة.

٤ـ ازدهار الحركة العلمية في الأندلس، والتنافس بين أهلها في التأليف في ضروب العلم والمعرفة كافة.

* من فنون النثر الأندلسي:

١ـ فن الخطابة: كانت الخطابة سلاحًا مهمًّا في المعارك الحربية، والمنازعات السياسية، والمناظرات الفكرية التي لم يخل منها عصر من عصور دولة الإسلام في الأندلس، وكان الخطباء المفوَّهون عاملاً مهمًّا من عوامل الحسم في تلك المعارك.

وقبل أن نذكر نموذجًا لفن الخطابة الأندلسية نشير إلى أن الخطبة التي تنسب إلى طارق ابن زياد عندما عبر بجيشه إلى الأندلس، وجعل يقول ـ كما تحكي الرواية ـ: «أيُّها الناسُ: أين المفرُّ؟ البحر وراءكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ... الخ» لا تصح نسبتها لطارق بن زياد عند المؤرخين المحققين لعدة أسباب، منها:

١ـ خُلُوّ المصادر الأولى التي قصَّت علينا أخبار الفتح منها، وظهورها في الكتب المتأخرة التي ظهرت بعد خروج المسلمين من الأندلس.

٢ـ أنَّ طارقًا بن زياد لم يكن عربيًّا بل كان بربريًّا، ولم يُسْلم إلا قبل الفتح بسنوات قليلة، ومن البعيد أن يصل إلى هذا المستوى من الفصاحة في ذلك الوقت القصير.

٣ـ أنَّ أسلوب الخطبة المليء بالمحسنات البديعية لم يعرف في القرن الأول الهجري، وإنَّما ظهر في القرون المتأخرة.

* من نماذج الخطابة الأندلسية خطبة القاضي مُنْذِر بن سعيد البلُّوطِي في حضرة الخليفة الأموي العظيم «عبد الرحمن الناصر» حين وصل إليه رسول الروم بعدما عجز عن الكلام في هذا الموقف المهيب العالم الكبير «أبو علي القالي»، فقام القاضي «مُنْذِر بن سعيد» مُرْتَجِلاً، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال:

«أما بعدُ، فإنَّ لكل حادثة مقامًا، ولكل مقام مقالًا، وليس بعد الحقِّ إلا الضلالُ، وإنِّي قمتُ في مقامٍ كريم بين يدي ملك عظيم، فأصْغُوا إليَّ ـ معشرَ الملأ ـ بأسماعكم، وأتْقِنوا عنِّي بأفئدتكم، إنَّ من الحقِ أنْ يُقَالَ للمُحِقِّ صدقْتَ، وللمُبْطِل كذبْتَ، وإنَّ الجليل ـ تعالى في سمائه، وتقدس بصفاته وأسمائه ـ أمر كليمه موسى ـ صلى الله على نبينا وعلى جميع أنبيائه ـ أن يذكِّرَ قومه بأيام الله جلَّ وعزَّ عندهم، وفيه

وفي رسول الله ﷺ أسوة حسنة، وإنِّي أذكركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لَمَّتْ شَعْثَكم، وأَمَّنَتْ سِرْبَكم، ورفعتْ قُوَّتَكُم، بعد أنْ كُنْتم قليلًا فكثَّرَكُمْ، ومُسْتضعفينَ فقوَّاكم، ومُسْتَذلِّين فنصَرَكم، ولَّاه اللهُ رعايَتكُم، وأَسْنَدَ إليهِ إمامَتكُمْ، أيام ضربت الفتنة سُرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شُعَلُ النِّفاق، حتى صِرْتُم في مثلِ حَدَقَةِ البَعِير، منْ ضِيقِ الحالِ ونَكَدِ العَيْشِ والتغيير، فاستبدَلْتُم بخلافته من الشدة الرخاء، وانتقلتم بين سياسته إلي تمهيدِ كَنَفِ العافية بعد استيطانِ البلاءِ، أَنْشِدُكُم بالله معاشرَ الملأ، ألم تكنْ الدماءُ مَسْفوكةً فَحَقَنَها؟ والسُّبُلُ مَخُوفةً فأمَّنَها؟ والأموالُ مُنْتَهَبَةً فَأَحْرَزَها وحَصَّنَها؟ ألَمْ تكُنِ البلادُ خَرابًا فَعَمَّرَها؟ وثغورُ المسلمينَ مُهْتَضَمَةً فَحَماها ونَصرها؟ فاذكروا آلاءَ الله عليكمْ بِخِلافَتِه، وتَلافِيه جمعَ كلمتِكُم بعدَ افتراقِها بإمامته، حتى أذهبَ اللهُ عنكمْ غيظَكُم، وشَفَى صُدورَكم، وصِرْتُم يَدًا على عَدُوِّكمْ بعد أنْ كانَ بأْسُكُمْ بينكم ... الخ».[(١)]

٢ـ الرسائل الديوانية: عندما استقرت دولة الإسلام في الأندلس في عصر بني أمية احتاج الأمويون إلى دواوين تنظم لهم شئون الحكم على نحو ما كان موجودًا في عاصمة الخلافة سواء في زمن الأمويين أو العباسيين، وقد أنشئ ديوان الرسائل في قرطبة بعد تأسيس الدولة الأموية في الأندلس، وأسند القيام عليه إلى «أمية بن يزيد بن أبي حوثرة»، ثم توالى من بعده نوابغ الكتاب من أمثال: ابن بُرْد الأكبر، وأحمد بن عباس، وأبو محمد بنعبد البرّ، وأبو بكر بن القَصِيرة، وابن أبي الخصال وغيرهم.

* من نماذج الكتابة الديوانية في الأندلس الرسالة التي كتبها «محمد بن أيمن» كاتب «المتوكل بن الأفْطَس» أمير بَطَلْيَوْس، وقد أرسلها إلى «يوسف بن تاشفين» أمير المرابطين بالمغرب يستصرخه لنجدة المسلمين في الأندلس من «ألفونسو» ملك قشتالة، يقول فيها:

«لما كانَ نورُ الهدى ـ أَيَّدكَ اللهُ ـ دليلَكَ، وسبيلُ الخيرِ سبيلَكَ، ووَضُحَتْ في الصَّلاح معالِمُكَ، ووُقِفَتْ على الجهاد عزائِمُك، وصحَّ العلمُ بأنَّك لدعوةِ الإسلامِ أعزُّ ناصرٍ، وعلى غزْوِ الشِّرْكِ أقْدَرُ قادرٍ، وَجَبَ أنْ تُسْتَدْعَى لِمَا أعْضَلَ من الدَّاءِ، وتُسْتَغاثَ لِمَا أحاطَ بالجزيرة منَ البلاءِ، فقدْ كانتْ طوائفُ العدوِّ المُطِيفَةُ بِها ـ أهلكهم الله ـ عندَ إفْراطِ تسلُّطِها واعْتِدائِها، وشِدَّةِ كَلَبِها واسْتِشْرائِها،

---

(١) أصغوا: أنصتوا. أفئدتكم: قلوبكم. تلافيه: تداركه. السرادق: الخيمة، وضربت الفتنة سرادقها: كناية عن الإحاطة التامة. الحدقة: العين. الكنف: الجانب. منتهبة: تؤخذ بدون حق. مهتضمة: يعتدى عليها وينتقص منها. آلاء: نِعَم.

تُلاطَفُ بالاحتيالِ، وتُسْتَنْزَلُ بالأموالِ، ويُخْرَجُ لها عن كلِّ ذَخيرةٍ، وتُسْتَرْضَى بكلِّ نفيسةٍ خطيرةٍ، ولم يَزَلْ دأبَها التشطُّطُ والعِنادُ، ودأبَنا الإذعانُ والانقيادُ، حتى اسْتَصْفَى الطِّريفَ والتِّلادَ، وأتَى على الظاهرِ والباطنِ النَّفادُ، وأيْقَنُوا الآنَ بضَعْفِ المُنَنِ، وقويتْ أطماعُهُم في افتتاحِ المُدُنِ، واضْطَرمتْ في كلِّ جهةٍ نارُهم، ورَوِيَتْ من دماءِ المسلمينَ أسنَّتُهُمْ وشِفارُهم، ومَنْ أخْطَأَهُ القتلُ منهمْ فإنَّما هُمْ بأيديهم أسْرَى وسَبَايا، يَمْتحنونَهُم بأنواعِ المِحَنِ والبَلايا، وقدْ همُّوا بما أرادُوه من التوثُّبِ، وأشْرَفُوا على ما أمَّلُوهُ منَ التغلُّبِ، فيا للهِ ويا للمسلمينِ! أيَسْطُو هكذا بالحقِّ الإفْكُ، ويغلِبُ التوحيدَ الشِّرْكُ، ويَظْهَرُ على الإيمانِ الكُفْرُ، ولا يَكْتَنِفُ هذهِ الملةَ النصرُ! ألا ناصرَ لهذا الدينِ المُهْتَضَمِ، ولا حَامِيَ لِمَا اسْتُبِيحَ مِنْ حِمَى الحُرَمِ! وإنَّا للهِ على ما لحِقَ عَرْشَه من ثَلٍّ، وعزَّه من ذُلٍّ، فإنَّها الرَّزِيَّةُ التي ليسَ فيها عَزاءٌ، والبَلِيَّةُ التي ليسَ مِثْــــلَها بَلاءٌ».[1]

٣ـ الرسائل الإخوانية: من البَدَهِيِّ أنْ يعبِّرَ كُتَّابُ الأندلس عن شعورهم الذاتي من ثناءٍ وشكرٍ وعتابٍ واعتذارٍ وتهنئةٍ وتعزيةٍ ... وغيرها في رسائل أدبية تحمل بصماتهم النفسية والعقلية، وترسم ملامح البيئة التي عاشوا في ظلالها، بحيث لا نكاد نجد أديبًا مرموقًا إلا له سهم في هذا الباب.

* من الرسائل الإخوانية ما كتبه العالم الفقيه «أبو محمد بن عبد البرّ القرطبي» إلى صديق له يُعَزِّيه عن فتى له استشهد في قتال أعداء الله جاء فيها:

«كتبتُ عن قلبٍ يقشعرُّ، ونفسٍ بينَ ضلوعِها لا تَسْتَقِرُّ، لِخَبرِ الرُّزْءِ الهَاجِمِ، والنَّبأِ الشنيعِ الكَالِمِ، بوفاةِ الحاجبِ عزِّ الدولةِ سيدي كان، لقَّاه اللهُ الرِّضْوانَ، وألحَفَهُ العفوَ والغفرانَ، مُحْتَضَرًا في أولِ الكمالِ، مُخْتَرَطًا عندَ الإقبالِ، مُبَادَرًا قبلَ الإبْدارِ، مُعَاجَلاً بالسِّرارِ، في عُنْفوانِ الإقْمارِ، فيا لها حسرةً ما أنْكاها للنُّفوسِ، وجمرةً ما أذْكاها في القلوبِ، وروعةً ما أفَتَّها في الأعضادِ، ولوْعَةً ما أحَرَّها على الأكْبادِ، لكنَّهُ أمرٌ يَعُمُّ ولا يَخُصُّ، كلُّ نفسٍ لها جارعٌ، وفيها كارعٌ، فَمِنْ مُبْتَدَرٍ يُعَاجَلُ، ومُنْظَرٍ يُنَاوَلُ:

وَمَـا نحْـنُ إلاَّ مِثْلَهُم غيرَ أنَّنا ** أقَمْنا قَليلاً بعدَهُـمْ وَتَقَدَّمُوا

(١) أعضل: صعب وعزَّ دواؤه. المُطيفة: المحيطة. الكلب: مرض معدٍ ينتقل عند عضة الكلب، يصيب المرء بما يشبه الجنون. استشرى الأمر: عظم شره. الدأب: العادة. التشطط: المبالغة وتجاوز الحد. استصفى: انتقى واختار. الطريف: الجديد. التلاد. القديم. النفاد. الانتهاء. المُنن: جمع مُنَّة وهي القوة. اضطرمت: اشتعلت. الأسنة: جمع سنان وهو الرمح. الشفار: جمع شفرة وهي كل حادٍّ من سيف أو سكين. ونحوهما. سبايا: جمع سبيَّة وهي الأسيرة. التوثب: الهجوم. شارفوا: قاربوا. يسطو: يغلب ويقهر. يكتنف: يحيط. المهتضم: المنهوب. ثلَّ عرشَه: أزال سلطانه. الرزيَّة: المصيبة.

وأنتَ أعلمُ بالأيامِ وصُرُوفِها، والأرْزاءِ وصُنُوفِها، والأنْفُسِ ومآلِها، والأجْسامِ واضْمِحْلالِها، والعَوارِي وارْتِجَاعِها، والمَنائِحِ ومَقَاديرِ امْتِناعِها، مِنْ أنْ يَغْلِبَكَ الجَزَعُ والتَّهالُكُ، وينزِعَ بك الجَلَدُ والتَّماسُكُ، فأنْتَ بالأزْمانِ خَبيرٌ، وبالأحْوالِ بَصيرٌ، وباسْتِعْمالِ ما فِي ذِكْرِكَ مِنْ أمْثالِ التأسِّي ومَواعظِ التعزِّي جديرٌ...»[1].

٤ـ الفن القصصي: نهض الأندلسيون بمؤلفات نثرية مبتكرة تعد حلقة مهمة من حلقات الفن القصصي في أدبنا العربي، منها رسالة المفاخرة بين السيف والقلم لابن برد الأصغر، وهو أول من فتح باب المفاخرة بينهما في الأدب العربي، ورسالة التوابع والزوابع ـ وهي رحلة خيالية في عالم الجن ـ لابن شُهَيْد، وسنقف مع قصة «حيِّ بن يَقْظان» للفيلسوف ابن طُفَيْل.

* تعد قصة «حيّ بن يقظان» من مفاخر الأدب العربي القديم، حيث كان لها تأثير كبير في الآداب العالمية، وبخاصة في قصة «روبنسن كروزو» للأديب الإنجليزي «دانيال ديفو»، وهي قصة فلسفية أراد الرجل من خلالها أنْ يثبت أنَّه لا تعارض بين العقل والشريعة أو بين الفلسفة والدين.

وملخص القصة: أنَّ حي بن يقظان وُلِد في جزيرة نائية من جزر الهند تحت خط الاستواء، وأنَّه اختلف في أصله، فقيل: إنَّه تولد دون أم وأب من طينة تخمرت بالجزيرة على مرِّ السنين، وقيل: إنَّه ابن أميرة جميلة كانت شقيقة لملك يمتلئ بالغيرة والأنفة منعها من الزواج بحجة أنَّه لا يجد لها زوجًا كُفئًا، وكان لهذه الفتاة قريب كريم الأخلاق اسمه «يقظان»، فلما غاب الملك في بعض حروبه، حسبه أهله قد قتل في تلك الحرُوب، فزوّجوا يقظان من تلك الفتاة سرًّا، وبعد أشهر قليلة، حملت منه، ثم وضعت طفلًا تظهر عليه علامات الذكاء، وبعد أن وضعت الفتاة طفلها عاد أخوها من حروبه منتصرًا، ولم يجرؤ أحد من أقارب الملك على إعلامه وإخباره بسر الزواج الذي تم في غيبته، خوفًا من غضبه عليهم وانتقامه منهم، فوضعته أمُّه في تابوت ثم قذفت به في اليمِّ الذي حمله إلى ساحل جزيرة أخرى، فلما اشتد الجوع بذلك الطفل بكى واستغاث؛ فخرجت ظبية تبحث عن ولدها، فلما سمعت صراخ الطفل ظنَّته ولدها المفقود، فتتبعت الصوت، حتى وصلت إلى التابوت، فأرضعته وعطفت عليه، وعندما كبر

---

(١) الرُّزْء: المصيبة. الكالم: الجارح. ألحفه: شمله كما يشمل اللحاف من يتغطى به. مخترطًا: مقتطعًا. الإبدار: قبل أن يكتمل كالبدر. السرار: آخر ليلة في الشهر القمري. العنفوان: الشدة والنشاط. ما أنكاها: ما أشد نكايتها وهي الهزيمة الموجعة. ما أذكاها: ما أشد اشتعال نارها. الأعضاد: جمع عضد وهو ما بين المرفق والكتف، يُقَال فت فِي عضده: أَضْعَفَ قوته وَفرَّق عَنهُ أعوانه. لوعة: حرقة في القلب. جارع: شارب. كارع: شارب من أفناء مباشرة دون أن يتناوله بكفه. مبتدر: مسارع إليه. مُنْظَر: ممهل إلى مدة. صروفها: مصائبها. الأرزاء: جمع رُزْء وهي المصيبة. مآلها: مصيرها. اضمحلالها: ذهابها شيئًا فشيئًا حتى تلاشيها. العواري: جمع عارية وهي كل ما يستعار. المنائح: جمع منيحة وهي العطية. التهالُك: اللهفة. الجلَد: الصبر. التأسِّي: الاتعاظ والاعتبار.

بدأ يحاكي ما يسمعه من أصوات الطير والحيوان، وبدأ يتخذ من أوراق الشجر ملابس؛ لأنه رأى ما يغطي الحيوانات من الريش والوبر.

ثم ضعفت الظبية التي ربته وأدركها الموت فسكنت حركاتها وظنَّ أنَّ المرض الذي أودى بأمه كان كامنًا في صدرها، فهداه تفكيره إلى شق صدرها بحجر حاد فكشف القلب الذي فيه مركز الحياة، ثم تحركت في نفسه الشهوة للبحث عن سائر أعضاء الحيوان، واقتنع بأنَّ لكل موجود علة فاعلة.

ولما وصل «حيّ» إلى سن الثلاثين كان قد أحاط بالطبيعة من حوله، وبدأ يستغلها لغذائه ولكل حاجاته بدءًا بتحريك يديه واستخدامها وستر سوءته ومعرفته الصيد والنار واستخدامها في إنضاج السمك واللحم، والتفت إلى فرق ما بين النبات والحيوان في الحركة، وارتفاع الهواء واللهيب إلى أعلى، وانحدار الماء إلى أسفل، ولاحظ أنَّ كل ما في الطبيعة خاضع لقانون الكون والفساد، ثم بدأ يدرس المعادن والنبات وأعضاء الحيوان ووظائفها، ويصنفها إلى أنواع، وتقوده دراسته إلى فكرة النفس الحيوانية والنفس النباتية، ثم اهتدى إلى اكتشاف العناصر الأربعة، وفي ضوء تجربته اقتنع بأنَّ لكل موجود علةً فاعلةً، وأخذ يبحث عن هذه العلة فيما حوله، بحث عنها في الطبيعة فلم يتوصل إلى شيء؛ لأن جميع ما في الطبيعة عرضة للتحول والفساد، فحاول أن يبحث عنها في الأجرام السماوية، وأخذ يتأمل السماء نفسها وهل هي ممتدة إلى ما لا نهاية، ثم لم يلبث أن تصورها كروية، واستنتج من خلال تجربته ضرورة وجود أفلاك خاصة بالكواكب، وطال به التأمل في ملكوت السماوات والأرض، وهداه تفكيره إلى أنَّ كل ما في الوجود لا بد له من خالق لا يستغني عنه وأحس حاجته إلى مشاهدته.

وحين بلغ الخمسين من عمره نزل جزيرة مجاورة، فالتقى برجل تقيّ ناسك يسمى أُبْسال، فلما رآه أُبْسال خاف منه، وكان «حيٌّ» لم يرَ إنسانًا من قبل، فلحقه لما كان في طباعه من البحث عن حقائق الأشياء، ثم راقب أُبْسال فوجده غارقًا في الصلاة والقراءة والدعاء والبكاء والابتهال إلى الله والتذلل له، حتى شغله ذلك عن كل شيء، فجعل حي بن يقظان يقترب منه قليلاً وأُبْسال لا يشعر به، حتى دنا منه بحيث يسمع قراءته، فسمع صوتًا حسنًا، وحروفًا منظمة، لم يعهد مثلها من أصناف الحيوان، ونظر إلى أشكال هذا الحيّ الغريب، وتخطيطه؛ فرآه على صورته، وتبين له أن الثياب التي عليه ليست جلدًا طبيعيًّا؛ وإنما هي لباس متخذ مثل لباسه هو، ثم تعارفا، وبدأ أُبْسال يعلمه الكلام والفرائض وأمورًا كثيرة، وعاد به إلى جزيرته فراقب الناس عن قرب وعلم ما بهم من خير وشر، فلما فهم «حيّ بن يقظان» أحوال الناس، أدرك أن أكثرهم بمنزلة الحيوان غير الناطق، وعاد هو وصديقه أُبْسال إلى الجزيرة، وبقيا يتعبدان إلى أن ماتا .

أبرز سمات النثر الأندلسي

١ـ تنوع فنون النثر وأغراضه، بحيث لم يترك الكُتَّاب فنًّا من الفنون إلا أبدعوا فيه، وقد قدم الأندلسيون صورًا مبتكرة في النثر مثل: رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد، وقصة حي بن يقظان لابن طفيل.

٢ـ الإيجاز والميل إلى قصر الفقرات حتى زمن المرابطين، ثم ما لبث أن مال الكُتَّاب إلى الإطناب بالترادف والجمل المتوازية على نحو ما نرى في نثر لسان الدين بن الخطيب.

٣ـ وضوح المعاني، والبعد عن التأملات والرموز الفلسفية الغامضة، وذلك راجع إلى أنَّ الفقهاء كانوا يضطهدون الفلاسفة، فلما خَفّت سطوة الفقهاء وازدهرت الفلسفة وجدنا قصصًا ذات أبعاد فلسفية مثل قصة حي بن يقظان لابن طفيل.

٤ـ تطعيم الأسلوب بالاقتباسات القرآنية والنبوية، وتضمين الأبيات الشعرية والأمثال العربية، ناهيك عن الحوادث التاريخية والأيام المشهورة، وخير مثال على ذلك رسالتا ابن زيدون: «الرسالة الجدية»، و«الرسالة الهزلية».

٥ـ تجميل الأسلوب بالمحسنات البديعية من السجع والطباق والجناس والمقابلة والتورية وغيرها، وكانت في النصف الأول من عمر دولة الإسلام في الأندلس غير متكلفة، ثم بدأ التكلف يصل إلى أسلوب الكُتَّاب شيئًا فشيئًا حتى بات ثقيلًا مملًّا.

٦ـ غلبة الخيال الشعري على الكتابات النثرية، بحيث لا تكاد تمر جملة دون صورة بيانية من تشبيه واستعارة وكناية، وذلك راجع إلى أنَّ معظم الكُتَّاب كانوا شعراء.

❊ ❊ ❊

ترجمة ثلاثة من أعلام النثر الأندلسي

١ـ ابن شُهَيْد:

هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن مروان بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشجعي القرطبي، ولد في قرطبة عام ٣٨٢هـ ، وعاش في أسرة ثرية، فقد كان جد أبيه وجده وأبوه من الوزراء المرموقين في الأندلس، فكان أبوه من الوزراء في دولة المنصور بن أبي عامر، وقد حظي الولد برعاية المنصور وصداقة ولي العهد «المظفّر»، وفي عهد ولده المظفر عينه وزيرًا، لكن الحساد لاحقوه بالوشايات مما أدى إلى الزجِّ به في السجن في عهد الحموديين، ثم أفرج عنه، ومات عام ٤٢٦هـ ، وقد حضر دفنه أمير قرطبة أبو الحزم بن جهور، ورثاه عدد من الشعراء منهم صديقه ابن برد الأصغر.

ترك لنا ابن شهيد عددًا من الآثار الأدبية منها ديوانه، وقطعًا من كتبه: حانوت عطار، كشف الدك وإيضاح الشك، رسالة التوابع والزوابع التي تعد من أبدع الرسائل في الأدب العربي، وقد سماها بهذا الاسم للدلالة على مضمون الكتاب، فالتوابع جمع تابع وهو الجني الذي يتبع الإنسان ويحبه ويرافقه، أما الزوابع فهي جمع زوبعة وهي شيطان مارد أو رئيس من الجن. والرسالة تتكون من مدخل وأربعة فصول: فصل في توابع الشعراء، وفصل في توابع الكتاب، وفصل في نقاد الجن، وفصل في حيوان الجن.

٢ـ ابن طُفَيْل:

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي الأندلسي، ولدفي «وادي آش» في الشمال الشرقي من غرناطة عام ٤٩٤هـ، رحل إلى غرناطة مبكرًا، وفيها تعلَّم الطب وعمل بالكتابة، وكان يكتب لرؤساء غرناطة؛ فكان من خواص الرئيس أبي جعفر، وأبي الحسن بن ملحان، ثم عمل كاتبًا لوالي غرناطة، وتولَّى الحجابة في بلاط غرناطة، ولما سمع به يوسف بن عبد المؤمن أمير دولة الموحدين أرسل إليه ليكون طبيبه الخاص، فنال مكانة عالية في بلاطه حيث كان الأمير من المحبين للفلسفة، فأمر بجمع كتب الفلسفةمن أنحاء الأرض، فجُمعت له حتى صارت له مكتبة فلسفية عظيمة، وظل في بلاط الموحدين حتى توفي بمراكش عام ٥٨١هـ .

ترك ابن طفيل عددًا كبيرًا من المؤلفات منها: أسرار الحكمة المشرقية، رسم الدواء،وقد جمع خبرته الطبية في قصيدة طويلة تتكون من ٧٧٠٠ بيتًا، بالإضافة إلى قصته الفريدة «حي بن يقظان» التي عرضت آنفًا صـ ١٦٦.

٣ـ لسان الدين بن الخطيب:

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني، الملقب بذي الوزارتين لجمعه بين السيف والقلم، ولد في غرناطة عام ٧١٣هـ، تربى في أسرة معروفة بالعلم، فتعلم من خيرة علماء عصره حتى صارت له مكانة أدبية مرموقة، فعمل وزيرًا لدى السلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل، ثم ابنه الغَنِيّ بالله، لكن وشايات الحساد بدأت تلاحقه، وَشَعَر ابن الخطيب بسعي حاسديه فكاتب السلطان عبد العزيز بن علي المريني في بلاد المغرب برغبته في الرحلة إليه، فلما وافق السلطان سار إليه سرًّا، فبالغ السلطان عبد العزيز في إكرامه، وأرسل في طلب أهله وولده، فجاءوا مكرمين، ومن ثم استقر بمدينة فاس، واشترى عقارات وحسنت أحواله، ولكن لما تولى المغرب السلطان المستنصر، وقد ساعده الغني بالله صاحب غرناطة على الوصول إلى الحكم، فاشترط تسليمه لسان الدين بن الخطيب، فقبض عليه المستنصر، وكتب بذلك إلى الغني بالله، فأرسل وزيره «ابن زمرك» إلى فاس، فعقد بها مجلس الشورى، وأحضر ابن الخطيب، فوجهت إليه تهمة الزندقة وسلوك مذهب الفلاسفة، فأفتى بعض الفقهاء بقتله، فأعيد إلى السجن، ثم دسّوا له بعض الأوغاد، فدخلوا عليه السجن ليلًا، وخنقوه، سنة ٧٧٦هـ.

ترك ابن الخطيب ديوانًا كبيرًا، ورسائل ومقامات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب منها: الإحاطة في تاريخ غرناطة، الإعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، رَقْمُ الحلل في نظم الدول، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، روضة التعريف بالحب الشريف ... وغيرها.

❋ ❋ ❋

تدريبات

السؤال الأول: أجب عن الأسئلة الآتية:

١ـ كتب الأندلسيون الرسائل الإخوانية في شتى الأغراض. اشرح ذلك مستشهدًا بنموذج من محفوظاتك.

٢ـ اكتب مقالًا من سبعة أسطر عن قصة «حيّ بن يقْظان» تلخص فيه محتواها.

٣ـ ما أبرز السمات الفنية للنثر الفني في الأندلس؟

السؤال الثاني: علِّلْ لما يأتي:

١ـ نهضة النثر الفني في الأندلس.

٢ـ عدم صحة نسبة خطبة طارق بن زياد إليه.

٣ـ المكانة العالية لابن طفيل في دولة الموحدين.

السؤال الثالث: اختر الإجابة الصحيحة من البدائل المطروحة بين القوسين:

١ـ تتكون رسالة «التوابع والزوابع» من (فصلين ـ ثلاثة فصول ـ أربعة فصول).

٢ـ اتهم لسان الدين بن الخطيب بتهمة (الزندقة ـ الخروج على السلطان ـ قطع الطريق).

السؤال الرابع: ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (×) أمام العبارة غير الصحيحة فيما يأتي:

١ـ ألقى منذر بن سعيد البلوطي خطبته أمام الخليفة الناصر ارتجالاً. ( )

٢ـ أُسِّس ديوان الإنشاء في الأندلس في زمن المرابطين. ( )

٣ـ أثَّرت قصَّة «حي بن يقظان» في الأدب الإنجليزي. ( )

٤ـ مات لسان الدين بن الخطيب مخنوقًا في السجن. ( )

٥ـ عانى ابن شهيد من الفقر والحرمان في شبابه. ( )

السؤال الخامس: أكمل مكان النقط في الجمل الآتية:

١ـ خطب القاضي .... أمام الخليفة .... بحضرة رسول الروم.

٢ـ تجري أحداث رسالة «التوابع والزوابع» ....

٣ـ من مؤلفات لسان الدين بن الخطيب ....، ....، ....

* * *

إثراءات

*** تذكر أنَّ:**

- استمرت دولة الإسلام في الأندلس أكثر من ثمانية قرون من ٩٢هـ إلى ٨٩٧هـ.
- تشمل الأندلس دولتي إسبانيا والبرتغال حاليًا، وكان المسلمون قد فتحوا جنوب فرنسا، لكن هزيمتهم في معركة «بلاط الشهداء» أدى إلى توقف الفتح في أوروبا.
- جرت عادة النقاد على تشبيه شعراء الأندلس بالشعراء المشارقة، فالشاعر الملقب ببُحْتري الأندلس هو ابن زيدون، والملقب بمُتَنبي الأندلس هو ابن درَّاج القسطلي، وابن هانئ أيضًا، والملقب بصَنَوْبِري الأندلس هو ابن خفاجة.
- مؤلف كتاب العقد الفريد هو ابن عبد ربه، لكن معظم مادته من الأدب المشرقي، حتى إنَّ الصاحب بن عبَّاد طلبه فلما قرأه ووجد مادته مشرقية قال: هذه بضاعتنا ردَّت إلينا.
- كانت مكتبة الحكم المُسْتنصر في قرطبة من أعظم مكتبات العالم، وقد بلغ عدد مجلداتها أربعمائة ألف مجلد.
- اشتهر ابن زيدون بحب ولادة بنت المُسْتكفى، وفيها كتب نونيته الذائعة، لكنَّه سجن بسبب منافسة خصومه له في حبها.
- من أشهر القصائد التي شخصت فيها مظاهر الطبيعة قصيدة ابن خفاجة في وصف الجبل، وحواره الفلسفي معه.
- تفوق الأندلسيون على المشارقة في شعر الطبيعة، ورثاء المدن والممالك الزائلة، واخترعوا فن الموشحات الأندلسية.
- مبتكر فن الموشحات الأندلسية هو مقدم بن معافي القبرَّي في القرن الثالث الهجري.

- لقب لسان الدين بن الخطيب بذي الوزارتين لجمعه بين السيف والقلم، أي تولي منصب الوزارة، وكونه كاتب الدولة.
- من أروع مؤلفات الحب الشريف كتاب «طوق الحمامة في الألفة والألاف» للفقيه الكبير أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي.
- تدور أحداث رسالة «التوابع والزوابع» لابن شهيد تحت الأرض في حوار خيالي يديره الشاعر مع الجن.
- أثرت قصة «حي بن يقظان» لابن طفيل في الأدب العالمي، وبخاصة في قصة «روبنسن كروزو» للأديب الإنجليزي «دانيال ديفو».

❋ ❋ ❋

الدرس العشرون
في المديح لابن عمار

أهداف الدرس:

بنهاية الدرس يتوقع أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يذكر ترجمة موجزة لابن عمار.

٢ـ يذكر مناسبة قصيدة ابن عمار في المديح.

٣ـ يشرح الأبيات المختارة من القصيدة بأسلوبه الخاص.

٤ـ يحدد سمات شخصية الشاعر وخصائص أسلوبه .

٥ـ يذكر أثر البيئة في النص.

٦ـ يستخرج مظاهر الجمال من الأبيات المختارة.

٧ـ يحفظ خمسة أبيات من القصيدة.

أدِرِ الزُّجاجَةَ فالنّسيمُ قَدِ انبرى ** والنَّجْمُ قدصَرَفَ العِنَانَ عن السُّرَى (١)

والصُّبْحُ قَدْ أهْدَى لنا كافُورَهُ ** لما اسْتَرَدَّ الليْلُ مِنْه العَنْبرَا (٢)

والرَّوْضُ كالحَسْنَا كَسَاهُ زَهْرُهُ ** وَشْيًا، وقَلَّدَهُ نَدَاهُ جَوْهَرا (٣)

روضٌ كأنَّ النَّهْرَ فيه مِعْصَمٌ ** صَافٍ أطلَّ على رِدَاءٍ أخْضَرا (٤)

وتَهُزُّه ريحُ الصَّبا فَتَخَالُهُ ** سَيفَ ابنِ عبّادٍ يُبَدِّدُ عَسْكرا (٥)

عَبَّادُ المُخْضَرُّ نائِلُ كَفِّهِ ** والجوُّ قد لَبِسَ الرّداءَ الأغْبَرا (٦)

---

(١) انبرى: عرض. العِنان: لجام الدابة. السُّرى: السير من أول الليل.

(٢) الكافور: شجر يميل إلى البياض طيب الرائحة وإن كان مرَّ الطعم. العنبر: مادة صلبة تفوح منها الرائحة إذا سُحِقت أو أحرقت، لها ألوان مختلفة منها الأسود.

(٣) الوشْي: النقش والزخرفة. قلده: ألبسه قلادة في عنقه. الندى: قطرات المطر.

(٤) المعصم: موضع السوار من اليد. أطلَّ: أشرف.

(٥) ريح الصَّبا: ريح تهبُّ من الشرق. ابن عبَّاد: المعتضد بن عباد الممدوح بالقصيدة. يبدد: يفرق.

(٦) النائل: الجود والعطية. لبس الرداء الأغبر: امتلأ بالتراب والغبار.

مَلِـكٌ إذا ازْدَحَمَ المُلـوك بِمَوْرِدٍ ** ونَحَـاهُ لا يَـرِدُون حتـى يَصْدُرا [1]

قَـدّاح زَنْـدِ المَجْـد لا يَنْفَكّ عن ** نَـارِ الوَغَـى إلا إلى نـارِ القِـرى [2]

أيْقَنــتُ أنّي مــن ذُراه بِجَنَّــةٍ ** لَمَّـا سَـقَاني مـن نَـداهُ الكَوثَـرا [3]

وعلمْتُ حقًّا أنَّ رَبْعي مُخْصِبٌ ** لَمَّـا سَـأَلْتُ بِـه الغَـمامَ المُمْطـرَا [4]

* التعريف بالشاعر:

هو ذو الوزارتين أبو بكر محمّد بن عمّار المهري الأندلسي الشِّلبي، ولد في «شِلْب» (جنوب غرب الأندلس) عام ٤٢٢هـ، من أسرة فقيرة ترجع إلى أصول يمنية، برع في قول الشعر منذ صغره، ثم قصد إشبيلية ومدح أميرها «المعتضد بن عبَّاد» فعينه شاعرًا ببلاطه، وأكرمه غاية الإكرام، وفي تلك المدة صار صديقًا حميمًا لابنه المعتمد، فلما تولى المعتمد بعد وفاة أبيه عينه وزيرًا، لكنَّه عندما ذهب لضم مدينة «مُرْسِيَة» إلى ملك المعتمد أخذها لنفسه، ودارت بينه وبين المعتمد مراسلات بدأت بالعتاب وانتهت بالهجاء الفاحش.

وفي عام ٤٧٦هـ م خرج من «مُرْسِيَة» لإصلاح بعض الحصون، فثار عليه نائبه في «مُرْسِيَة»، وخرج على طاعته، فذهب إلى المؤتمن بن هود أمير «سرقسطة»، وبقي في بلاطه زمنًا يعينه في أمور دولته، ثم حاول الاستيلاء على «شقورة» لصالح ابن هود، فوقع في أسر صاحبها، الذي سجنه وعرض أن يسلمه لمن يدفع فيه أكثر، فدفع صديق الأمس وعدو اليوم «المعتمد بن عباد» في مقابل الحصول عليه مالاً وفيرًا.

أخذه «المعتمد بن عبَّاد» إلى السجن، وجعل ابن عمّار يستعطفه بقصائد عديدة، منها قصيدته التي مطلعها:

سَجاياكَ إنْ عَافَيْتَ أنْدَى وأسْمَحُ ** وعُذْرُكَ إنْ عاقبْتَ أجْلَى وأوضحُ [5]

---

(١) المورد: منهل الماء. نحاه: قصده. يصدر: ينصرف عنه.

(٢) الزند: عود معين تقدح منه النار، وقدحه: ضربه بالحجر حتى تخرج منه النار. ينفك: ينفصل. الوغى: الحرب، القِرى: ما يقدم للضيف من إكرام.

(٣) أيقنت: تأكدت. الذُّرَا: جمع ذِرْوة وهي من كل شيء أعلاه. الكوثر: الخير العظيم واسم لنهر في الجنة.

(٤) الرَّبْع: الموضع ينزل فيه زمن الربيع والمراد: المنزل. مخصب: كثير الماء والعشب.

(٥) السجايا: جمع سجيَّة وهي الطبيعة والخلق. عافيت: أصل المعنى: شفيت من الأمراض والعلل، والمقصود: عفوت عني. أندى: أعظم عطاءً وفضلاً. أسمح: أكثر جودًا وبذلاً. أجلى: أوضح.

ولكنها لم تجد طريقًا إلى قلبه، ويقال: إنَّه مال إلى العفو عنه، لكنَّ زوجته «اعتماد الرُّمَيْكِيَّة» ذكَّرته بخيانته، وهجائه له ولها، وحرَّضته على الانتقام منه، فقتله بفأسٍ في يده شق بها رأسه نصفين، عام ٤٧٧هـ.

* مناسبة القصيدة:

كانت هذه القصيدة هي المفتاح الذي فتح قصور الملوك أمام ابن عمَّار، فقد كان فقيرًا، يدور بشعره هنا وهناك ليستجدي المَمْدوحين، فلم يحصل إلا على القليل، حتّى إنّه مدح رجلاً مرّةً، فأعطاه مخلاة شعير لحماره، ثمَّ تغيَّر حاله تمامًا لمَّا وفد على المعتضد بن عباد، ومدحه بهذه القصيدة الرنَّانة التي تضمنت جملة من المعاني الفريدة، فاستحسنها المعتضد، وأمر له بمال وثياب ومَرْكب، وأمر أن يكتب في ديوان الشعراء، وظلَّ حاله يقوى عنده، وعلاقته تتأكد لابنه المعتمد حتى كان أقرب إليه من حبل وريده، وكان المعتمد لا يستغني عنه ساعة من ليل ولا نهار.

* المعنى العام:

افتتح الشاعر قصيدته بأن طلب من الساقي أن يدير عليهم كؤوس الخمر، فالجو مناسب للشراب حيث النسيم العليل، والنجوم المتلألئة التي تبدو كأنها قرَّرت البقاء فوقهم في السماء، وقد استمرَّت هذه الجلسة حتى طلع الصباح بأنواره الزاهية، وانسحب الليل بسواده الحالك، وانجلى المشهد عن حديقة غنَّاء تمتلئ بالزهور كأنها فتاة حسناء في كامل زينتها، وكأن قطرات الندى التي على أوراق الزهور حبات اللؤلؤ في أعناق الجميلات، ومن حولنا النهر الذي يشبه معصمًا أبيضَ لفتاة بارعة الجمال وضعته على ثوب أخضر اللون.

ثم انتقل من هذه المقدمة الخمرية القصيرة إلى مدح المعتضد بن عباد، وقد تخلَّص منها بصورة لطيفة، فالنهر الموصوف سابقًا إذا هبَّت عليه الريح وحركت أمواجه كأنه في تموجه سيف المعتضد بن عباد وهو يبدد جموع الأعداء.

وبعد هذا التخلص الرائع جعل يعدِّد صفات الممدوح، فهو كريم جواد يعطي الناس في أوقات الشدة، فيغيثهم من شبح الحاجة، وهو ملك عزيز لا نظير له، وحسبه دليلاً على ذلك أنَّه إذا ما أقدم على الشرب، فإنَّ أحدًا غيره لا يجرؤ على مزاحمته حتى ينتهي. وهو باحث عن الأمجاد حيث كانت سواء أكانت في ميادين الحرب والقتال أم في ميادين البذل والعطاء.

ثم انتقل الشاعر إلى الحديث عن شعوره وهو في بلاط المعتمد، فقد وصل إلى درجة اليقين بأنَّه في جنة حقيقية، وأنَّه يشرب من نهر الكوثر الفياض بالخير، وبأنَّ أرضه القاحلة سيصيبها الخصب، وتخضرُّ بكل زوج بهيج؛ لأنَّ غمام الكرم العبَّادي سيصيب أرضه.

*** مظاهر الجمال:**

١ـ في قوله: (انبرى ـ السُّرى) اتفاق آخر الشطر الأول مع آخر الشطر الثاني يسمى تصريعًا، وهو يعطي جرسًا موسيقيًّا متميزًا، وفي قوله: (أدر الزجاجة) إنشاء، نوعه أمر، غرضه الالتماس، ويوحي بالنشوة والفرح. وفي قوله: (صرف العنان) استعارة مكنية حيث شبَّه النجم بفرس له لجام، وقد صرفه عن السَرى، أي قرَّر البقاء.

٢ـ وفي قوله: (الصُّبْحُ قدْ أهْدَى لنا كافُورَهُ): استعارة مكنية حيث شبه النهار بإنسان يقدِّم هدية لمن يحبُّ وفي كلمة (كافور) استعارة تصريحية حيث شبه النهار بنبات الكافور. وفي قوله: (اسْـتَـرَدَّ الليْـلُ مِنْه العَـنْبَرا):استعارة مكنية حيث شَبَّه الليل بإنسان يسترد وديعة له.وفي كلمة (العنبر) استعارة تصريحية حيث شَبَّه سواد الليل بالعنبر الأسود.

٣ـ وفي قوله: (الروض كالحسنا): تشبيه للروضة بالفتاة الحسناء في جمال الصورة وحسن المنظر، وبقية البيت امتداد لهذه الصورة التشبيهية، حيث شبَّه الأزهار في الحديقة بالكساء المزخرف الذي تتزين به تلك الفتاة الحسناء، كما شبَّه قطرات الندى على أوراق تلك الأزهار باللؤلؤ الذي تتزين به تلك الفتاة.

٤ـ وفي قوله: (كأنَّ النهر فيه معصمٌ ...): تشبيه مركب حيث شبَّه النهر الذي يشقُّ الروضة الخضراء بمعصم فتاة وضع على ثوب أخضر، وهو تشبيه يرسم صورة في غاية الدقة والروعة للحديقة التي يجلسون فيها.

٥ـ وفي قوله: (فَتَخَالُهُ سَـيفَ ابنِ عبّادٍ يُبَدِّدُ عَسْـكرا): تشبيه تمثيلي، حيث شبَّه هيئة النهر وقد هبت عليه ريح الشرق، فحركت أمواجه بهيئة سيف المعتضد بن عباد وهو يتحرك لتبديد جموع الأعداء. وهي صورة تشبيهيَّة متسقة من الناحية الشكلية فلون النهر كلون السيف، وحركة الموج كحركة السيف، ولكنها غير متسقة من الناحية النفسية؛ لأنَّ صورة النهر تملأ النفس بالبهجة والسرور، وصورة السيف تملأ النفس بالرهبة والفزع.

٦- وفى قوله: (الجو قد لبس الرداء الأغبر): استعارة مكنية، حيث صور الجو بإنسان يرتدي ثوبًا أغبر اللون، والصورة كناية عن الجدب والقحط. وبين كلمتي (المخضرّ والأغبرا) طباق، يبرز المعنى ويوضحه، ويجلي الفرق بين الإعسار قبل عطائه، واليسر بعد العطاء كالفرق بين الأرض الجدباء فإذا نزل عليها الماء اخضرَّت وأنبتت من كل زوج بهيج.

٧- وفى قوله: (ملك) إيجاز بالحذف، حيث حذف المبتدأ (هو) مسارعةً إلى المطلوب، وتنكير كلمة "ملك" للتفخيم والتعظيم.

٨- وفى قوله: (لا يَرِدُون حتى يَصْـدُرا): كناية عن العزة؛ إذ لا يجرؤ أحد من الملوك على مزاحمته على الشراب، بل ينتظرون أن يصدر عن ذلك المورد. وبين "الورد والصدر" طباق يرسم صورة انتظار الملوك وهم عطاش حتى ينتهي هو من شربه. وفى قوله: (قَدَّاح زَنْدِ المجدِ) استعارة مكنية حيث جعل للمجد زندًا وفائدتها التشخيص والتجسيم. وبين قوله: (نار الوغى ونار القرى) طباق يبين ما عليه ابن عباد فى حالتى الحرب والسلم.

٩- وفى الفعل (أيْقَـنتُ) يدل على الثقة الكاملة بكرم الممدوح، وكونه فعلاً ماضيًا يدل على تحقق الوقوع.

وفى قوله: (من ذُراه بِجَـنَّـة): تشبيه حيث صور ديار الممدوح بأنَّها جنَّة مزدانة بكل زوج بهيج.

وفى قوله: (سَـقَاني من نَداهُ الكَـوثَرا): تشبيه حيث صوَّر كرم الممدوح بأنَّه نهر الكوثر في الجنة.

١٠- وقوله: (علمت حقًّا) أسلوب خبري مؤكَّد يدل على اليقين الكامل، ومادة الفعل (علم) تدل على ذلك اليقين، والنائب عن المفعول المطلق (حقًّا) يؤكد ذلك.

وفى قوله: (أنَّ رَبْـعَي مُـخْصِبٌ): كناية عن الغني واليسر.

وفى قوله: (سألت به الغمام المُمْطرا): استعارة تصريحية حيث صور عطايا الممدوح بأنَّها غمام منهمر بكل خير.

❊ ❊ ❊

التعليق على النص

أولاً: شخصية الشاعر من خلال النصّ:

١ـ شاعر محب للطبيعة بارع في تصويرها.

٢ـ مثقف، واسع الثقافة، كثير الاطلاع.

٣ـ شاعر فقير، يتكسب بشعره.

٤ـ بارع في التخلص من غرض إلى غرض.

ثانيًا: خصائص أسلوبه من خلال النص:

١ـ سهولة الألفاظ ووضوح المعاني.

٢ـ الاعتماد على المحسنات البديعية غير المتكلفة.

٣ـ براعة التصوير، ودقة التعبير.

٤ـ التنويع بين الخبر والإنشاء.

ثالثًا: أثر البيئة في النصّ:

١ـ التكسب بالشعر في ذلك العصر.

٢ـ الشعر يرفع الفقراء إلى مصاف الأغنياء.

٣ـ قرب الشعراء من الحكام في ذلك العصر.

٤ـ كثرة الحدائق والأنهار.

٥ـ جمال الطبيعة الأندلسيَّة بكل عناصرها.

❊ ❊ ❊

تدريبات

السؤال الأول:

أدِرِ الزُّجاجَـةَ فالنّسـيمُ قَدِ انبرَى ** والنَّجْمُ قد صَرَفَ العِنَانَ عن السُّرَى

والصُّبْحُ قـدْ أهْدَى لنـا كافُورَهُ ** لمـا اسْـتَرَدَّ الليْـلُ مِنْـه العَنْبـرَا

والرَّوْضُ كالحَسْنَا كَسَاهُ زَهْرُهُ ** وَشْـيًا، وقَلَّـدَهُ نَـدَاهُ جَوْهَـرا

(أ) لمن النص ؟ وما الغرض منه ؟ وإلى أى عصر ينتمي ؟

(ب) اشرح الأبيات بأسلوبك.

(ج) هات معنى ما تحته خط في الأبيات.

(د) اكتب البيتين التاليين للأبيات المذكورة.

(هـ) هات من النص ما يلي:

١ـ أسلوب أمر، واذكر غرضه.	٢ـ استعارة وبين نوعها.

٣ـ تشبيهًا، ووضِّحه.	٤ـ تصريعًا، واذكر أثره.

السؤال الثاني:

روضٌ كأنَّ النَّهْـرَ فيـه مِعْصـمٌ ** صَـافٍ أطـلَّ عـلى رِداءٍ أخْضَرا

وتَهُـزُّه ريـحُ الصَّبـا فَتَخَالُـهُ ** سَـيفَ ابـنِ عبّـادٍ يُبَدِّدُ عَسْكرا

(أ) ضع عنوانًا مناسبًا للبيتين السابقين.

(ب) اشرح البيتين شرحًا أدبيًّا بأسلوبك.

(جـ) ما المقصود بالمعصم؟ وما مضاد "يبَدِّد" ؟ وما المقصود " بريح الصبا"؟

(د) هات من الأبيات تشبيهًا تمثيليًّا، ووضِّحه.

السؤال الثالث:

عَبَّـادُ المُخْـضَرُّ نائِـلُ كَفِّـهِ ** والجوُّ قـد لَبِـسَ الـرّداءَ الأغْبَرا

مَلِـكٌ إذا ازْدَحَمَ الْمُلـوك بِمَوْرِدٍ ** ونَحَـاهُ لا يَـرِدُون حتـى يَصْـدُرا

قَـدّاح زَنـدْ المَجْـد لا يَنْفَـكّ عن ** نَـارِ الوَغَـى إلا إلى نـارِ القِـرىَ

(أ) ضع عنوانًا مناسبًا للأبيات السابقة.

(ب) اشرح الأبيات شرحًا أدبيًّا بأسلوبك.

(جـ) اكتب من النص ما يدل على أن الشاعر يرى أنَّه في جنة حقيقية، وأنَّه شرب من نهر الكوثر، وبأن الأرض المجدبة ستخضر.

(د) هات معنى ما تحته خط في الأبيات المذكورة.

(هـ) هات من النص ما يلي:

١ـ استعارة، وبين نوعها، واشرحها.

٢ـ كلمتين بينهما تضاد، واذكر فائدته.

٣ـ إيجازًا بالحذف، وبين المحذوف، واذكر فائدته.

السؤال الرابع:

أيْقَنـتُ أنّـى مـن ذُراه بِجَنَّـة ** لَمَّـا سَـقَاني مـن نَـداهُ الكَوثَـرا

وعلمْتُ حقًّا أنَّ رَبْعي مُخْصِبٌ ** لَمَّـا سَـأَلْتُ بِـه الغَـمامَ الْمُطـرَا

(أ) ما مفرد كلمة "ذُرا" وجمع "ندى" ومعنى "الكوثر" ومرادف الربع؟

(ب) اشرح البيتين بأسلوبك.

(جـ) اذكر ثلاثة من خصائص أسلوب الشاعر.

(د) هات من البيتين ما يلي:

١ـ كلمة تدل على الثقة الكاملة في كرم الممدوح.

٢ـ أسلوب توكيد، ووضحه.

٣ـ تشبيهًا، واشرحه.

٤ـ استعارة، وبين نوعها.

الدرس الحادي والعشرون

في رثاء الأندلس لأبي الطيِّب الرُّنْدِي

أهداف الدرس:

بنهاية الدرس يتوقع أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يذكر ترجمة موجزة لأبي الطيِّب الرُّنْدِي.

٢ـ يذكر مناسبة قصيدة أبي الطيِّب الرُّنْدِي في رثاء الأندلس.

٣ـ يشرح الأبيات المختارة من القصيدة بأسلوبه الخاص.

٤ـ يحدد سمات شخصية الشاعر وخصائص أسلوبه.

٥ـ يذكر أثر البيئة في النص.

٦ـ يستخرج مظاهر الجمال من الأبيات المختارة.

لِـكُلِّ شَيءٍ إِذا مـا تَـمَّ نُقصـانُ ** فَـلا يُغَـرَّ بِطيـبِ العَيشِ إِنسـانُ [١]

هِـيَ الأُمُورُ كَـما شـاهَدْتَها دُوَلٌ ** مَـن سَرَّهُ زَمَـن سـاءَتهُ أَزمـانُ [٢]

تَبكِي الحَنيفِيَّةُ البَيضاءُ مِن أَسَفٍ ** كَـما بَكـى لِفِـراقِ الإِلْـفِ هَيمانُ [٣]

عَـلى دِيـارٍ مـنَ الإِسْـلامِ خالِيَـةٍ ** قَد أَقفَـرَت وَلَهَا بالكُفرِ عُمْرانُ [٤]

حَيثُ المَساجِدُ قَدْ صارَت كَنائِسَ ما ** فيهِـنَّ إِلّا نَواقِيـسٌ وصلبـانُ [٥]

---

(١) تمَّ: اكتمل، ومضادها: نقص. يُغَرَّ: يُخْدَع. وهو فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه السكون، وحرك بالفتح للتخلص من التقاء الساكنين.

(٢) دول: جمع دولة، أي متداولة يوم لهؤلاء ويوم لأولئك. سرَّه: أفرحه، ومضاده: ساءه.

(٣) الحنيفية: الشريعة السمحة وهي الإسلام. الأسف: الحزن والندم على ما فات. الإلف: الحبيب الذي يؤلَف. الهيمان: العطشان أشدّ العطش، واستعير هنا للمحبِّ الشديد الوجْد.

(٤) أقفرت: خلت. وعكس القف: العمران.

(٥) نواقيس: جمع ناقوس، وهو جرس يقرعه النصارى في الكنائس للصلاة. صلبان: جمع صليب، وهو خشبتان متقاطعتان يعتقد النصارى أن المسيح عليه السلام صلب عليها بعد قتله على يد اليهود. وقد كذبهم القرآن الكريم.

حَتّى المَحاريبُ تَبكي وَهيَ جامِدَةٌ ❊ حَتّى المَنابِرُ تَرثي وَهيَ عِيدانُ [١]

يا غافِلاً وَلَهُ في الدهرِ مَوعِظَةٌ ❊ إِن كُنتَ في سِنَةٍ فالدهرُ يَقظانُ [٢]

يا مَن لِذِلَّةِ قَومٍ بَعدَ عِزِّهِمُ ❊ أَحالَ حالَهُمُ كُفرٌ وَطُغيانُ [٣]

بِالأَمسِ كانُوا مُلُوكًا فِي مَنازِلِهِمْ ❊ وَاليَومَ هُم في بِلادِ الكُفرِ عُبْدانُ [٤]

فَلَو تَراهُم حَيارى لا دَلِيلَ لَهُمْ ❊ عَلَيهِمُ مِن ثِيابِ الذُّلِّ أَلوانُ [٥]

وَلَو رَأَيتَ بُكاهُمْ عِندَ بَيعِهِمُ ❊ لَهالَكَ الأَمرُ وَاستَهوَتكَ أَحزانُ [٦]

يا رُبَّ أُمٍّ وَطِفلٍ حِيلَ بينهُما ❊ كَما تُفَرَّقُ أَرواحٌ وَأَبْدانُ [٧]

وَطَفْلَةٍ مِثلَ حُسنِ الشَّمسِ إِذ برزتْ ❊ كَأَنَّما هيَ ياقُوتٌ وَمَرْجانُ [٨]

يَقُودُها العِلجُ لِلمَكروهِ مُكْرَهَةً ❊ وَالعَينُ باكِيَةٌ وَالقَلبُ حَيرانُ [٩]

لِمِثلِ هَذا يَذوبُ القَلبُ مِن كَمَدٍ ❊ إِنْ كانَ في القَلبِ إِسلامٌ وَإِيمانُ [١٠]

هو صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف النِّفزي الرُّندي، يكنى بأبي الطيب وأبي البقاء وأبي محمد (والكُنية الأولى أثبت)، ولد في «رندة» من مدن الجنوب الأندلسي عام ٦٠١هـ، لأسرة ترجع إلى قبيلة «نفزة» البربرية، عكف على الدراسة العلمية والأدبية في صباه حتى اشتهر، وتردد بين مالقة وغرناطة ومدح ملوكها من بني الأحمر، والتقى بأديبها الكبير «لسان الدين بن الخطيب».

---

(١) المحاريب: جمع محراب، وهو المكان الذي يقف فيه الإمام في المسجد، ويسميه العوام في مصر القِبْلة. المنابر: جمع منبر، وهو مكان عالٍ يقف عليه الخطيب لأداء الخطبة. ترثي: تبكي. عيدان: جمع عود، وهو كل خَشَبَة دقيقة كَانَت أَو غَلِيظَة، رطبَة كَانَت أَو يابسة.

(٢) الغافل: هو الساهي غير المتيقظ. السِّنَة: النعاس والغفوة تكون قبل النوم. يقظان: منتبه.

(٣) الذلة: الضعف والمهانة، ومضادها: العزَّة. أحال: غيَّر وبدَّل.

(٤) كلمة (أمس) إذا استعملت دون (ال) فهي معرفة تدل على اليوم السابق ليومك، وإذا استعملت مع (ال) فهي نكرة تدل على أي يوم سابق، ولذلك قالوا إن تعريفها تنكير وتنكيرها تعريف. عُبْدان: جمع عبد.

(٥) حيارى: جمع حائر وحيران وهو من ضلَّ طريقه. الدليل: هو الهادي الذي يدل على الطريق.

(٦) بُكاهم: بُكاءهم. هالَكَ: روَّعَكَ وأفزعك. استهوتك: غلبتك وسيطرت عليك.

(٧) رُبَّ: حرف جر يدخل على النكرة فقط، ويستعمل للتقليل أَو التكثير حَسب سِيَاق الْكَلَام، والسياق هنا يدل على التكثير. حِيل بينهما: فُرِّق بينهما.

(٨) الطَّفْلَة: (بفتح الطاء) هي الفتاة الناعمة الرقيقة. برزت: ظهرت. الياقوت: حجر من الأحجار الكريمة يستعمل للزينة، جمعه: يواقيت. المرجان: حجر من الأحجار الكريمة أحمر اللون غالبًا يخرج من البحر، ويستعمل للزينة أيضًا.

(٩) العِلْج: الرجل الضخم من كفار العجم، جمعه: علوج. المكروه: كل ما يكرهه الإنسان، والمراد هنا: جريمة الاغتصاب.

(١٠) الكَمَد: الحزن والحسرة.

برع الرندي في الأدب، فكتب الشعر والمقامات والرسائل، كما كان عالمًا بالفرائض والعروض والتاريخ وله منظومات تعليمية فيها، من كتبه: الوافي في نظم القوافي، روضة الأنس ونزهة النفس وغيرها. توفي الرندي عام ٦٨٤هـ.

*** مناسبة القصيدة:**

عاش الرُّنْدي في النصف الأول من القرن السابع الهجري، وهو العصر الذي سقطت فيه دولة الموحدين، وتساقطت معظم مدن الأندلس في أيدي الإسبان منها: قرطبة، شاطبة، جيان، مرسية، بلنسية وغيرها من مدن الأندلس، مما أدمى قلب الرجل، فأنشأ قصيدته النونية في بكاء الأندلس، وعبر بها إلى بلاد المغرب ليستنصر إخوانه من بني مرين، ولكن جهود الإغاثة لم تكن كافية لدحر الإسبان، واسترداد المدن الأندلسية الضائعة.

*** المعنى العام:**

إنَّ لكل شيء نهاية، ولكل تمام نقصانًا، فعلى العاقل ألا يخدع بما يرى من عيش رغيد، فوراء ذلك خطوب وأهوال، لأن الأيام دول تتقلب، ومن سره زمن فلا بدَّ أن يسيئه زمن تال.

إنَّ الشريعة الغرَّاء تبكي من أسف لما حلَّ بأهلها من مصائب، وما لها لا تبكي على ديار خلت من الإسلام، وعمرت بالكفر، فالمساجد قد تحولت إلى كنائس تدق فيها النواقيس بعد أن شرفت بالأذان، والمحاريب شرعت في البكاء وهي من جماد، وكذلك المنابر أعلنت فجيعتها، وهي من أخشاب، فيا لها من فجيعة مريرة، ومصيبة عظيمة!

ثم ينادي الشاعر على كل غافل من المسلمين عامة ومن أهل الأندلس خاصة طالبًا منهم أن يعتبروا بما حدث، فإذا كانوا نائمين فالدهر يقظان، وقد ينزل بمصائبه، فيفجع أولئك الغافلين.

ويرسم الشاعر صورة ملؤها الأسى لحال المسلمين، الذين تحولت عزتهم إلى ذل وهوان وانكسار على يد أعدائهم الطغاة، لقد بيع سادتهم في أسواق الرقيق، ومضوا هائمين على وجوههم يلبسون من الذل والهوان ويبكون من تبدل الحال، في منظر يفزع كل ذي قلب، ويجلب الحزن والحسرة على هذا المصير المؤلم.

وأكثر الصور التي رسمها الشاعر تأثيرًا وإيلامًا هي صورة الأم وطفلها، تلك الصورة التي ترسم عنف وقسوة النصارى في حربهم، المسلمين وقد فرقوا بين الأمهات وأبنائهن الصغار في مشهد حزين

كأنما يفرقون بين الأرواح والأبدان، وصورة الفتاة الرقيقة الناعمة التي تشبه في بهائها الياقوت والمرجان فيعمد إليها العلج الكافر ويغتصبها قهرًا وغير ذلك من المناظر التي تشيب لها رأس الوليد، ويذوب كل قلب فيه مثقال حبة خردل من إيمان.

*** مظاهر الجمال:**

١ـ فى قوله: (لكل شيء إذا ما تمَّ نقصان) تقديم الخبر على المبتدأ ليشوق النفس إلى سماع المؤخَّر، وفيه طباق بين (تم ـ نقصان) يبرز المعنى ويوضحه بتجاور الأضداد.

وقوله: (فلا يغرَّ) إنشاء، نوعه نهي، غرضه النصح والإرشاد، حتى يستيقظ كل غافل من نومه.

٢ـ وفى قوله: (هي الأمور) البدء بضمير الشأن يثير الذهن ويلفت الانتباه لما يأتي بعده من تفسير. وفى قوله: (من سرَّه زمن ساءته أزمان) طباق يكشف القناع عن حجم المفارقة بين حال المسلمين سابقًا ولاحقًا. وإفراد فاعل الفعل "سرَّ" (زمن)، وجمع فاعل الفعل ساء (أزمان) يشير على قلة أوقات السرور بالقياس إلى أوقات الحزن.

٣ـ وفى قوله: (تبكي الحنيفية): استعارة مكنية حيث صور الشريعة الغرَّاء بصورة إنسان حزين يبكي حزنًا على تلك النوازل، وفائدتها التجسيم والتشخيص. وفى قوله: (كما بكى لفراق الإلف هيمان): تشبيه، حيث صور بكاء الشريعة على ضياع الديار ببكاء المحبِّ على فراق محبوبته. وكلمة (هيمان) توحي بشدة الشوق وحرارة الحب؛ لأنَّ العطشان لا أحبَّ إليه من شربة ماء على الظمأ.

٤ـ وجاءت كلمة (ديارٍ) جمعًا إشارة إلى تعدد المدن التي سقطت في يد النصارى، والتنكير يدل على التعظيم، وهل هناك أعظم وأكثر من مدن المسلمين التي سقطت؟! وبين (أقفرت وعمران) طباق يبرز المعنى ويوضحه، ويلفت الذهن إلى عظمة ما كان، وبؤس ما صار عليه حال المسلمين فى الأندلس.

٥ـ وفى قوله: (ما فيهِنَّ إلّا نَواقِيسٌ وصلبانُ): قصر، طريقه، النفي والاستثناء، ويدل على محو مظاهر الحضارة الإسلامية كافةً من تلك المباني، وجمع كلمتي (نواقيس) (صلبان) يدل على تعدد رموز الحياة الصليبية في تلك المدن.

٦ـ وفي قوله: (المَحاريبُ تَبكي)، وقوله: (المَنابِرُ تَرثِي): استعارتان مكنيتان صور فيهما المحاريب والمنابر وهي منخرطة في نوبات بكاء شديد، وفائدة الاستعارة تكمن في التجسيم والتشخيص، والفعل المضارع يدل على التجدد والاستمرار.

٧ـ وقوله: (يا غافِلاً): إنشاء، نوعه، نداء، واختيار (يا) التي هي لنداء البعيد يدل على شدة غفلة الناس، وكون المنادى نكرة غير مقصودة يشير إلى عموم ندائه ليشمل الناس كافةً سواء في الأندلس أو في غيرها.

وفي قوله: (إن كنت في سنة فالدهر يقظان) طباق، يبرز المعني ويوضحه، ويكشف الفرق الشاسع بين حال الناس الغافلين وحال الدهر المستيقظ.

٨ـ وفي قوله: (يا مَن لِذلَّةِ قَوم بَعدَ عِزِّهمُ): استغاثة تدل على لهفة الشاعر طلبًا لنجدة هؤلاء القوم، والطباق بين «الذلة والعزة» يكشف عن حجم المفارقة بعد تبدل الأحوال. وفي قوله: (أحال حالهم كفر وطغيان): جناس يعطي جرسًا موسيقيًّا، ويلفت النظر على تبدل الأحوال، وتأخير الفاعل فيه تشويق للنفس لتعرف من الذي ارتكب هذه الجريمة النكراء، وتنكيره يدل على التحقير والازدراء.

٩ـ وفي قوله: (بِالأَمسِ كانُوا مُلُوكًا فِي مَنازِلِهِمْ، وَاليَومَ هُم في بِلادِ الكُفرِ عُبْدانُ) مقابلة بين ثلاثة أشياء في كل جهة، فاليوم يقابل الأمس، وبلاد الكفر تقابل منازلهم، وعبدان تقابل ملوكًا، وهي مقابله كاشفة عن حجم المفارقة بين الأمس واليوم، بين العز والذل. والنفي بلا النافية للجنس في قوله: (لا دليل لهم) يدل على الاستغراق والشمول.

١٠ـ وفي قوله: (ثياب الذل): استعارة تصريحية حيث شَبَّه ما غشيهم من أثر الأسر والذل بالثياب بجامع الإحاطة والظهور في كُلٍّ، وفائدة الاستعارة هنا .الدلالة على أن الذل قد شملهم وغطَّاهم كما يغطي الثوب بدن لابسه.

١١ـ وفي قوله: (وَلَو رَأَيت بُكاهُم عِندَ بَيعِهِمُ لَهالَكَ الأَمرُ): شرط يدل على التلازم المنطقي بين المقدمات والنتائج، فكل من رآهم سيصاب حتمًا بالفزع والهلع. وفي قوله: (واستهوتك أحزانُ): استعارة مكنية حيث صور الأحزان بشيء يستهوي المرء أي يغلب عليه حتى يسلم له بكل شيء دون دليل.

١٢ـوفي قوله: (يا رُبَّ أُمٍّ وَطِـفْلٍ): استغاثة تدل على حسرة الشاعر من هذا المشهد المؤلم، ورغبته في منقذ لهؤلاء المظلومين، وكلمة (ربَّ) هنا تدل على التكثير؛ لأنَّ هذا المشهد تكرر في كثير من المدن.

وفي قوله: (كَما تُفَـرَّقُ أَرواحٌ وَأَبْـدانُ): تشبيه حيث شبَّه فراق الأم لطفلها بفراق الروح للبدن، وخصَّ الطفل الصغير لأنَّ الأم متعلقة به أكثر من الكبير لحاجته إليها.

١٣ـوفي قوله: (وَطَفْلَةٍ مِثلَ حُسنِ الشَمسِ إِذ برزت كَأَنَّـما هيَ ياقُوتٌ وَمَـرْجانُ): تشبيهان، حيث شبَّه الفتاة الرقيقة الناعمة بالشمس؛ لأنها تبث الدفء لوالديها كما تبث الشمس الدفء في الأرض، ثم شبهها بالياقوت والمرجان في نفاستها وارتفاع قيمتها وحسن صورتها.

١٤ـوفي قوله: (العِلج): وصف الضخم من كفار العجم بهذه الصفة يدل على غبائه وغلظ طبعه؛ فالكلمة في الأصل اسم من أسماء حمار الوحش

وفي قوله: (لِلمَكروهِ مُـكْرَهَةً): جناس يعطي الكلام جرسًا موسيقيًّا، ويدلُّ على أنَّ الفاحشة مكروهة عقلًا وشرعًا، وأن الفتاة تكرهها بفطرتها.

١٥ـ (يذوب القلب): استعارة مكنية، حيث صوَّر القلب بشيء يذوب كالملح والسكر، وفي الاستعارة تشخيص وتجسيد لحال القلب، وفعل الذوبان يدل على التلاشي والضياع، وكونه فعلًا مضارعًا يدل على تجدد ذلك الذوبان بتجدد مظاهر تلك المحنة الكبيرة.

❊ ❊ ❊

التعليق على النصّ

أولاً: شخصية الشاعر من خلال النص:

١ـ شاعر مرهف الأحاسيس جياش العاطفة.

٢ـ شديد الحزن على ما أصاب الأندلس من نكبات.

٣ـ بارع في التصوير، دقيق في التعبير.

٤ـ رجل عاقل حكيم.

ثانيًا: خصائص أسلوب الشاعر:

١ـ سهولة الألفاظ ووضوح المعاني.

٢ـ الروعة في التصوير والدقة في التعبير.

٣ـ الاعتماد على الأساليب الخبرية للتقرير والتوكيد.

٤ـ الاعتماد على الصور البيانية لتوضيح فكرته.

٥ـ كثرة المحسنات البديعية غير المتكلفة.

ثالثًا: أثر البيئة في النص:

١ـ الصراع الدائر بين المسلمين والنصارى في ذلك الوقت.

٢ـ ضعف الأندلس، وتساقط مدنها.

٣ـ تحويل بعض المساجد إلى كنائس.

٤ـ القسوة في معاملة المسلمين المغلوبين في ذلك الوقت.

٥ـ وجود شعراء يبكون المدن الزائلة.

❊ ❊ ❊

تدريبات

السؤال الأول:

لِـكُلِّ شَيْءٍ إِذا مـا تَـمَّ نُقصـانُ ** فَـلا يُغَـرَّ بِطيـبِ العَيْشِ إِنسـانُ
هِـيَ الأُمُورُ كَـما شـاهَدْتَها دُوَلٌ ** مَـن سَرَّهُ زَمَـن سـاءَتهُ أَزمـانُ

(أ) هات معنى ما تحته خط في البيتين المذكورين.

(ب) اكتب البيتين التاليين للبيتين المذكورين.

(جـ) ما الجمال في قوله: «من سرَّه زمن ساءته أزمان»؟

السؤال الثاني:

تَبكِي الحَنيفِيَّةُ البَيضَاءُ مِن أَسَفٍ ** كَـما بَكـى لِفِـراقِ الإِلْـفِ هَيْـمَانُ
عَـلى دِيـارٍ مـنَ الإِسْـلامِ خالِيَـةً ** قَـد أَقفَـرَت وَلَهـا بالكُفـرِ عُمْـرانُ
حَيثُ المَساجِدُ قَدْ صارَت كَنائِسَ ما ** فيهِـنَّ إِلّا نَواقِيـسٌ وصلبـانُ
حَتّى المَحاريبُ تَبكي وَهيَ جامِدَةٌ ** حَتّـى المَنابِـرُ تَرثِـي وَهـيَ عِيـدَانُ

(أ) من قائل النص؟ وما مناسبته؟

(ب) اشرح الأبيات بأسلوبك؟

(جـ) ما معنى كل من (الحنفية ، الأسف ، الإلف)، وما مفرد (المحاريب)؟

(د) هات من الأبيات السابقة ما يلي:

١ـ استعارة مكنية، واذكر فائدتها.

٢ـ تشبيهًا ووضِّحه.

٣ـ كلمتين بينهما طباق، واذكر فائدته.

٤ـ أسلوب قصر، واذكر طريقه وفائدته.

(هـ) علل لما يأتي:

١ـ مجيء كلمة «ديار» جمعًا.

٢ـ مجيء كلمة «نواقيس ـ وصلبان» جمعًا.

٣ـ الاعتماد على الطباق في الأبيات.

السؤال الثالث:

يـا غافِلاً وَلَـهُ في الدهـرِ مَوعِظَةٌ ** إن كُنتَ في سِـنَةٍ فالدهرُ يَقظانُ
يا مَن لِذلَّةِ قَوم بَعدَ عِزّهمُ ** أَحـالَ حالُهُـمُ كُفـرٌ وَطُغيـانُ
بِالأَمسِ كانُوا مُلُوكًا فِي مَنازِلِهِمْ ** وَاليَومَ هُم في بِلادِ الكُفرِ عُبْدانُ
فَلَـو تَراهُم حَيـارى لا دَلِيلَ لَهُمْ ** عَلَيهِـمُ مـن ثيـابِ الـذُّلِّ أَلوانُ
وَلَـو رَأَيـت بُكاهُم عِنـدَ بَيعِهِمُ ** لَهالَكَ الأَمرُ وَاستَهوَتكَ أَحزانُ

(أ) هات من الأبيات ما يلي:

١ـ كلمة معناها: (الساهي).

٢ـ كلمة مضادها: (اليقظة).

٣ـ كلمة معناها: (غيَّر وبدَّل).

٤ـ كلمة مفردها: (عبد).

(ب) اكتب البيت الذي به مقابلة.

(جـ) اشرح الأبيات شرحًا موجزًا بأسلوبك.

(د) علِّل لما يأتي.

١ـ استعمال أداة النداء (يا) في قوله: «يا غافلًا».

٢ـ الجمع بين (سِنَة ـ يقظان).

٣ـ النفي بـ (لا النافية للجنس) في قوله: «لا دليل لهم».

(هـ) اختر الصواب مما بين القوسين فيما يأتي:

١ـ «يا من لذلة قوم...» أسلوب: (نداء ـ تعجب ـ استغاثة).

٢ـ بين قوله: «أحال ـ حالهم»: (طباق ـ جناس ـ مقابلة).

٣ـ في قوله «ثياب الذل» (تشبيه ـ استعارة مكنية ـ استعارة تصريحية).

الدرس الثاني والعشرون

من «الرسالة الجدية» لابن زيدون

أهداف الدرس:

بنهاية الدرس يتوقع أن يكون الطالب قادرًا على أنْ:

١ـ يذكر ترجمة موجزة لابن زيدون.

٢ـ يذكر المناسبة التي أثارت ابن زيدون إلى كتابة رسالته الجدية.

٣ـ يحدد سمات شخصية الكاتب وخصائص أسلوبه.

٤ـ يشرح النص المختار من الرسالة بأسلوبه الخاص.

٥ـ يستخرج مظاهر الجمال من النص المختار.

«يا مَوْلايَ وسيدي الذي وِدادي له، واعْتِدادي به، واعْتِمادي عليه، أبقاكَ اللهُ ماضيَ حَدِّ العزم، واريَ زَنْدِ الأملِ، ثابتَ عَهْدِ النِّعْمَة.

إنْ سلَبْتَني ـ أعزَّكَ اللهُ ـ لباسَ إنْعامِكَ، وعطَّلْتَني من حَلْيِ إيناسِك، وغَضَضْتَ عنِّي طَرْفَ حِمايَتِك، بَعْدَ أنْ نظَرَ الأعْمى إلى تأْمِيلي لك، وسَمِعَ الأصَمُّ ثَنائِي عَلَيْكَ، وأحسَّ الجمادُ بإسْتِنَادِي إليْك، فلا غَرْوَ فَقَدْ يَغَصُّ بالماءِ شارِبُهُ، ويقتُلُ الدَّواءُ المُسْتَشْفِيَ بِهِ، ويُؤْتى الحَذِرُ مِنْ مَأْمَنِهِ.

وإنِّي لأتَجَلَّدُ فأقولُ: هلْ أنا إلا يدٌ أدْماها سِوارُها، وَجبينٌ عَضَّهُ إكْليلُهُ، وَمَشْرَفِيٌّ أَلْصَقَهُ بالأرضِ صاقِلُهُ، وسَمْهَرِيٌّ عَرَضَهُ على النَّارِ مُثَقِّفُهُ.

هذا العَتْبُ محمودٌ عواقِبُهُ، وهذه النَّبْوَةُ غَمْرَةٌ ثُمَّ تَنْجَلِي، وهذه النَّكْبَةُ سَحابَةُ صَيْفٍ عنْ قَريبٍ تَقَشَّعُ، وسيدي إنْ أبْطَأَ مَعْذُورٌ:

فَإِنْ يَكُنِ الفِعْلُ الذِّي سَاءَ وَاحِدًا   فَأَفْعَالُهُ اللائِي سَرَرْنَ أُلُوفُ

وليْتَ شِعْرِي ما هذا الذنْبُ الذي لم يَسَعْهُ عَفْوُكَ، ولا أَخْلُو مِنْ أنْ أكونَ بَرِيئًا فَأيْنَ العَدْلُ، أوْ مُسِيئًا فَأيْنَ الفَضْلُ؟»[١].

*** التعريف بالكاتب:** سبقت ترجمته ضمن أعلام الشعر في الأندلس. صـ ١٥٨

*** مناسبة الرسالة:**

كان ابن زيدون وزيرًا لأبي الحزم بن جَهْور أمير قرطبة في عصر ملوك الطوائف، وكانت له منزلة عالية في نفس الأمير، وكلمة نافذة في الدولة، ولا شكَّ أنَّ له عددًا كبيرًا من الحساد الذين يحلمون بالوصول إلى منصبه، والمنافسين في حب «ولاَّدة»، فألصقوا به تهمًا باطلة، حيث أوهموا الأمير أبا الحزم بن جهْور أنَّ ابن زيدون يوالي خصومه ويعمل سرًّا معهم، وأنَّه يطلق لسانه في هجائه، وأنَّ له علاقة مشبوهة بولادة بنت المستكفي، لكنَّها كلها شبهات لا دليل عليها، فاتهموه باغتصاب عقار، ومن ثَمَّ عُرض أمام القاضي «عبد الله بن أحمد المكوي»، الذي وصفه المؤرخون بما يدل على أنَّه ليس مؤهلاً للقضاء، وجاءوا بشاهد واحد هو «ابن العطار» الذي وُصف بأنَّه عارٍ من الثقة والأمانة، فحكم عليه القاضي بالسجن المؤبَّد.

وهو في السجن كتب الرسالة الهزليَّة يسخر فيها من «ابن عبدوس» غريمه في حب ولاَّدة، ثم كتب الرسالة الجدية إلى أبي الحزم بن جهور يستعطفه للعفو عنه.

لكن الرسالة لم تأت بثمرة، وقد تمكَّن ابن زيدون من الفرار من السجن بعد سبعة عشر شهرًا (خمسمائة يوم) قضاها ظلمًا في ذلك السجن، ومن ثمَّ رحل إلى بني عباد في إشبيلية فأكرموه غاية الإكرام.

*** المعنى العام:**

أيها السيد الكريم الذي أحبُّه من قلبي، وأعتمد عليه في كلِّ أموري، أسال الله أن يبقيك قويًّا مطاعًا، وأن يبقي نِعَمه عليك.

---

(١) المولى: تطلق على السيد والعبد، والسياق هنا يدل على السيد. ودادي: حُبِّي. اعتدادي: اهتمامي به، واعتباري له عدة للزمن، يقال: اعتدَّ بالشيء إذا أدخله في حسابه. ماضي: قاطع. واري زند: يقال أورى الزند إذا قدحه فخرجت منه النار. والزند: خشبة تحك بأخرى لإيقاد النار. سلبتني: انتزعت مني. الحلْي: ما يتزين به. الإيناس: الملاطفة وإزالة الوحشة. غضَّ طرفه: خفض بصره. الحماية: الحراسة والوقاية. التأميل: الرجاء. الأصمُّ: الذي لا يسمع. الثناء: المدح. لا غرْوَ: لا عجب. يغصّ: يشرق. المُسْتَشْفِيَ: المريض الذي يشرب الدواء طلبًا للشفاء. الحذِر: المحترس. مأمنه: الجهة التي كان يطمئنُّ إليها. أتجلَّد: أظهر الصبر والجلَد. أدماها: جرحها فنزف منها الدم. السوار: الحلية التي تلبس في المعصم. الإكليل: التاج. المشرفي: السيف (نسبة إلى المشارف وهي قرى مشهورة بصناعة السيوف). السمهريّ: الرمح الصلب (منسوب إلى «سمهر» وهو رجل كان مشهورًا بصناعة الرماح). مثقِّفه: الحداد الذي يقوم بتقويمه. العتْب: العتاب. عواقبه: جمع عاقبة وهي نهاية الشيء. النبوة: الجفوة. الغمرة: الشدَّة. تنجلي: تذهب وتنكشف. النكبة: المصيبة. تقشع: تذهب وتتفرق. أبطأ: تأخَّر. ليت شعري: ليت علمي. يسعه: يشمله. مسيئًا: مذنبًا.

إذا كنتَ أيها الأميرُ قد ابتعدتَ عني، وحرمتَني من القُرْب منك، بعدما عرف القاصي والداني أنني أكثر الناس حبًّا لك وولاءً لسلطانك؛ فهذا أمرٌ وارد؛ لأنَّ الشارب قد يشرق بالماء فيموت، وقد يتسبب الدواء في وفاة المريض.

ومع ذلك فأنا أتجلَّد أمام الشامتين، معتقدًا أنَّها ستؤدي إلى صلابة عودي والكشف عن حقيقة معدني، كما يوضع الحديد في النار لإزالة الصدأ من حدِّه، وأقول إنَّ هذه المحنة سحابة صيف عن قريب تنقشع، وإنَّ هذه الشدة ستزول عما قريب، وإذا كان هناك عمل واحد أحزنني فإنَّ هناك آلاف الأعمال التي أسعدتني من قبل.

ومهما يكن ذنبي فإنَّ عفوك أعظم من جُرْمي، وأنا إمَّا أن أكون بريئًا فالعدل يقتضي أن أخرج، وإمَّا أن أكون مذنبًا فالفضل منك يقتضي ألا أبقى في السجن.

*** مظاهر الجمال:**

– فى قوله (يا مَوْلايَ): إنشاء، نوعه: نداء، وقد اختار فيه أداة النداء (يا) وهي للبعيد، لبعد المسافة بينهما فهو في السجن والأمير في القصر.

– وبين قوله: (اعْتِدادي و واعْتِمادي) جناس يعطي الكلام جرسًا موسيقيًّا.

– وفى قوله: (ماضي حَدِّ العزم): استعارة مكنية حيث شبه العزم بسيف له حد، وفائدتها التجسيم والتشخيص. والتعبير كناية عن قوة العزيمة.

– وفى قوله: (زَنْدِ الأملِ): تشبيه بليغ من إضافة المشبه به إلى المشبه، وفيه تصوير للأمل بأنه الأداة التي تخرج منها النار، وفي هذا تجسيم للمعنوي.

– وفى قوله: (إنْ سلبتني) استخدم أداة الشرط (إنْ) للدلالة على قلة الوقوع.

– وفى قوله: (أعزَّكَ اللهُ) جملة اعتراضية غرضها الدعاء، والغَرَضُ من تكرار هذه الجمل الدعائية استمالة قلب الأمير للعفو والصفح.

– وفى قوله: (لباسَ إنْعامِكَ)، (حَلْيِ إيناسِك): تشبيهان بليغان من إضافة المشبه به إلى المشبه، حيث شبَّه الإنعام باللباس؛ واختار كلمة «اللباس»؛ لأنَّه يستر صاحبه فإنعام الأمير كان يغمره، وشبَّه الإيناس بالحلي، واختار كلمة «الحلي»، للدلالة على أنَّ القرب منه كان حدثًا نفيسًا غاليًا كأنَّه حلي الذهب.

- وفي قوله: (غَضَضْتَ عنِّي طَرْفَ حِمايَتِك): كناية عن التخلِّي عنه، فقد كان يكلؤه بعين رعايته والآن غضَّ عنه ذلك الطرف.

- وفي قوله: (نَظَرَ الأعْمى إلى تأْمِيلي لك، وسَمِعَ الأصَمُّ ثَنائِي عَلَيْكَ): كناية عن وضوح رجائه حتى يكاد يبصره الأعمى.

- وفي قوله: (أحس الجماد): استعارة مكنيَّة، حيث شبَّه الجماد بكائن حيٍّ يشعر باعتماده عليه.

- وفي قوله: (قد يغصُّ): أدخل «قد» على الفعل المضارع للدلالة على التقليل.

- وفي قوله: (يَغَصُّ بالماءِ شارِبُهُ): كناية عن حصول الضرر من حيث كان المرء يرجو النفع، ومثلها قوله (ويقتل الدواء المستشفى به، ويؤْتى الحذر من مأمنه).

- وفي قوله: (وإنِّي لأتَجَلَّدُ): أسلوب خبري مؤكد بإنَّ واللام للدلالة على شدة مجاهدته لنفسه، وتصبره في هذا الموقف، واستخدم الفعل المضاع (أتجلد) للدلالة على تجدد الفعل واستمراره.

- وفي قوله: (هلْ أنا إلا يدٌ أدْماها سِوارُها): إنشاء، نوعه استفهام،خرج عن معناه الحقيقى إلى معنى مجازى وهو النفي، أي: ما أنا...، وهو قصر، وطريقه النفي والاستثناء، وغرضه التوكيد. وفي الجملة تشبيه حيث شبَّه نفسه باليد التي جرحت بسبب السوار الذهبي الذي حولها، وفيها استعارة تصريحية، حيث شبَّه الأمير بالسوار النفيس.

- وفي قوله: (وَجَبِينٌ عَضَّهُ إكْليلُهُ): تشبيه لنفسه بالجبين الذي جرح بسبب التاج الذي فوقه، وفيه استعارة تصريحية حيث شَبَّه الأمير بالإكليل.

- وفي قوله: (وَمَشْرَفِيٌّ أَلْصَقَهُ بالأرضِ صاقِلُهُ): تشبيه لنفسه بالسيف المشرفي الذي وضعه على الأرض صاقله الذي يريد له الخير، وفيه استعارة تصريحية حيث شبه الأمير بالصاقل الذي يزيل الصدأ عن الشاعر.

- وفي قوله: (وسَمْهَرِيٌّ عَرَضَهُ على النَّارِ مُثَقِّفُهُ): تشبيه لنفسه بالرمح السمهري الذي عرضه الحداد على النار من أجل تقويمه، وفيه استعارة تصريحية حيث شبه الأمير بالمثقف الذي يصلح قوام الرمح.

- وفي قوله: (هذا العَتْبُ محمودٌ عواقِبُهُ) حكمة خالدة تدل على أنَّ العتاب والمكاشفة يؤديان إلى صفاء المودة.

- وفي قوله: (وهذه النَّكْبَةُ سَحابَةُ صَيْفٍ عنْ قَريبٍ تَقَشَّعُ): تشبيه صوَّر فيه الشدة التي يعانيها بسحابة الصيف التي لا تمكث طويلاً في السماء، بل سرعان ما تتفرق، والتشبيه يكشف عن أمله في الخلاص من السجن الذي يعانيه.

- وفي قوله: (ما هذا الذنْبُ الذي لم يَسَعْهُ عَفْوُكَ؟): إنشاء، نوعه استفهام، غرضه التعجب، أي: إنَّه من العجيب أن يكون هذا الذنب أكبر من عفوك. والاستفهام يوحي بالاستعطاف.

- وفي الأسلوب استعارة مكنية حيث شبَّه العفو بوعاء يسع الذنب، وفي هذا تجسيم للمعنوي (الذنب والعفو) معًا.

- وفي قوله: (بَرِيئًا، ومُسِيئًا): طباق، يبرز المعني ويوضحه، ويدل على الاستغراق والشمول؛ لأنَّ المتهم إما بريء وإما مسيء ولا يوجد قسم ثالث.

- وفي قوله: (فَأَيْنَ العَدْلُ؟)، وقوله: (فَأَيْنَ الفَضْلُ؟): استفهامان غرضهما التعجب، ويوحيان بالاستعطاف.

❊ ❊ ❊

التعليق على النصّ

أولاً: شخصية الكاتب من خلال النص:

١ـ مثقف واسع الثقافة كثير الاطلاع.

٢ـ كاتب ذو مكانة اجتماعية مرموقة في قومه.

٣ـ لديه القدرة على التصوير والتعبير.

٤ـ ذكيّ يعرف كيف يتخلص من المأزق.

٥ـ قوى الحجة والبرهان.

ثانيًا: خصائص أسلوب الكاتب:

١ـ البراعة في التصوير والدقة في التعبير.

٢ـ كثرة الجمل الاعتراضية للدعاء.

٣ـ كثرة المحسنات البديعية غير المتكلفة.

٤ـ كثرة الاقتباس من شعر الآخرين.

ثالثًا: أثر البيئة في النص:

١ـ قرب الأدباء من الحكام.

٢ـ انتشار ظاهرة التحاسد بين الكتاب.

٣ـ انقلاب الحكام على أصدقائهم لمجرد الشك فيهم دون تمحيص.

٤ـ تأثر الأندلسيين بالمشارقة.

* * *

تدريبات

السؤال الأول:

«يا مَوْلايَ وسيدي الذي وِدادي له، واعْتِدادي به، واعْتِمادي عليه، أبقاكَ اللهُ ماضيَ حَدِّ العزم، واريَ زَنْدِ الأملِ، ثابتَ عَهْدِ النِّعْمَة.

إنْ سلَبْتَني ـ أعزَّكَ اللهُ ـ لباسَ إنْعامِكَ، وعطَّلْتَني من حَلْيِ إيناسِك، وغَضَضْتَ عنِّي طَرْفَ حِمايَتِك، بَعْدَ أنْ نَظَرَ الأعمى إلى تأْمِيلِي لك، وسَمِعَ الأصَمُّ ثَنائِي عَلَيْكَ، وأحسَّ الجمادُ بإسْتِنَادِي إليْك، فلا غَرْوَ فَقَدْ يَغَصُّ بالماءِ شارِبُهُ، ويقتُلُ الدَّواءُ المُسْتَشْفِيَ بِهِ، ويُؤْتَى الحَذِرُ مِنْ مَأْمَنِهِ».

(أ) من قائل النص؟ وما عنوانه؟ وما مناسبته؟

(ب) ضع عنوانا مناسبا للفقرة السابقة.

(جـ) ضع علامة (√) أمام الصواب وعلامة (×) أمام الخطأ.

١ـ كلمة «المولى» تطلق على السيد والعبد. (   )

٢ـ كلمة «مولاي» في النص المقصود بها العبد. (   )

٣ـ النص ينتمى إلى البيئة الأندلسية. (   )

٤ـ التنافس بين الشعراء والأدباء كان كبيرًا في ذلك الوقت. (   )

(د) هات معنى ما تحته خط في الفقرة السابقة.

السؤال الثاني:

«وإنِّي لأتَجَلَّدُ فأقولُ: هلْ أنا إلا يدٌ أدْماها سِوارُها، وَجَبِينٌ عَضَّهُ إكْلِيلُهُ، وَمَشْرَفِيٌّ ألْصَقَهُ بالأرضِ صاقِلُهُ، وسَمْهَرِيٌّ عَرَضَهُ على النَّارِ مُثَقِّفُهُ.

هذا العَتْبُ محمودٌ عواقِبُهُ، وهذه النَّبْوَةُ غَمْرَةٌ ثُمَّ تَنْجَلِي، وهذه النَّكْبَةُ سَحابَةُ صَيْفٍ عنْ قَريبٍ تَقَشَّعُ، وسيدي إنْ أبْطَأَ مَعْذُورٌ:

فَإِنْ يَكُنِ الفِعْلُ الَّذِي سَاءَ وَاحِدًا   فَأَفْعَالُهُ اللائِي سَرَرْنَ أُلُوفُ».

(أ) ضع عنوانًا مناسبًا للفقرة السابقة.

(ب) اختر الصواب مما بين القوسين:

١ـ «وإنِّي لأتجلد» أسلوب مؤكد (بمؤكد واحد ـ بمؤكدين ـ بثلاثة مؤكدات).

٢ـ «هل أنا إلا يد أدماها سوارها» (أسلوب قصر ـ أسلوب إغراء ـ أسلوب تحذير).

٣ـ في قوله: «هل أنا إلا يد أدماها سوارها» تأثر الكاتب بالشاعر:

(أبي تمام ـ أبي الطيب المتنبي ـ البُحْتري).

٤ـ في قوله: «وَجَبينٌ عَضَّهُ إكْلِيلُهُ» (استعارة ـ كناية ـ تشبيه).

(جـ) اشرح الفقرة السابقة شرحاً أدبياً بأسلوبك.

السؤال الثالث:

«وليْتَ شِعْرِى ما هذا الذنْبُ الذي لم يَسَعْهُ عَفْوُكَ، ولا أخْلُو مِنْ أنْ أكونَ بَرِيئًا فَأيْنَ العَدْلُ، أوْ مُسِيئًا فَأيْنَ الفَضْلُ؟».

(أ) ضع عنوانًا مناسبًا للفقرة السابقة.

(ب) اشرح الفقرة السابقة شرحًا أدبيًا بأسلوبك.

(جـ) هات معنى ما تحته خط في الفقرة السابقة.

❊ ❊ ❊

قائمة الموضوعات

تابع قائمة الموضوعات